مُنْيَةُ الطَّالبين

في

تفسيرِ القرآنِ المُبين

تفسير علمي أدبي يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتأريخية وروائية

المجلد الثامن والعشرون

الفقيه المُحقِّق

الشيخ جعفر السُبحاني

دار جواد الأئمة

الفهرس

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين٢٨

٥٨سورة المجادلة

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ
نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ
يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ
يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ
اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ
مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا
نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ
بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ
وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا
بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا
قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ
تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤)
أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ
تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا
يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ
الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا
وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ
إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)

خصائص سورة المجادلة

تسمية السورة

سُمّيت بسورة المجادلة ـ بكسر الدال ـ أخذاً من قوله سبحانه: (تُجَادِلُكَ) وكأنّها وصف للمرأة التي كانت تجادل النبي وتحاوره

فتكون اسمَ فاعل، وأمّا المجادَلة ـ بالفتح ـ فهي مصدر؛ والأوّل أظهر ـ كما مرّ ـ وربّما تُسمّى بـ «سورة الظهار»، كما في مصحف أُبَيّ بن كعب.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

وهي اثنتان وعشرون آية في عدّ الكوفي والبصري والمدني الأوّل، وإحدى وعشرون في المدني الأخير.

وهي مدنية كما هو الظاهر من مضامينها وصياغتها، ويدلّ عليه شأن نزولها أيضاً.

أغراض السورة

تضمّنت السورة عدداً من الأُمور، منها:

١. حكم الظهار وأنّه كان من طلاق الجاهلية، ألغاه الإسلام وعالجه بالكفّارة.

٢. اطّلاع الله على السرائر، وأنّه ما من نجوى إلاّ والله سبحانه عالم بها، ثم ينهى عن النجوى إلاّ إذا كانت بالبِرّ والتقوى.

٣. آداب المجالس، وأنّ على المؤمن أن يفسح لأخيه المؤمن.

٤. تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) .

٥. كشف دسائس الذين تولّوا قوماً غضب الله عليهم وهم المنافقون.

شأن النزول

ونذكر في المقام روايتين:

١. روى الطبريّ بإسناده عن عطيّة العوفيّ، عن ابن عباس في قوله:(قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا) وذلك أنّ خولة (اختُلف في اسمها ونسبها، فقيل: خولة بنت ثعلبة، وخويلة بنت ثعلبة، وخويلة بنت خويلد، وخويلة بنت الصامت، وخويلة ابنة الدليج.) امرأة من الأنصار ظاهر منها زوجها، فقال: أنت عليّ مثل ظهر أُمّي، فأتت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)فقالت: إنّ زوجي كان تزوجني وأنا أحَبّ (الناس إليه) حتى إذا كبرت ودخلت في السن قال: أنت عليّ كظهر أُمّي، فتركني إلى غير أحد، فإن كنت تجد لي رخصة يا رسول الله تنعشني وإيّاه بها فحدّثني بها، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «ما أُمرتُ في شأنك بشيء حتى الآن، ولكن ارجعي إلى بيتك، فإن أُومر بشيء لا أغمِمْه عليك إن شاء الله»، فرجعت إلى بيتها، وأنزل الله على رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الكتاب رخصتها ورخصة زوجها: (قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا)إلى قوله:(وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) فأرسل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)إلى زوجها، فلمّا أتاه قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «ما أردتَ إلى يمينك التي أقسمتَ عليها؟»، فقال: وهل لها كفّارة؟ فقال: «هل تستطيع أن تعتق رقبة؟»، قال: إذن يذهب مالي كلّه، الرقبة غالية وأنا قليل المال، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟» قال: لا والله، لولا أنّي آكل في اليوم ثلاث مرات لكلّ بصري، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «هل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟» قال: لا والله، إلاّ أن تعينني على ذلك بعون وصلاة، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «إنّي معينك بخمسة عشر صاعاً، وأنا داعٍ لك بالبركة». فأصلح ذلك بينهما. (جامع البيان (تفسير الطبري): ١٤ / ٧، رقم ٣٣٧٢١. وروى نحوها باسناده عن قتادة، ص ٦، رقم ٣٣٧١٨، و ٣٣٧١٩؛ الدر المنثور:٨/٧٢.)

وروى الطبريّ بإسناده عن أبي معاوية (محمد بن خازم)، ويحيى بن عيسى [الرملي]، وأبي عبيدة عبدالملك بن معن المسعودي، وجرير [بن عبدالحميد] جميعاً، عن الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عروة بن الزبير، قال [واللفظ لأبي عبيدة]: قالت عائشة: تبارك الذي وسعَ سمعه كلّ شيء، إنّي لأسمع كلام خولة ابنة ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه (وفي لفظ أبي معاوية: قالت عائشة: لقد جاءت المجادِلة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول.)، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله (صلى الله عليه

وآله وسلم)، وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبر سنّي، وانقطع ولدي، ظاهرَ منّي، اللّهم إنّي أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبرئيل (عليه السلام)بهؤلاء الآيات: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا) قال: زوجها أوس بن الصامت.

أقول: وهذه الرواية الصحيحة الإسناد تنقض ما ورد في رواية أبي العالية (جامع البيان (تفسير الطبري): ١٤ / ١٠، الأرقام ٣٣٧٢٨ ـ ٣٣٧٣١ . ورواه ابن ماجة من طريق أبي عبيدة. سنن الترمذي: كتاب الطلاق، باب الظهار، برقم ٢٠٦٣). المرسلة، من أنّ عائشة كانت تغسل رأس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)عند مجيء المجادلة!!

كما ورد في رواية أبي العالية أيضاً أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)قال للمجادلة ـ قبل نزول الآيات فيها ـ : «حَرُمْتِ عليه»، وهذا القول فيه ما فيه، اذ كيف يقضي النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)في أمر لم ينزل فيه الوحي؟

ومن هنا يكون قوله (صلى الله عليه وآله وسلم)للمجادِلة: «ما أُمرتُ في شأنك بشيء»، كما ورد في رواية ابن عباس المتقدّمة، هو الأحقّ بالقبول، والأنسب بمقام الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

تفسير البسملة وفي تفسيرها مباحث

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ):

١. البسملة جزء من السورة

إنّ البسملة جزء من سورة الحمد الّتي تبلغ آياتها سبع آيات، وهذا أمر اتّفق عليه المسلمون في سورة الحمد؛ وأمّا في غيرها، فالإمامية على أنّها جزء من كلّ سورة وهي الآية الأُولى منها، خلافاً لأكثر الجمهور حيث لا يعتبرونها آية من كلّ سورة، ويصفون الآية المتأخّرة عنها بأنّها هي الآية الأُولى، ولذلك يختلف عدد آيات السور وأرقامها وفقاً لهذين القولين.

وقد ورد في بعض الروايات قول الإمام الصادق (عليه السلام) : «قاتلهم الله عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله فزعموا أنّها بدعة إذا أظهروها، وهي: بسم الله الرحمن الرحيم». مجمع البيان: ١ / ١٩ عند تفسير البسملة في سورة الفاتحة.

٢. تفسير الباء

الباء في قوله «بسم الله» للاستعانة، مثل قولك: كتبت بالقلم. وكأنّ المؤمن يستعين باسم الله الّذي هو جامع للأسماء. ويشهد على ذلك قوله سبحانه في ثنايا سورة الحمد: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، ويؤيده أيضاً قول النبي(صلى الله عليه وآله وسلم): «كلّ أمر ذي بال لم يبتدأ ببسم الله فهو أبتر». (وسائل الشيعة:٧، الباب١٧ من أبواب الذكر، الحديث٤؛ كنز العمال:١/٥٥٥ برقم ٢٤٩١).

وجه الدلالة: أنّ المؤمن الواعي الّذي ينظر بعين المعرفة، يعلم أنّ لكلّ شيء أسباباً وعللاً، فهو يهيِّئها وعندما يبدأ بالعمل يستفتحه بقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم»، أي أستعين باسمك في إنجاز عملي باستعمال هذه المقدّمات والأسباب للحصول على مرادي .

٣. سبب حذف الهمزة عند الكتابة

قد دخل حرف الجر على الاسم، والهمزة فيه همزة وصل تسقط عند التلفّظ، ولكنّها تكتب شأن كلّ همزة وصل؛ فعلى ذلك يجب أن تكتب بالنحو التالي: باسم الله الرحمن الرحيم، كما هو الحال في قوله: (اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ) العلق: ١ . ، وقوله: (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)(الواقعة: ٧٤ .).

ولذلك نرى أنّ الأُدباء يكتبون البسملة عند تجرّدها عن الرحمن الرحيم بالنحو التالي: «باسمه تعالى»، وأمّا غيرهم فيكتبون «بسمه تعالى»، فالتلفّظ عند الفريقين واحد، والإملاء مختلف.

وقد اعتذر عن حذف الألف عند الكتابة في التسمية بوجهين:

الأوّل: أنّ كثرة استعمال تلك الآية المباركة فوق كلّ رسالة، وبداية كلّ عمل، صار سبباً لحذف الهمزة كتابة مثل حذفها تلفّظاً، ولذلك نرى أنّ سليمان (عليه السلام) كتب إلى بلقيس ملكة سبأ بالنحو التالي: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) النمل: ٣٠ ..

الثاني: أنّه لو كان متعلّق الجار مذكوراً تكتب الهمزة، كما في قوله:

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) الواقعة: ٩٦ . ٢ ..، وقوله (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ)(العلق: ١)؛ حيث إنّ الجار متعلّق بـ «سبّح» أو «إقرأ» .

وأمّا إذا كان متعلّق الجار محذوفاً، كما في المقام، فتحذف الهمزة تلفّظاً وكتابة، والمفروض أنّ الجار في الآية متعلّق بالمحذوف، نحو: أستعين، وأشباهه.

٤. كيف نستعين بالاسم لا بالذات

هنا سؤال وهو: كيف نستعين باسم الله ، مع أنّ المستعان هو الله سبحانه لا اسمه، فيجب على كلّ مسلم أن يلتجئ إليه لا إلى اسمه، كما يدلّ عليه قوله سبحانه: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) البقرة: ١٨٦ .، فالمسؤول هو ذاته لا اسمه؟

ربّما يقال في الجواب عن ذلك: أنّ لفظة اسم زائدة، فكأنّ القارئ يقول: بالله أستعين، مكان: باسم الله استعين.

يلاحظ عليه: أنّ القول باشتمال القرآن على الحروف الزائدة أمر غير صحيح حتّى في قوله سبحانه: (لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ) البلد: ١ . ـ كما حقّق في محله ـ ،(راجع: آلاء الرحمن في تفسير القرآن للعلاّمة البلاغي: ١ / ٣٨ ـ ٣٩، طبعة صيدا.) فكيف القول باشتماله على كلمة زائدة وهي «اسم»؟!

ويمكن أن يجاب بأنّ الاسم على قسمين:

١. علَم للشخص إذا أُطلق ينتقل الذهن منه إلى المسمّى الخارجي دون أن يدلّ على أمر زائد. مثلاً إذا سُمّي رجل باسم حسن أو جميل، فإذا أُطلق يتبادر منه نفس المسمّى، سواء أكان حسناً جميلاً أم لا. والغاية كون الاسم سبباً للانتقال إلى الفرد الخارجي.

٢. علَم للشخص وفي الوقت نفسه بمنزلة الوصف الّذي يحكي عن صفات الجمال والجلال، لأنّه لم يوضع للذات فقط بل للذات الجامعة للصفات العليا، فإذا قلنا (باسم الله) فكأنّا قلنا: باسم العالِم القادر السميع البصير، إلى غير ذلك من الصفات العالية، فهذا النوع من الاسم الّذي هو الوصف الحاكي عن صفات الجلال والجمال، قابل للاستعانة به؛ لأنّ الاستعانة به، كأنّها استعانة بالذات، فكأنّ الإنسان يستعين بالموصوف بصفات الجلال والجمال.

وبالجملة الاسم بالمعنى الأوّل علَم محض لا دور له سوى إحضار المسمّى في ذهن المخاطب.

وبالمعنى الثاني اسم، لكنّه في الوقت نفسه لا يفتقد معنى الوصفية، ولذلك يحكي عن الصفات الجمالية والجلالية المندرجة تحت ذلك الوصف. فالاستعانة بهذا الاسم استعانة بذاته تبارك وتعالى.

نعم: السؤال والجواب متعلّقان بما إذا قلنا بأنّ الباء للاستعانة والمتعلّق هو «أستعين» دون ما إذا كان الجارّ متعلق بـ (أبتدئ)، وتقدير الكلام: أبتدئ قراءتي بتسمية الله أو أقرأ مبتدئاً بتسمية الله، قال الطبرسي: هذا القول أقرب للصواب، لأنّا أُمرنا أن نفتتح أُمورنا بتسمية الله كما أُمرنا بالتسمية على الأكل والشرب والذبائح، ألا ترى أنّ الذابح إذا قال: بالله، ولم يقل: باسم الله، لكان مخالفاً لما أُمر به. مجمع البيان: ١ / ٢١ .

فالمؤمن في كلّ حال يذكر الله سبحانه بخلاف المنافق، قال سبحانه: (نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ)(الحشر١٩) .

٥. معنى «الإله» في الذكر الحكيم

المشهور أنّ «الله» أصله «إله» فحذفت همزته وأُدخل عليه الألف واللام، فخُصّ بالباري، ولتخصُّصه به قال تعالى: (رَبُّ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) الحشر: ١٩ . .

والمهم هنا، هو تفسير لفظ الإله، وتبيين معناه، وقد فُسّر بوجوه سبعة، إليك بيانها:

١. مشتق من الأُلوهية التي هي العبادة، فإن التألّه، هو التعبّد. يقال: فلان متألّه، أي متعبِّد، قال رؤبة :

لله درّ الغانيات المُدّهِ[٣] *** لمّا رأين حلي المُموَّهِ

سبّحن واسترجعن من تألّهي

٣ . المُدَّه، جمع مادِه، وهو المادح .

أي من تعبّدي. ويقال: أَلِه الله فلانٌ إلاهةً، كما يقال: عبده عبادة التبيان في تفسير القرآن: ١ / ٢٨ .. فعلى هذا يكون معناه: الّذي يحقّ له العبادة .

٢. مشتق من الوله وهو التحيّر، يقال: أَله يأله إذا تحيّر.

٣. مشتق من قولهم: أَلَهْتُ إلى فلان أي فَزِعتُ إليه ، لأنّ الخلق يألهون إليه، أي يفزعون إليه في حوائجهم.

٤. مشتق من أَلِهتُ إليه أي سكنت إليه، لأنّ الخلق يسكنون إلى ذكره .

٥. مشتق من لاه أي احتجب. والمعنى أنّه سبحانه المحتجب بالكيفية عن الأوهام، الظاهر بالدلائل والأعلام. (مجمع البيان: ١ / ١٩ .)

٦. مشتقّ من أَلِه الفصيل إذا ولع بأُمّه. والظاهر أنّه يرجع إلى التفسير الثالث، أي أنّه مشتق من أَلَهَ بمعنى «فزع».

٧. مشتق من «لاه» إذا ارتفع، والله سبحانه وتعالى هو المرتفع عن مشابهة الممكنات ومناسبة المحدثات.(تفسير الرازي: ١ / ١٥٨ ـ ١٦١ .)

والحق أنّه لا صلة لهذه الوجوه والمعاني لما وضع له لفظ «إله» وإنّما هي من لوازم المعنى، لا نفسه ولا جزءه بل لازماً له؛ لأنّ من كان إلهاً ـ بالمعنى الّذي نذكره ـ للعالمين، يُعبد وتتحيّر العقول في درك كنهه، وتسكن إليه النفس ويُحتجب عن الأوهام وإن كان وجوده ظاهراً بالدلائل والبرهان.

ما هو المختار؟

إنّ لفظ الجلالة وما يعادله في عامّة اللغات موضوع لما يتبادر في عامّة الأذهان بصورة إجمالية من كونه مصدر الخلق والكون الّذي يعبّر عنه في لسان الحكماء والمتكلّمين بواجب الوجود، أو الذات الجامعة لصفات الجمال والجلال، إلى غير ذلك من الكلمات الّتي هي تعبير تفصيلي لما هو المتبادر عند عامّة الشعوب.

ثمّ إنّ الوثنيين اخترعوا لله سبحانه أنداداً وأشباهاً على درجات مختلفة من الكمال والجمال، وتفويض الأُمور إليهم، وإن كانت هي مجرّد أسماء ليس لها من الأُلوهية شيء سوى الاسم، يقول سبحانه : (إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَان) النجم: ٢٣ ..

فإذا حاول العرب أن يشيروا إلى هذه الآلهة المزعومة مع ما لها من درجات ومراتب مختلفة من القرب والبعد عن الله سبحانه يطلقون عليها لفظ الآلهة، وعلى هذا فلفظ الجلالة علم لمصداق كامل لمفهوم الإله، ولكن لفظ الإله موضوع لمعنى كلّي يشمله وسائر الآلهة المزعومة الّتي ليست على درجة واحدة من الكمال والجمال. فربما يكون إلهاً ولا يكون خالقاً ورازقاً، بل يكفي في كونه معزّاً أو ناصراً أو غافراً للذنوب أو مفوّضاً له شيء من أفعاله سبحانه.

وقد جاء في «قاموس الكتاب المقدّس»: يوجد في العهد القديم باللغة العبرية ثلاث مترادفات رئيسية لاسم الجلالة وهي:

«الوهيم» و «يهوه» و «ادوناي»، فالاسم الأوّل يدلّ على صفة الله كالخالق العظيم... وأمّا الاسم الثاني يدلّ على علاقة الله مع بني إسرائيل وهو إله تابوت العهد، وإله الرؤيا والإعلان، وإله الفداء. قاموس الكتاب المقدس: ١٠٧.

والقرآن الكريم إذا أراد أن يشير إلى الفرد المعيّن من الكلّي يستعمل لفظ الجلالة «الله» وإذا أراد أن يشير إلى المعنى الكلّي الشامل لهذا الفرد وغيره، الذي يعتقد به المشركون والّذي له عندهم درجات ومراتب، يستعمل لفظ «إله»، كما يقول سبحانه ـ ناطقاً عن لسان المشركين ـ : (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) سورة ص: ٥ .

ولذلك نرى أنّه في بعض اللغات العالمية يفرّقون بين مفاد لفظ الجلالة، ومفاد «الإله» ويعبّرون عن المعنيين بلفظ واحد إلاّ أنّهم يفرّقون بينهما في الكتابة ، فعندما يشيرون إلى «الله» يكتبونها بالشكل التالي: **(God)**، وعند الإشارة إلى المعنى الكلّي لهذا الفرد يكتبونها بالنحو التالي: **(god)**.

هذا هو المدّعى ،والدليل عليه من وجوه:

الأوّل: مادة اللفظين واحدة

إنّ مادة اللفظين واحدة فكيف يفترقان في المعنى؟ والدليل على ذلك قولهم: إنّ «الله» مشتق من لفظ «إلاه».

قال سيبويه في تفسير لفظ الجلالة: إنّ أصله «إلاه» على وزن فعال، فحذفت الفاء الّتي هي الهمزة وجعلت الألف واللام عوضاً لازماً عنها، بدلالة استجازتهم قطع هذه الهمزة الداخلة على لام التعريف في خصوص النداء في نحو قوله: «يا الله اغفر لي»، ولو كانت غير عوض لم تثبت الهمزة في الوصل كما لم تثبت في غير هذا الاسم.(لاحظ: مجمع البيان: ١ / ١٩.)

فإذا كانت المادة واحدة فيكون لفظ الجلالة بالمعنى الموجود في مادته علماً للشخص. ومن المعلوم أنّ لفظ الجلالة حاك عن الصفات الجلالية والجمالية أو ما أشبه ذلك، فيجب أن تكون مادته حاكية عن هذه المعاني كلّها لا عن معنى المعبود أو غيره من المعاني السبعة فقط.

الثاني: الاحتجاج بعدم وجود إله غير الله

إنّه سبحانه حينما يستدلّ على التوحيد وأنّه لا إله إلاّ الله فإنّه يستخدم كلمة الإله ويقول:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاء أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْل تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) القصص: ٧١ ـ ٧٢..

ترى أنّه سبحانه يعدُّ تدبير العالم على نحو يعيش الإنسان فيه عيشاً رغيداً من شؤون الإله، ولذلك يقول: (مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاء)، أو يقول: (مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْل) فهذا تصريح بأنّ التصرّف في الكون من شؤون الإله، ثم يردّ على المشركين بأنّ التصرّف في الكون وإن كان من شؤون الإله إلاّ أنّه لا إله إلاّ الله.

فلو وضعنا «الخالق البارئ» وغيرها ممّا يعدّ تفسيراً للمعنى الإجمالي للإله، مكانه: لانسجم معنى الفقرة ، بأن يقال: لا خالق ولا بارئ ولا مدبّر غير الله، لانسجمت.

وأمّا لو جعلنا المعبود مكانه، لاختلّت بلاغة الآية، كأن نقول: هل معبود إلاّ الله يأتيكم بالنهار أو بالليل، إذ ليس التصرّف في الكون على النحو البديع من شؤون المعبود، وما أكثر المعبودين ولكنّهم لا ينفعون ولا يضرون.

وبعبارة أُخرى: إنّ التصرّف في الكون وتنظيم أسباب الحياة من شؤون من بيده الكون ومصير الإنسان، فكأنّه سبحانه يقول: لو اختلّ النظام بأنْ دام النهار أو دام الليل فأيّ إله (من بيده الكون) يأتي بالضياء بعد الليل، أو به بعد النهار، وليس هو إلاّ الله، وأمّا لو قلنا بأنّه بمعنى المعبود يكون المعنى كالتالي: فأي معبود يأتي بالضياء بعد الليل أو العكس. ومن المعلوم أنّ التصرّف في

الكون ليس من شؤون مطلق المعبود. وإنّما هو من شؤون من بيده الكون إيجاداً وتدبيراً. فيكون الإله في الآيتين بمعنى المتصرّف في الكون والمدبّر وما يرادفه.

الثالث: الاستدلال على التوحيد بلزوم الفساد عند تعدّد الآلهة

استدلّ سبحانه على التوحيد في الربوبية بآيات منها:

١. قوله تعالى: (لَو كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاّ اللّه لَفَسَدَتا) الأنبياء: ٢٢..

فإنّ البرهان على نفي تعدّد الآلهة لا يتمّ إلاّ إذا فُسّر «الإله» في الآية بالمتصرّف، المدبّر، أو من بيده أزمّة الأُمور أو ما يقرب من هذين. ولو جعلنا الإله بمعنى المعبود لانتقض البرهان، لبداهة تعدّد المعبود في هذا العالم، مع عدم الفساد في النظام الكوني، و قد كانت الحجاز يوم نزول هذه الآية مزدحمة بالآلهة، و مركزاً لها و كان العالم منتظماً، غير فاسد.

و عندئذ يجب على مَن يجعل «الإله» بمعنى المعبود أن يقيّده بلفظ «بالحق»، أي لو كان فيهما معبودات ـ بالحق ـ لفسدتا، و لمّا كان المعبود بالحقّ مدبِّراً و متصرّفاً، لزم من تعدّده فساد النظام، وهذا كلّه تكلّف لا مبرّر له. والدليل على ذلك عدم خطوره عند سماعه.

٢. قوله سبحانه: (مَا اتَّخَذَ اللّهُ مِنْ وَلَد وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِله إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِله بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعضُهُمْ عَلى بَعْض) المؤمنون: ٩١..

ويتمّ هذا البرهان أيضاً إذا فسّرنا الإله بما ذكرنا من أنّه كلّي ما يطلق عليه لفظ الجلالة.

و إن شئت قلت: إنّه كناية عن الخالق، أو المدبّر، المتصرّف، أو من يقوم بأفعاله و شؤونه. والمناسب في هذا المقام هو الخالق. و يلزم من تعدّده ما رتّب عليه في الآية من ذهاب كلّ إله بما خلق و اعتلاء بعضهم على بعض.

و لو جعلناه بمعنى المعبود لانتقض البرهان، لأنّه لايلزم من تعدّده أي اختلال في الكون. وأدلّ دليل على ذلك هو المشاهدة. فإنّ في العالم آلهة متعدّدة، و قد كان في أطراف الكعبة المشرّفة ثلاثمائة و ستون إلهاً و لم يقع أيُّ فساد و اختلال في الكون.

فيلزم على مَن يفسّر (الإله) بالمعبود ارتكاب التكلّف بما ذكرناه في الآية المتقدِّمة. وما ربّما يتصوّر من غلبة استعمال الإله في المعبود بالحق فلا حاجة إلى تقديره، مدفوع باستعماله ـ كثيراً في غيره ـ كقوله: (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا) (سورة ص: ٥. لاحظ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الّذي وضعه محمّد فؤاد عبدالباقي المصريّ، فقد استعمل في كثير من الآيات في مورد المعبود الباطل، لو سلّمنا وضعه للمعبود. ولذلك قلنا في «مورد المعبود الباطل» لا في معناه .).

٣. قوله سبحانه: (قُل لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لابتغَوْا إِلى ذِي الْعَرْش سَبِيلاً) الإسراء: ٤٢..

فإنّ ابتغاء السبيل إلى ذي العرش من لوازم تعدّد الخالق أو المدبّر المتصرّف أو من بيده أزمّة أُمور الكون أو غير ذلك ممّا يرسمه في ذهننا معنى الأُلوهية، و أمّا تعدّد المعبود فلا يلزم ذلك إلاّ بالتكلّف الذي أشرنا إليه فيما سبق.

الرابع: الملازمة بين الأُلوهية وعدم ورود النار

قوله تعالى: (إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّه حصبُ جهَنّمَ أَنتُمْ لها وارِدُونَ* لَوْ كانَ هؤلاءِ آلهةً ما وَرَدُوها) الأنبياء: ٩٨ـ ٩٩..

والآية تستدلّ بورود الأصنام و الأوثان في النار على أنّها ليست آلهة، إذ لو كانوا آلهة ما وردوا النار.

والاستدلال إنّما يتمّ لو فسّرنا الآلهة بما أشرنا إليه، فإنّ خالق العالم أو مدبّره و المتصرّف فيه أو من فوّض إليه أفعال اللّه، أجلّ من أن يُحكَم عليه بالنار أو أن يكون حصبَ جهنّم.

وهذا بخلاف ما إذا جعلناه بمعنى المعبود ، إذ لا ملازمة بين كونها معبودات وعدم كونها حصب جهنم، وعندئذ لا يتمّ البرهان إلاّ إذا قُيّد المعبود بقيد أو قيود ترفعه إلى حدّ القداسة المطلقة، وهذا تكلّف واضح، ولو أمعنت في الآيات التي ورد فيها لفظ

الإله و الآلهة لقدرت على استظهار ما اخترناه.

الخامس: لزوم اختلال المعنى لو فسّر بالمعبود

قوله سبحانه: (فَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) الحج: ٣٤..

فلو فسّر الإله في الآية بالمعبود لزم عدم صحّة المعنى، إذ المفروض تعدّد المعبود في المجتمع البشري، و لأجل دفع هذا ربّما يقيّد الإله هنا بلفظ «الحقّ»، أي المعبود الحقّ إلٰه واحد. ولو فسّرناه بالمعنى الإجمالي الذي له آثار في الكون من التدبير والتصرّف، و إيصال النفع ، و دفع الضرّ على نحو الاستقلال، لصحّ حصر الإله ـ بهذا المعنى ـ في واحد، بلا حاجة إلى تقدير كلمة بيانية محذوفة، إذ من المعلوم أنّه لا إلٰه في الحياة الإنسانية والمجتمع البشري يتّصف بهذه الصفات التي ذكرناها إلاّ اللّه سبحانه.

ولا نريد أن نقول: إنّ لفظ «الإله» بمعنى الخالق المدبّر المحيي المميت الغافر على وجه التفصيل، إذ لا يتبادر من لفظ «الإله» إلاّ المعنى الإجمالي، بل هذه الصفات عناوين تشير إلى المعنى الذي وضع له لفظ الإله. و معلوم أنّ كونَ هذه الصفات عناوين مشيرة إلى ذلك المعنى الإجمالي، غيرُ كونها معنى موضوعاً له اللّفظ المذكور، كما أنّ كونه تعالى ذو سلطة على العالم كلّه أو سلطة مستقلة غير معتمدة على غيره، وصف نشير إليه بالمعنى الإجمالي الذي نتلقّاه من لفظ «اللّه»، لا أنّه نفس معناه.

السادس: استعمال أحد اللفظين مكان الآخر

ربّما يستعمل لفظ الجلالة مكان الإله، ويتجرّد عن معنى العلَمية ويبقى فيه معنى الوصفية، فلذلك يصح استعماله مكان الإله، وإليك بعض موارده:

قال سبحانه: (وَ هُوَ اللّهُ فِي السَّمواتِ وَ فِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) الأنعام: ٣ . ، فالآية تشير إلى أنّ إلٰه السماء هو إلٰه الأرض، وليس هناك آلهة بحسب الأنواع والأقوام، فالضمير «هو» مبتدأ ولفظ الجلالة خبر، والمعنى هو المتفرد بالإلهيّة في السماوات، فوزانها وزان قوله سبحانه: (وَ هُوَ الذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَ فِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)(الزخرف: ٨٤ .).

فإنّ اللفظين في الآيتين بمعنى واحد، وهو أنّ لفظ الجلالة في الآية الأُولى خرج عن العلَمية وعاد إلى الكلّية والوصفية، ولذلك صحّ جعله مكان الإله في الآية الأُولى، وجيء بنفس لفظ الإله في الآية الثانية.

السابع: معنى «الإله» في تثليث النصارى

حكى القرآن الكريم عقيدة النصارى في اللّه سبحانه، وهي ما تُعرف بعقيدة التثليث، وتتلخّص في وجود ثلاثة أقانيم، هي: الأب، والابن، والروح القدس؛ أي أنّ هناك إلهاً أباً وإلهاً ابناً وإلهاً باسم: الروح القدس .

وهذا القول لا يخلو من أمرين: إمّا أن يكون كلّ واحد من هذه الأقانيم الثلاثة جزءاً يشكّلُ وجوده سبحانه وعندئذ تَصبح له شخصية واحدة ذات أجزاء، أو أن يكون كُلّ واحد منها ذا شخصية مستقلة . وعلى كل تقدير فالجميع عندهم إلٰه، يقول سبحانه: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ قَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْوَاهُ النَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) المائدة: ٧٢ .، ثم قال سبحانه: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(المائدة: ٧٣ .).

ففي الآية الأُولى يحكي عنهم قولهم: إنّ اللّه هو المسيح ابن مريم، فالمسيح عندهم هو اللّه المتجسّد.

وردّ عليهم في نفس الآية بأنّه كيف يصحّ ذلك مع أنّ المسيح لا يأمر الناس بعبادته، بل بعبادة غيره، وذلك بقوله: (اعْبُدُوا اللّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ) ؟

وفي الآية الثانية يحكي سبحانه عنهم اعتقادهم بالآلهة الثلاثة، فكلّ من الأب والابن والروح القدس عندهم إلٰه، ويردّ عليهم بأنّه

لا إله إلاّ إله واحد.

أمّا كيفية الاستدلال على أنّ الإله في هذه الآيات وما يليها ليس بمعنى المعبود أو غيره من المعاني السبعة، بل أُريد به ما يُراد من لفظ الجلالة بتجريده عن العلَمية، فواضحة لدى التدبّر، بشرط أن نقف على مغزى الاختلاف بين الموحّدين وأهل التثليث، إذ ليس مصبّ الاختلاف بينهم، وحدة المعبود أو تعدّده، وإنّما هو لازم نزاع آخر يرجع إلى وحدة ذات الواجب أو تعدّدها، فإذا قال سبحانه: (إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ) النساء: ١٧١ ، فلا يريد أنّه معبود واحد ليس له ولد، وإنّما يُريد بساطة ذات الله ووحدتها .

وإذا قالت النصارى: إنّ الله ثالث ثلاثة، فمرادهم أنّه ثالث الآلهة وأنّ الواجب جلّ اسمه أو ما يشار إليه بلفظ الجلالة، آلهة ثلاثة لا إله واحد، فإذا ردّ عليهم سبحانه بقوله: (وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ) يُريد وحدة الذات وبساطتها.

فالإله في كلام كلّ من الطرفين يشير إلى تلك الذات المقدّسة فيكون مرادفاً للفظ الجلالة، لكن بشرط تجريدها عن العلَمية .

ولو فُسّر لفظ (الإله) في هذه الموارد بوحدة المعبود أو كثرته، لزم غض النظر عمّا هو موضع النزاع لبّاً عبر قرون.

ومنه يظهر مفاد الإله في الآية التالية، إذ لا محيص من تفسيره بالمعنى المختار الّذي يعبّر عنه بواجب الوجود، الخالق، البارئ، إلى غير ذلك من الصفات.

قال سبحانه: (وَ إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَ لاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ) المائدة: ١١٦ ،

وذلك أنّ علماء النصارى يتبنّون التثليث وينسبونه إلى عيسى بن مريم وأنّه دعا إلى إلهين آخرين من دون الله وهما نفسه وأُمّه.

ومن المعلوم أنّ النفي والإثبات يردان على موضوع واحد وهو ادّعاء النصارى أنّ ثمّة إلهين وراء الله سبحانه هما: المسيح وأُمّه، وردّ سبحانه على تلك المزعمة بأنّ الإله واحد لا غير.

فعندئذ لا يمكن تفسير الإله بمعنى المعبود، إذ الكلام يتعلّق بمقام الذات وأنّه كثير أو واحد لا بموضع المعبودية.

ونظيرها الآية التالية قال سبحانه: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رُسُلِهِ وَ لاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّموَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ وَ كَفَى بِاللهِ وَكِيلاً) النساء: ١٧١ . .

وحصيلة الكلام هو أنّ الاختلاف والنزاع بين أهل التوحيد وأهل الكثرة راجع إلى وحدة ما يشار إليه بلفظ الجلالة أو تعدّده. وأنّه هل هوهوية بسيطة واحدة أو هي مركبة أو متعدّدة يعبّر عنها بالإله الأب، والإله الابن، والإله الروح القدس.

فحقيقة النزاع عبارة عن دراسة مسألة فلسفية غامضة، وهي أنّ جوهر الذات هل هي شيء واحد أو هي أشياء؟ فمن السذاجة أن نعبّر عن واقع النزاع بوحدة المعبود وتعدّده، فإذا قيل: الإله الواحد، أو ثالث الآلهة، فلا يُراد عندئذ إلاّ ما يُشار إليه بلفظ الجلالة الّذي يشير إلى الذات المستجمعة لصفات الجمال والجلال ولكن بقيد تجريده عن العلَمية.

الثامن: وقوع قوله (لا إله إلاّ هو) تعليلاً لحصر الشؤون

قد وقع قوله:«لا إله إلاّ هو» في الآيات التالية تعليلاً لحصر الرازقية، وربوبية المشرق والمغرب، ومالكية السماوات والأرض في الله سبحانه ولا يصح كونه علّة للحصر المذكور إلاّ إذا أُريد به المعنى الإجمالي الملازم للخالقية والرازقية والربوبية والمالكية، فعندئذ يصلح أن يقع تعليلاً، لما تقدّمه من حصر الأُمور المذكورة في الله.

١. (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) فاطر: ٣ . .

فصدر الآية ينفي أي خالق غير الله يرزق الناس، وذيلها أعني قوله: (لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) بمنزلة التعليل له ولا يصح تعليلاً إلاّ إذا أُريد به ذلك المعنى السامي الملازم للشؤون، فكأنّه يقول:إذا لم يكن إله ـ بهذا المعنى ـ فلا خالق يرزق الناس إلاّ الله.

٢. (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً) المزمل: ٩ ..

إنّ صدر الآية يصفه سبحانه بكونه (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ)، أي رب عالم الشهادة، ثم يأتي بقوله: (لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) تعليلاً لما تقدّم، ولا يصحّ ذلك إلاّ بتفسير الإله بالمعنى السامي الّذي يدلّ عليه لفظ الجلالة، لكن مجرّداً عن العلَمية فيكون المعنى: إذا لم يكن خالق مدبر و... إلاّ الله، فهو رب السماوات والأرض و...ثم عطف عليه قوله: (فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً)؛ لأنّ اتخاذ الوكيل بمعنى إيكال الأُمور إليه من شؤونه سبحانه.

٣. (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَ الأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ)، الأعراف: ١٥٨ .وكيفية الاستظهار هي نفس ما تقدّم في الآيتين المتقدّمتين، فلا يصلح قوله: (لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ)تعليلاً لما سبق، إلاّ إذا أُريد بالإله المعنى الإجمالي السامي الملازم للخالقية والرازقية والربوبية وغيرها، فإذا كانت هذه الشؤون منحصرة في الله سبحانه فله ملك السماوات والأرض.

التاسع: مفهوم الإله عند الوثنيين

يظهر من بعض الآيات أنّ الإله عند المشركين عبارة عمّن ينصر عُبّادَه في الشدائد والملمّات، ويورث لهم عزّاً في الحياة.

قال سبحانه حاكياً عن عقيدتهم: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ) يس: ٧٤ ..

وقال عزّ من قائل: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا) مريم: ٨١ ..

وكانوا يسوّون بين الله والإلهة، يقول سبحانه حاكياً عن قولهم يوم القيامة: (تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَل مُبِين * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨ ..

فإذا كانت الآلهة المزعومة عند المشركين هي الناصرة في الشدائد وواهبة العزّة، وفي مستواه سبحانه، فلا يراد بها عند الإطلاق إلاّ ما يراد من لفظ الجلالة مجرّدة عن العلَمية.

ولذلك يردّ عليهم سبحانه في غير واحد من الآيات بأنّ الآلهة لا يملكون من شؤونه سبحانه شيئاً، ويقول: (وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ) الفرقان: ٣ ..

والآية تدلّ على أنّ من شؤون الإله هو الخلق، والأصنام فاقدة له .

ويقول: (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لاَ هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ)(الأنبياء: ٤٢).

والآية تدلّ على أنّ من شؤون الإله: القدرة والدفاع عن نفسه وعمّن يعبده، وآلهتهم تفقد هذه اللوازم والشؤون.

فالآيتان تدلاّن على أنّه كلّما أُطلق الإله لا يتبادر منه إلاّ مَن يملك هذه الشؤون لا مجرد كونه معبوداً ـ ولذلك ردّ الوحي الإلهي وصفهم أو أصنامهم بالأُلوهية، بعدم وجود هذه الشؤون فيها.

انتقال هُبَل إلى مكة

ويوضح مكانة الأوثان عندهم ما نقله ابن هشام في سيرته يقول: إنّ عمرو بن لحَيّ خرج من مكة إلى الشام في بعض أُموره، فلمّا قدم مآبَ في أرض البَلْقاء، رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام الّتي أراكم تَعبْدون؟ قالوا له: هذه أصنْام نعبدها، فنَسْتمطرها فتُمْطرِنا، ونَسْتَنْصرها فتَنْصرنا ؛ فقال لهم: أفلا تُعْطُونني منها صَنماً، فأسيرَ به إلى أرض العرب، فيعبدوه؟ فأعْطَوْه صَنماً يقال له هُبَل، فقدم به مكّة، فَنَصَبه وأمَر الناس بعبادته وتعظيمه . السيرة النبوية:١/٥٠، قصة عمرو بن لحَيّ وذكر أصنام العرب.

فإذا كان الإمطار عند الجفاف والإنصار في الحروب والشدائد من شؤون الإله المزعوم، فيكون المتبادر منه هو نفس ما يتبادر من

لفظ الجلالة، مجرّداً عن العلَمية.

العاشر: الإله في كلام الإمام علي (عليه السلام)

وممّا يؤيد ما ذكرناه من عدم الفرق بين الإله، ولفظ الجلالة إلاّ بالكلّية والجزئية، كلام الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في نقد كون كلامه سبحانه قديماً، بأنّه لو كان كذلك، لكان إلهاً ثانياً. وإليك نصّه:

«يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: (كُنْ فَيَكُونُ)، لاَ بِصَوْت يَقْرَعُ، وَلاَ بِنِدَاء يُسْمَعُ؛ وَإِنَّمَا كَلاَمُهُ سُبْحانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذلِكَ كَائِناً، وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلهاً ثَانِياً».(نهج البلاغة: الخطبة ١٨٦.)

أي لو كان قديماً، لكان واجب الوجود، أو ما يفيد ذلك، ولا معنى لتفسير الإله بالمعبود، أي لكان إلهاً معبوداً ثانياً.

وفي بعض كلماته أيضاً، إشارة إلى ما ذكرنا، حيث قال:

«أَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلهِكَ». نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٣١ .

وقال في موضع آخر:

«وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذلِكَ بِالْإِسْتِعَانَةِ بِإِلهِكَ». نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٣١ .

حصيلة البحث:

١. ليس للإله إلاّ معنى واحد، وهو نفس ما يفهم من لفظ الجلالة لكن مجرّداً عن العلَمية.

٢. أنّ تفسير الإله بالمعاني السبعة أو الأكثر تفسير باللوازم والآثار للإله، لنفس معناه.

٣. لفظ الإله ليس بمعنى الخالق المدبّر المحيي المميت الغافر، إذ لا يتبادر من لفظ الإله إلاّ المعنى البسيط، بل هذه الصفات عناوين تشير إلى المعنى الموضوع له لفظ الإله، ومعلوم أنّ كون هذه الصفات عناوين مشيرة إلى ذلك المعنى البسيط، غير كونها معنى موضوعاً للفظ المذكور. فتدبّر.

تفسير الرحمن الرحيم

قوله: (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) كلاهما من صفات الله سبحانه، وأسمائه الحسنى، والكلام يأتي في معنى الرحمة، فالظاهر من الطبرسي أنّها بمعنى النعمة، فقال عند تفسير البسملة وبيان لغتها: «الرحمن الرحيم» اسمان وضعا للمبالغة واشتقا من الرحمة وهي النعمة إلاّ أنّ (فعلان) أشد مبالغة من (فعيل). مجمع البيان: ١ / ٢٠، ط صيدا.

وعلى هذا فكلا اللفظين بمعنى المنعم مع تفاوت بينهما، كما سيوافيك.

وأمّا على القول بأنّ الرحمة بمعنى رقة القلب وتأثره بما يطرأ عليه من الحوادث المؤلمة، كما لو سمع ببكاء يتيم جائع فيرقّ له قلبه ويقوم بإطعامه، والإنعام عليه، فلو كان هذا اللفظ بمعنى رقّة القلب فلا يمكن وصف الله سبحانه به؛ لأنّ رقّة القلب وتأثّره بالحوادث محال على الله سبحانه لتنزّهه عن الانفعال.

ونظير ذلك وصفه سبحانه بالغضب، فإنّ الغضب عبارة عن فوران الدم في القلب يوجب تشنّجاً في أعضاء الإنسان تهيّؤاً للانتقام، والله سبحانه فوق ذلك؛ لأنّ الانفعال من صفات المادّة، والله فوقها.

ومع ذلك فقد ورد في الذكر الحكيم قوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ) الممتحنة: ١٣..

والجواب عن الموردين ـ الرحمة بمعنى رقّة القلب، والغضب بمعنى فوران الدم ـ ونظائرهما واحد، وهو ما يقال: خذ الغايات واترك المبادئ.

توضيحه: أن رقّة القلب تكون مبدأً للتفضّل والإحسان، كما أنّ الغضب يكون سبباً لإيقاع العقوبة والتعذيب، فوصفه

سبحانه بهما لأجل الغايات، وهو أنّه متفضّل بالإحسان بالنسبة إلى عباده أو آخذ بالعقوبة لمن خالفه وجادله .

فكلّ وصف يكون فيه مبدأً ماديّ وانفعالي ومع الوصف يكون له غاية تناسب الله تبارك وتعالى، فوصفه به إنّما هو لأجل النتيجة لا لأجل المبدأ.

ومنه يُعلم الجواب عن كثير من الأوصاف الّتي هي من شؤون الإنسان كالمكر والمخادعة والاستهزاء، ولا يمكن وصفه بها سبحانه ، ومع ذلك فقد أُطلقت عليه سبحانه في غير واحدة من الآيات منها:

قوله سبحانه: (وَمَكَرُوا وَ مَكَرَ اللّهُ وَ اللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) آل عمران: ٥٤..

وهكذا قوله: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَ هُوَ خَادِعُهُمْ)(النساء: ١٤٢).

وقوله سبحانه حاكياً عن المنافقين: (قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ* اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)(البقرة: ١٤ ـ ١٥).

ومن المعلوم أنّ المكر والخديعة حرفة العاجز، والاستهزاء عمل النّوكى، غير أنّ وجه وصفه سبحانه بهذه الأفعال إنّما هو لأحد أمرين:

١. إمّا رعاية للمشاكلة في الكلام، حيث إنّ القائل وصف عمله مكراً واستهزاءً، والله يعبّر عن ردّ مكرهم وإبطال استهزائهم بنفس عبارة القائل ، وهذا من المحسّنات الكلامية، قال الشاعر:

قالوا اقترح شيئاً نُجد لك طبخُهُ *** قلت اطبخوا لي جبّة وقميصا[٢]

[٢] هذا البيت لأبي حامد أحمد بن محمد الأنطاكي، المعروف بأبي الرقعمق، نادرة الزمان وجملة الإحسان، وممّن تصرّف بالشعر الجزل في أنواع الجد والهزل، وأحرز قصب الفضل، وهو أحد المداحين المجيدين والفضلاء المحسنين، وهو بالشام كابن الحجّاج في العراق، وكان شاعراً فكهاً، وأقام بمصر طويلاً يمدح ملوكها ووزراءها، وتوفّي فيها سنة ٣٩٩هـ. لاحظ:يتيمة الدهر للثعالبي:٣٧٩/١؛ سير أعلام النبلاء:٧٧/١٧ برقم ٤٢؛ الأعلام:٢١٠/١؛ وفيات الأعيان:١٣١/١ برقم ٥٤؛ أعيان الشيعة:٧٦/٣ برقم ٢٨٢؛ الغدير:١١٣/٤.حيث عبّر عن خياطة الجبّة بالطبخ رعاية للمشاكلة في الكلام.

٢. ما تقدّم منّا حول وصف فعله سبحانه بالمكر والغضب، وهو حذف المبادئ والأخذ بالغايات، فإذا مكر المنافقون فالله سبحانه يجعل فعلهم عقيماً من حيث لا يشعرون، ولذا وصف فعله بالمكر أخذاً بالغايات دون المبادئ، وهكذا الاستهزاء فإنّ المستهزئ يريد الحطّ من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)والمؤمنين في أعين الناس، والله سبحانه يجعل فعله بلا أثر على نحو يكون المستهزئ ذليلاً في أعين الناس.

ما هوالفرق بين الرحمن والرحيم؟

إذا كان الوصفان مشتقين من الرحمة فما هو الفرق بينهما، خصوصاً على القول بأنّ كليهما على وزان صيغة المبالغة، نظير فعلان وفعيل؟

أُجيب عن ذلك بوجوه، نذكر منها وجهين:

١. أنّ الرحمن من صفاته المختصّة به سبحانه، ولا يستعمل في حق الغير، فلا يصحّ أن يقال: زيد رحمان بل الصحيح عبدالرحمن، بخلاف الرحيم فيمكن أن يوصف به غيره سبحانه، قال تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) التوبة: ١٢٨ ..

٢. أنّ الرحمن أوسع من الرحيم، وذلك أنّ (فعلان) أشد مبالغة من (فعيل)، ولعل وجه الأشدّية هو أنّ كثرة المباني تكون غالباً دليلاً على كثرة المعاني، فالرحمن يعم جميع الخلق والرحيم بالمؤمنين خاصّة.

وجه عموم الرحمن بجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، برّهم وفاجرهم، هو إنشاؤه إياهم، وجعلهم أحياء قادرين، ورزقه إيّاهم.

وجه خصوص الرحيم بالمؤمنين، هو ما فعله بهم في الدنيا من التوفيق، وما يفعله بهم في الآخرة من الجنة والإكرام وغفران الذنوب؛ وإليه يشير ما روي عن الصادق (عليه السلام) أنّه قال: «الرحمن اسم خاص بصفة عامّة، والرحيم اسم عام بصفة خاصّة».

مجمع البيان: ١ / ٢١.

فقوله (عليه السلام): «الرحمن اسم خاص»، لأنّه لا يطلق إلاّ على الله سبحانه، وقوله: «بصفة عامّة»: أي تعمّ رحمته الكافر والمؤمن.

وقوله: «الرحيم اسم عام»، لأنّه يطلق على غيره سبحانه، وقوله: «بصفة خاصّة»، لأنّه يختصّ بالمؤمن فقط.

سؤال وإجابة

لماذا تقدّم وصف الرحمن على الرحيم، مع أنّ الضابطة في الكلام البليغ هو التدرّج من الضعيف إلى القوي، ومن القليل إلى الكثير، فيقال: فلان عالم بالفقه بل مجتهد، أو يقال: إنّ هذا المسجد يكفي لألف مصلٍّ بل لألفين، وعلى هذا فالمناسب أن يقول: الرحيم الرحمن؟

وأمّا الجواب عن ذلك فهو أنّه يمكن أن يقال: بما أنّ الرحمن يختصّ بالله سبحانه وشاع استعماله في ذاته القدسيّة، فقد خرج عن معنى الوصفية وأصبح اسماً له سبحانه، فلفظ الجلالة اسم والرحمن اسم آخر، وبما أنّه اسم فلا يُشعر بشيء من المعاني، على خلاف لفظ (الرحيم) فإنّه باق على وصفيته.

ومهما يكن، فإنّ مفاد البسملة، هو : أنّ الإنسان الضعيف غير القادر على شيء إلاّ بعون الله عزّوجل، يجب أن يستعين على جميع أُموره بالله سبحانه، وأن يبتدئ جميع أُموره باسم الله، ولا يغفل عن الله سبحانه حتّى لا يكون ممّن: (نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) الحشر: ١٩..

الآيات ١ ـ ٤ (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا.... وَ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

(قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَ تَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَ اللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَ زُورًا وَ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَ رَسُولِهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

المفردات

سمع: من السماع وهنا بمعنى استجاب كما يظهر من القرائن، بخلاف قوله:(سَمِيعٌ بَصِير)فالسمع هنا بمعناه اللغوي.

تجادلك: المجادلة هي المحاورة، ويدلّ على ذلك قوله: (يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا) والتحاور التراجع وهي من المحاورة، يقال: «حاوره محاورة» أي راجعه الكلام، وتحاورا.

تشتكي: من الاشتكاء وهو إظهار ما بالإنسان من مكروه، والشكاية إظهار ما صنعه به غيره من المكروه. مجمع البيان:٩/٤٥٦.

يظاهرون: أي مَن شبّه ظهر زوجته بظهر أُمّه، وقال:«أنتِ عليّ كظهر أُمّي» وكانوا يقولون هذا في الجاهلية يريدون به تحريم نكاحها وبتّ عصمته. وهو مشتق من الظهر ضد البطن، لأنّ الذي يقول لامرأته: أنتِ عليّ كظهر أُمّي يُريد بذلك أنّه حرّمها على نفسه، كما أنّ أُمّه حرام عليه.

ولعلّ جعل الموضوع هو الظهر لأجل أنّ المقام من قبيل الاستعارة بالكناية وهو أنّه شبّه المرأة في حالة الاستمتاع بالراحلة،

وحذف المشبّه به وأثبت شيئاً من لوازمه ـ أعني: الظهر ـ للمشبَّه ـ أعني: الزوجة ـ وقال: ظهرك كظهر أُمّي، فلم يذكر إلاّ المشبّه مع بعض آثار المشبّه به.

يتماسّا: المسّ كناية عن المواقعة وهو ظاهر في غير واحدة من الآيات، قال سبحانه:(وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ). البقرة:٢٣٧.

التفسير

١. (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَ تَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ):

قد مرّ أنّ الظهار كان أحد أنواع الطلاق في الجاهلية، وهل كان شائعاً في الجزيرة العربية أو كان مختصّاً بالبيئات التي يوجد فيها اليهود؟ لعلّ الثاني هو الأقرب، وقد مرّ أنّ خولة جاءت إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وأظهرت ما في نفسها من الألم، وأصرّت على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يحلّ مشكلتها، فالله سبحانه يذكر أنّه استجاب طلبها، ويقول:(قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَ تَشْتَكِي إِلَى اللهِ).

والدليل على أنّ «سَمِعَ» هنا بمعنى استجاب، ما يأتي في الآية الثانية من بيانه الحلّ لهذه المشكلة.

وأمّا أنّه كيف حلّ مشكلة المرأة وما كانت تعاني منه فهو أنّه أبطل الظهار من رأس، وقال: إنّ التشبيه واقع في غير محلّه، وإنّ المرأة بهذا الكلام لا تحلّ محلّ أم الزوج ؛ لأنّ الأُمّهات عبارة عمّن ولدنهم لا من شُبِّه بهنّ، كما يقول سبحانه:

٢. (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ):

يذكر في هذه الآية، أنّ الزوجة بمجرد تشبيهها بالأُمّ لا تصير أُمّاً.

ثمّ إنّه سبحانه أبطل في سورة الأحزاب أُموراً ثلاثة، منها: الظهار، فقال:

١. (مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ).

٢. (وَ مَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ).

٣. (وَ مَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ). الأحزاب:٤.

فالفقرة الأُولى وإن كانت ناظرة إلى أمر تكويني وأنّه ليس لرجل واحد قلبان، لكنّها كناية عن النفاق وردٌّ على المنافقين حيث كانوا يؤمنون في الظاهر ويكفرون في الباطن، فردّ عليهم بأنّه لا يمكن أن يكون لرجل قلبان في جوفه.

ثمّ إنّه سبحانه وصف قول المظاهر بوصفين، وقال:(وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَ زُورًا):

أ. أنّه منكر من القول أي ينكره الشرع ولم يعتبره.

ب. أنّه زور وكذب لا يوافق الواقع .

والفقرتان تدلاّن على أنّه حرام لا يحل إيقاعه، ولكنّه حرام مغتفر كما يقول:(وَ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) والعفو هو عدم المؤاخذة بالفعل، والغفران، الصفح عن فعل من شأنه أن يعاقب عليه.

فلو وصف عمل المظاهر بوصفين: منكر وزور، فقد وصفه سبحانه نفسه بقوله:(عَفُوٌّ غَفُورٌ)، وبذلك وقعت المشاكلة في الكلام.

إنّ خصال الكفّارة على قسمين: تارة يكون المكفّر مخيّراً بين إحداها كما في كفّارة الحلف، يقول سبحانه:(لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَ لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَة فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّام ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ). المائدة:٨٩.

وأُخرى تكون متعيّنة بمعنى أنّه لا تصل النوبة إلى النوع الثاني إلاّ بعد العجز عن الأوّل، كما في كفّارة الظهار حيث يقيّد الصيام بمن لم يجد تحرير رقبة، أو يقيّد إطعام ستين مسكيناً بمن لم يستطع صيام شهرين متتابعين.

٣ و ٤. (وَ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَ رَسُولِهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ):

ومضمون الآيتين واضح إلاّ أنّ الكلام في تفسير قوله:(ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا)، فقد اختلف المفسّرون في تفسيره، وأخذ أهل الظاهر بظاهره قائلين بأنّ المراد العود إلى الظهار ثانياً، وكأنّ الظهار الأوّل غير مؤثر لا في الحرمة ولا في الكفّارة، إلاّ إذا عاد إليه ثانياً.

ولكنّهم غفلوا عن أنّ الجملة كناية عن نقض ما تقوّلوا وكأنّه يقول: ثم يعودون لنقض ما قالوا. والدليل على ذلك قوله: (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا) فإنّ تعيين الكفّارة قبل التماسّ دليل على أنّ المظاهر يريد المواقعة فيُمنع عنها قبل التكفير، فيكون المراد من قوله: (ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا)هو النقض، وعلى حدّ تعبير ابن عباس: ثم ندموا عمّا قالوا.

فعلى هذا فمعنى قوله: (ثُمَّ يَعُودُونَ) أي يريدون العود، كما في قوله تعالى: (إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ) المائدة:٦. أي إذا أردتم القيام، فيكون المراد يريدون العود إلى ما حرّموه على أنفسهم فعليهم الكفّارة.

ثمّ إنّه سبحانه يعلّل إبطال الظهار وإيجاب الكفّارة بقوله:(ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَ رَسُولِهِ) أي لتصدّقوا بما أتى به الرسول بعملكم وتصدّقوا بأنّ الله أمر به، ومن ثمّ تؤمنوا إيماناً كاملاً بالامتثال بما أمركم الله ورسوله.

(و)اعلموا (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)أي للجاحدين المتعدّين حدود الله، والرادّين لأحكام الله، والآخذين بسنّة الجاهلية في الظهار، فلهم(عَذَابٌ أَلِيمٌ) أي مؤلم في الآخرة.

وعلى هذا فلو أراد المظاهر الوطء يجب عليه التكفير ثم يجامع، فإذا ترك الوطء والتكفير فإن صبرت المرأة على ترك الزوج وطْأها، فلا اعتراض، وإن لم تصبر رفعت أمرها إلى الحاكم المعدّ لأمثال ذلك، فإذا أحضره خيّره بين التكفير والرجعة وبين الطلاق، وأنظره للتكفير ثلاثة أشهر من حين المرافعة. جواهر الكلام:١٦٦/٣٣.

قال الشيخ الطوسي في «الخلاف»: إذا تظاهر وعاد لزمته الكفّارة، ويحرم عليه وطؤها حتى يكفّر، فإنّ ترك العود والتكفير أُجّل ثلاثة أشهر ثم يطالب بالتكفير أو الطلاق مثل المؤلي بعد أربعة أشهر. الخلاف: ٥٢٨/٤، المسألة٧.

والظهار أحد أبواب الفقه المهمّة، بل هو كتاب مستقل له أحكامه وفروعه والتفصيل في مسائله موكول إلى محلّه، غير أنّ لبعض الفقهاء فتاوى في المقام لا تنسجم مع ظاهر الكتاب العزيز، ولبيان ذلك نتعرض لذكر بعضها:

١. قوله سبحانه: (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ) ظاهر أو صريح في أنّ المظاهَر منها، يجب أن تكون متزوّجة ولا تصحّ المظاهَرة قبل الزواج، خلافاً لمالك وأبي حنيفة حيث قالا بالصحّة.

قال الشيخ في «الخلاف»: لا يصحّ الظهار قبل التزويج. وبه قال الشافعي، وقال مالك وأبو حنيفة: يصحّ. ثم استدلّ على ما أفتى به بقوله: (وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ) وهذه ليست من نسائه. الخلاف:٥٣١/٤، المسألة١١؛ ولاحظ: بداية المجتهد:١٠٧/٢، المغني لابن قدامة:٥٧٨/٨.

٢. ظاهر قوله سبحانه: (فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا) اعتبار العدد ولا يكفي إطعام شخص واحد ستين مرّة، غير أنّ أبا حنيفة قال: إن أعطى مسكيناً واحداً كلّ يوم حق مسكين في ستين يوماً حق ستين مسكيناً أجزأه. الخلاف:٥٥٩/٤، المسألة ٥٩، الهداية للمرغيناني:٢٤٣/٣. وكأنّه اجتهاد في مقابل النصّ.

٣. ظاهر قوله سبحانه: (فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا) كفاية الإطعام وجعل الطعام في متناولهم وأكلهم من دون حاجة إلى قوله: ملّكتكم أو أعطيتكم، غير أنّ الشافعي قال: إن أطعمهم لا يجزي لأنّه لم يملّكهم. الخلاف:٤/٥٦٢، المسألة ٦٥؛ ولاحظ كتاب الأُم:٥/٢٨٥ وهذا غريب.

٤. ظاهر قوله سبحانه: (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا)وجوب الإتيان بإحدى خصال الكفّارة على وجه الترتيب قبل الجماع مطلقاً، وعلى هذا فلو تمكّن من تحرير رقبة أو إطعام ستين مسكيناً في يوم واحد، حلّ له الوطء في نفس اليوم بعد الفراغ عن التكفير.

وأمّا إذا لم يتمكّن إلاّ من صيام شهرين متتابعين، فظاهر الآية حرمة الوطء قبل مضي صيام الشهرين متتابعين، وعلى هذا فلا يمسّ زوجته حتى يُتمّ الشهرين متتابعين، فإن مسّها في خلال الشهرين ليلاً أو نهاراً أثم ووجب عليه إعادة الشهرين.

ومن عجيب القول ما نقل عن الشافعي أنّه قال: إذا كان الوطء ليلاً لم يبطل التتابع؛ لأنّ الليل ليس محلاًّ للصوم. نقله ابن عاشور عن الشافعي، لاحظ : التحرير والتنوير:٢٢/٢٠.

ولكن خفي عليه أنّ جواز الوطء مقيّد بصيام شهرين متتابعين، فمن لم يتم الشهرين ولم يحصل الشرط لا يحلّ له الوطء، وكون الليل ليس محلاًّ للصيام وإن كان صحيحاً، لكنّه لايوجب تجويز الوطء لأنّه مشروط بصيام شهرين متتابعين والمفروض أنّه لم يحصل.

ولذلك ردّ عليه ابن العربي بكلام فيه قسوة، وقال: إنّه كلام من لم يذق طعم الفقه، لأنّ الوطء الواقع في خلال الصوم ليس بالمحلّ المأذون فيه بالكفّارة، فإنّه وطء تعدٍّ، فلابدّ من الامتثال للأمر بصوم لا يكون في أثنائه وطء. هذه بعض الفتاوى الشاذّة عن ظواهر الكتاب.

الآيتان ٥ و ٦(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ.... اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللّهُ وَ نَسُوهُ وَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

المفردات

يحادّون: المحادّة، المشاقّة والمعاداة. واشتقت المحادّة من الحدّ، فكأنّ كلُّ واحد من المتعاديين في حدٍّ مخالف للحدّ الآخر، ويمكن أن تكون مشتقة من الحدّ بمعنى المنع، وكأنّ كلّ واحد يدفع الآخر ويمنعه. واشتقت المشاقّة من الشقة كأنّ كلّ واحد من المتعاديين في شِقّ غير شِقّ الآخر.

كبتوا: من الكبت وهو الخزي والإذلال.

التفسير

٥. (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ):

لما تقدّم في الآية السابقة أنّ ما ذكره سبحانه من وجوب التكفير قبل الوطء هو من حدود الله تعالى، وهدّد مَن يتجاوز حدود الله بالعذاب الأليم (وقد مرّ أنّ المراد من الكفر هنا هو ردّ أحكام الله والأخذ بسنن الجاهلية) فصحّ أن يهدّدهم سبحانه بهاتين الآيتين ويصفهم بأنّهم من المحادّين والمشاقّين لله ولرسوله، ويقول:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ) كتب عليهم الخزيَ والإذلال كما هو الحال في غزوة الأحزاب، فقد اجتمع جنود الشيطان من اليهود والمشركين والمنافقين، ومع ذلك فقد قتل منهم من قتل، وتولّى الجميع عن الحرب مخذولين، كما يقول:

(كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) ولا يصحّ لإنسان واع بعد سماع سنّة الله وحكمه في الظهار أن يكفر بحدود الله، إذ يستحق العذاب المهين، كما يقول:

(وَ قَدْ أَنْزَلْنَا آيَات بَيِّنَات وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ)فليس للجاحدين بعد بيان الآيات المبيّنات، إلاّ أن يذوقوا عذاباً يهينهم ويخزيهم .

فالله سبحانه يهدّد الجاحدين المنكرين حدود الله أوّلاً بالكبت والإذلال في هذه الدنيا.

٦. (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَ نَسُوهُ وَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْء شَهِيدٌ):

وثانياً: هددهم بالعذاب المهين يوم البعث كما يقول: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا)فقوله(يَوْمَ) ظرف لما تقدّم في الآية السابقة من قوله: (وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ).

ثمّ إنّه سبحانه يحتجّ عليهم يوم القيامة بأعمالهم كما يقول:(فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا) فالجزاء على وفق الأعمال، غير أنّ الجاحدين وأكثر المذنبين ينمحي عن ذاكرتهم ما ارتكبوا من الجرائم عبر حياتهم ويصوّرون أنفسهم أنقياء السريرة، لنسيانهم الجرائم، فيردّه الله سبحانه بقوله:

(أَحْصَاهُ اللهُ وَ نَسُوهُ) والجملة حال من قوله: (بِمَا عَمِلُوا).

ثم يدلّل سبحانه على علمه بكلّ ما اقترفوه بقوله: (وَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْء شَهِيدٌ)لحضوره في كلّ زمان ومكان، لأنّ الموجودات الإمكانية فقيرة ذاتاً متعلّقة وقائمة بالله، فكيف يمكن أن يغيب عن الله شيء؟

ثمّ إنّ السيد الطباطبائي: فسّر الشهيد في قوله سبحانه:(أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْء شَهِيدٌ) فصلت:٥٣، بقوله:

أو لم يكف في تبيين الحق كون ربك مشهوداً على كلّ شيء، إذ ما من شيء إلاّ وهو فقير من جميع جهاته إليه متعلّق به وهو تعالى قائم به قاهر فوقه، فهو تعالى معلوم لكلّ شيء وإن يعرفه بعض الأشياء.(الميزان في تفسير القرآن:١٧/٤٠٥.)

ما ذكره إنّما يتمّ في تفسير تلك الآية، ولكن الظاهر أنّ الشهيد في المقام بمعنى الحاضر.

الآيات ٧ ـ ١٠ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي... وَ عَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ).

الآيات: السابعة إلى العاشرة (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَة إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لاَ خَمْسَة إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَ لاَ أَدْنى مِنْ ذَلِكَ وَ لاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْء عَلِيمٌ *أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ إِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ تَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوَى وَ اتَّقُوا اللهَ الذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَ عَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ).

المفردات

النجوى: من نجا، ينجو نجواً ومناجاة، ونجاءُ الرجل: سارّه بما في فؤاده من الأسرار والعواطف، يقال: تناجى القوم تناجياً: تسارّوا .

الإثم: العمل الذي له أثر سيّئ لا يتعدّى نفس العامل، كترك الصلاة.

العدوان: العمل الذي فيه تجاوز على الغير ممّا يتضرّر به الناس.

معصية الرسول: فيه احتمالات:

١. كونها مجمعاً للإثم والعدوان وليست شيئاً برأسها.

٢. المراد مخالفة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بما أنّه سائس وآمر وحاكم، كأوامره في تجنيد الجنود وغزو الأعداء إلى غير ذلك.

التفسير

لا يخفى أنّ النجوى ظاهرة اجتماعية لا يخلو منها مجتمع فربما تكون النجوى خالية عن الإثم والعدوان محقّقة لمصلحة المجتمع، وربما على عكس ذلك فتكون منطَلقاً للإثم والعدوان وإخافة المؤمنين، وزعزعة أمن المجتمع واستقراره، ولذلك لا يُحكَم عليها بحكم واحد، وإنّما يتبع الهدف والغرض من النجوى، وما يُقصَد بها من خير أو شرّ.

إنّ المنافقين في عصر الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا يتناجون فيما بينهم ليوقعوا بذلك الوحشة والفزع بين المسلمين، وذلك من وجهين:

١. يتناجون ليظهروا بذلك أنّهم كتلة متماسكة، أمرهم واحد وكلمتهم واحدة، حتى يوجدوا بذلك خوفاً في قلوب المسلمين لو بدرت منهم بادرة تشعر بنفاقهم حتى لا يُنالوا بأذىً، لأنّ لهم بطانة قوية.

٢. كان المسلمون يومذاك مهدّدين من جانب الأعداء، كالروم وغيرهم، وكان قسم منهم قد شاركوا في السرايا المبعوثة من قبل النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)لقتال الأعداء، فكانت نجوى المنافقين تثير الخوف والقلق بين المسلمين، وتوحي إمّا بأنّ العدو على عتبة المدينة، أو أنّ السريّة قد اندحرت، بعد أنّ قتل فيها مَن قتل.

٧. (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَة إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لاَ خَمْسَة إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَ لاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَ لاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْء عَلِيمٌ):

ومن هنا نهى الله سبحانه عن نجوى المنافقين نهياً شديداً .

ولأجل تثبيت أنّ نجواهم غير خافية عن الله تعالى يستشهد عليه بأمرين:

١. علمه سبحانه بما في السماوات والأرض، قال سبحانه: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ) فالتناجي والتظاهر بالأمر عنده سبحانه سواء، لا فرق بينهما.

٢. أنّ كلّ مجتمع سواء أكان صغيراً أم كبيراً هو حاضر عندهم كما يقول سبحانه: (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَة إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لاَ خَمْسَة إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ)

ولم يقل: «ولا أربعة إلاّ هو خامسهم» حذراً من التكرار، لأنّه إذا كان في الثلاثة هو رابعهم فطبع الحال يقتضي أن يكون في الأربعة هو خامسهم.

ثمّ إنّه سبحانه يذكر ضابطة كلية وهو حضوره في عامّة المجتمعات ـ أدنى ممّا مثل ـ كما في نجوى الاثنين، أو أكثر كما في نجوى السبْع، فالله سبحانه معهم، كما قال: (وَ لاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَ لاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) ، ويترتّب على ذلك أنّه سبحانه ينبئ المتناجين بما عملوا يوم البعث، لكونه حافظاً لكلّ ما صدر منهم صغيراً كان أو كبيراً ثم قال:(ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، ولأجل التأكيد على علمه الوسيع وأنّه لا يخفى عليه شيء يتمّ الآية بقوله:(إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْء عَلِيمٌ)من غير فرق بين النجوى وغيرها.

بقي في الآية أمران:

١. أنّه سبحانه صِرْف الوجود لا يشوبه شيء من الحدود، فهو وجود محض، وما كان كذلك لا يثنّى ولا يتكثّر، لأنّ التكثّر فرع دخول الغير والمفروض أنّه ليس هنا غير، حتى يوجب تكثّره، فالماء الموجود في الإناء ماء واحد، وإنّما يتكثّر بدخول الغير بصبه في إناءين أو غير ذلك، فالله سبحانه واحد بمعنى ليس له ثان، واحد أي لا يتكثّر، يقول الحكيم السبزواري:

و ما له من تكثّر قد حصلا *** ففيه ما سواه قد تخلّلا

إنّ الوجود ما له من ثانِ *** ليس قرى وراء عبادان[١]

١. شرح المنظومة:٣٣٣.

وعلى هذا فقوله سبحانه:(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَة إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ) يريد حضوره في المجتمع لا بمعنى أنّه موجود واحد عددي مثلهم، ولذلك يردّ سبحانه على النصرانية في قولهم: (إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَة وَ مَا مِنْ إِلَه إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ). المائدة:٧٣.

٢. أنّ أكثر المفسّرين مالوا إلى أنّ المراد من قوله:(إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لاَ خَمْسَة إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ) علمه سبحانه بنجوى الثلاثة أو الخمسة وهذا أمر صحيح ولكن الواقع فوق ذلك وهو حضوره سبحانه في مجموع العوالم حضوراً لائقاً بساحته كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام):«مَعَ كُلِّ شَيْء لاَ بِمُقَارَنَة، وَغَيْرُ كُلِّ شَيْء لاَ بِمُزَايَلَة».(نهج البلاغة: الخطبة١.)

ويشهد لذلك قوله في نفس الآية:(وَهُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا) فإنّ المعيّة هنا معيّة ليست علمية فقط بل معيّة قيّوميّة، بمعنى أنّه لا حاجز بينه سبحانه، وبين مخلوقه، ومع ذلك لا حلول على الإطلاق، وذلك لكون المخلوق فقيراً من عامّة الجهات، والله سبحانه هو الغنيّ المطلق، ولا يتقوّم الفقير إلاّ بالغنيّ، كما يشير إليه قوله سبحانه:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَ اللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) فاطر:١٥..

وقد ثبت في محلّه أنّ الفاعل الإلهي يقوم به ما وجد به، قيامَ المعنى الحرفي بالاسمي، وكقيام الصور المرتسمة بالنفس وإن كان بين المثال و المثّل بون شاسع.

والذي يوضح ذلك أنّه سبحانه أكّد على هذا في سورة الحديد وقال: (هُوَ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا يَعْرُجُ فِيهَا وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ). الحديد:٤.

روى الكليني في «الكافي»، قال: سئل علي بن الحسين(عليهما السلام) عن التوحيد، فقال:«إنّ الله عزّ وجلّ علم أنّه يكون في آخر الزمان أقوام متعمّقون فأنزل الله تعالى:(قل هو الله) والآيات من سورة الحديد إلى قوله:(عليمٌ بذات الصُّدور)فمن رام وراء ذلك فقد هلك». تفسير نور الثقلين:٥/٢٣١.

ثمّ إنّ الجماعة الموصوفة بالسلفية وفي مقدّمتهم الوهابيون لما اعتقدوا بأنّ الله سبحانه فوق السماء جالس على عرشه وهو يئط أطيط الرّحل وربما يقصر سريره عن وجوده، لمّا واجهوا هذه الآيات أصرّوا على أنّ المراد علمه سبحانه بنجوى المتناجين لا حضوره لئلاّ ينافي معتقدهم بالتجسيم والتشبيه، كما أنّ الفرقة المتطرّفة ربما حملت الآية على حلوله سبحانه في الأشياء، والجاهل إمّا مفرِط أو مفرِّط.

٨ . (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ إِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ):

الآية تتعرض لأُمور:

١. عودة المنهيين عن النجوى، إليها.

٢. تناجيهم بأُمور ثلاثة: الإثم، والعدوان، ومعصية الرسول.

٣. تحيّة الرسول بما لم يحيّه الله به عدواناً.

٤. إنكارهم الرسالة بقولهم: لولا يعذبنا الله بما نقول.

٥. دفع توهّمهم، بحسبهم جهنم.

أمّا الأوّل: فظاهر قوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ) أنّه سبق منه سبحانه النهي عن التناجي والمسارّة، ومع ذلك لم يتناهوا وعادوا لما نهوا عنه، فكانوا يتناجون مرّة بعد أُخرى كما يدلّ عليه قوله:(ثُمَّ يَعُودُونَ)، والآية تخاطب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) مكان مخاطبتهم تحقيراً لأمرهم وإبعاداً لهم عن شرف المخاطبة.

وأمّا كيف سبق النهي عن النجوى فغير معلوم، ولم نعثر على آية تدلّ على سبق النهي، وعلى كلّ تقدير فهذا يدلّ على أنّ المنهيّين هم المنافقون لا اليهود، لأنّ النهي عن تناجيهم مع تكذيبهم الرسالة بصورة خطاب شخصي أمر غير مألوف.

ثمّ إنّه سبحانه قال:(يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ) ولم يقل: يعودون إليها، ليدلّ على سبب الذمّ وهو مساءة العود إلى الأمر المنهيّ عنه.

وأمّا الثاني: فأشار إليه بقوله: (وَ يَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ) فالإثم عبارة عن فعل شيء يرجع ضرره إلى الفاعل كترك الصلاة والصوم، وأمّا العدوان فهو التناجي بما يرجع ضرره إلى الإسلام والمسلمين، وقد مرّ ذكر كيفية تناجيهم بشكل يورث الشكّ والظنّ بين المسلمين في أمر الحرب وغير ذلك. وأمّا معصية الرسول ؛ وذلك لأنّه نهاهم عن النجوى فعصوه.

وأمّا الثالث ـ أعني: تحيتهم بما لم يحيّي الله به الرسول ـ : فأشار إليه بقوله:(وَ إِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللّهُ) فإنّ الله سبحانه حيّا نبيه بقوله:(إِنَّ اللهَ وَ مَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيمًا) الأحزاب:٥٦. ، ولكنّهم إذا جاءوا إلى النبي يحيّونه بتحية الجاهلية ويقولون: أنعم صباحاً، متظاهرين بأنّهم لا يحبون أن يتركوا عادات الجاهلية.

وربما يقال: بأنّ اليهود كانوا يأتون النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فيقولون: السام عليك، والسام هو الموت في لغتهم، وهم يوهمونه بأنّهم يقولون: السلام عليك، وكان(صلى الله عليه وآله وسلم)يردّ على من قال ذلك ويقول: وعليك.(مجمع البيان: ٩ / ٤١٥ .)

لكنّه بعيد لما عرفت من أنّ مورد الخطاب عن طريق النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) هم الذين نهوا عن النجوى وليس هؤلاء إلاّ المنافقون لا اليهود، فلا وجه لإدخال اليهود في المقام، اللّهم إلاّ إذا أخذ المنافقون هذه التحية المشؤومة عن اليهود وجاءوا يسلّمون على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بما سلّم به اليهود.

وأمّا الرابع: أي شكّهم في الرسالة بل إنكارهم لها فإنّهم بعد ما يُحيُّون النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بتحية اليهود ـ أعني: وعليكم السام ـ التي هي بمعنى الموت، فعندئذ كان المنافقون يردّدون أمرين في أنفسهم:

١. لو كان نبيّاً لعذبنا الله سبحانه بما نقول في حقّه:(لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ).

٢. لو كان نبيّاً لاستجاب دعاءه فينا، حيث إنّه أيضاً يقابلنا بنفس التحية ويقول: وعليكم السام، أي الموت، فلماذا لا نموت، وهذا دليل على أنّه ليس نبياً.

وأمّا الخامس: أنّه سبحانه يجيب على ما يقولون في أنفسهم، أي إمّا في سرائرهم أو فيما بينهم، وبأنّ الله سبحانه يمهل ولا يهمل، فيكفي في إذلالهم (حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ) وكافيهم عذابها (يَصْلَوْنَهَا): أي يحترقون فيها (فَبِئْسَ الْمَصِيرُ).

إنّ كثيراً من الناس يزعم أنّه يجب على الله سبحانه أن يأخذ الظالم حين يظلم ولا يمهله، والله سبحانه يفسّر وجه إمهاله بأنّ إفاضة النعم الواحدة بعد الأُخرى وإن كانت حسب الظاهر تصبّ في نفع وصلاح الكافر ولكنّها، على الحقيقة، في ضرره، حيث بعد ما أتمّ نعمه عليه سيأخذه من حيث لا يعلم وتبقى حسرة النعم تكوي قلبه يقول سبحانه: (وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ). الأعراف:١٨٢ـ ١٨٣.

قال الإمام علي(عليه السلام) في هذا الصدد: «ولئن أمهلَ الظالمَ فلن يفوت أخذُهُ، وهو له بالمرصاد، على مجاز طريقه، وبموضع الشَّجا من مَساغِ ريقِهِ». نهج البلاغة: الخطبة ٩٧. والشَّجا: ما يعترض في الحلق من عظْم وغيره.

٩. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ تَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوَى وَ اتَّقُوا اللهَ الذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ):

لمّا وجه التوبيخ إلى المنافقين لأنّهم كانوا يتناجون لغايات فاسدة نهى المؤمنين عن مثل ذلك وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ) ولا تفعلوا كفعل المنافقين، ومع ذلك سوّغ التناجي بالخير، وقال: (وَ تَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوَى) .

أمّا البرّ فهو في دعوة المؤمنين إلى التناجي والتسارّ في أفعال الخير ، وأمّا التقوى فهي الدعوة إلى التناجي في صيانة النفس ووقايتها من المعاصي، ومن ثمّ من عذاب الله وسخطه.

ثم أكّد على ما قال بقوله: (وَ اتَّقُوا اللهَ الذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)، وهذا يدلّ على أنّ التناجي ليس أمراً محرّماً بالذات وإنّما يتبع حكمه بما يُتناجى به، إذ ربما تبعث المصلحة الفردية أو الجماعية على المسارّة فلا إشكال فيه.

ويلحق بالنجوى ـ حكماً ـ التكلّم بلغة مع شخص لا يعرفها الحاضرون في المجلس، ففيه مفسدة النجوى ، لأنّه يورث سوء الظن وغير ذلك.

١٠. (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَ عَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ):

عدّ سبحانه النجوى من عمل الشيطان وقال:(إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ)أي من وساوسه وإغوائه حتى يقوم المتناجي بهذا العمل الذي يسيء للآخرين.

إنّ النجوى الآثمة لا تضرّ المؤمنين ولا تؤذيهم إلاّ بإذن الله ومشيئته كما أنّ الشيطان لا يضرّ إلاّ بإذن الله، قال:(وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ)فهل الضمير في قوله:(لَيْسَ) يرجع إلى التناجي أي تناجي المنافقين، أو يرجع إلى الشيطان؟ احتمالان.

وعلى كلّ تقدير فلا ظاهرة في عالم الوجود إلاّ ويكون تأثيرها مشروطاً بمشيئة الله تعالى وإرادته، وهذه الفقرة تزرع الثقة في نفوس المؤمنين بالله تعالى، وتُبعدهم عن الوساوس الشيطانية، فعلى المؤمنين أن يتجهّزوا بجهاز الدفاع في مقابل العدوان، متوكّلين ومعتمدين على الله سبحانه، فإنّه سينصرهم في دفع شر الأعداء، كما قال: (وَ عَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ).

الآيات ١١ ـ ١٣ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ... وَ اللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَ إِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَات وَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَات فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَ اللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

المفردات

التفسّح: هو التوسّع، فإذا قيل: تفسَّحْ: أي وسِّع المكان للغير أيضاً حتى يجلس إلى جانبك.

النشوز: الارتفاع عن الشيء بالذهاب عنه، ويقال للمرأة غير المطيعة:«الناشزة»، لأنّها تجعل رأيها فوق رأي الزوج، وتفارقه.

التفسير

١١. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَ إِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَات وَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ):

بُعث النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) بمكارم الأخلاق ومن شقوقها تبيين آداب المعاشرة، وتأديب الناس بالمثل العليا،

فذمّ، أوّلاً، النجوى وعدّها من وساوس الشيطان وإغوائه، ثم عاد لبيان أدب آخر للمعاشرة وذكر أمرين:

١. إذا كان ثمّة مجلس واجتمع الناس فيه لاستماع كلام من يتحدّث فيه فورد مؤمن ولم يجد مكاناً، فعلى المؤمنين أن يوسّعوا له في المجلس ترحيباً وترغيباً حتى يأخذ مكانه فيه. وقد ذُكر في شأن النزول أنّ المسلمين كانوا يتنافسون إلى مجلس رسول الله، فإذا رأوا من جاءهم مقبلاً ضنّوا بمجلسهم عند رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض.

٢. إذا كان المجلس غاصّاً بأهله لكن ورد عليهم من يُعدّ أفضل منهم في الإيمان والتقوى أو العلم لاستماع كلام النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يجد مكاناً فإذا قيل لبعضهم انشزوا واتركوا مكانكم ليجلس فيه شخص آخر، فعليهم امتثال ذلك ، فإنّ الجالس لا يؤمر بترك مكانه إلاّ إذا كان الثاني أفضل منه وأسمى درجة.

ثمّ إنّه سبحانه يدلّل على الأمر الوارد في قوله:(انْشُزُوا) بقوله: (يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَات)، والجملة جزاء للشرط المقدّر بشهادة كون (يرفع) مجزوماً، أي إذا نشز المؤمن وترك مكانه وحلَّ الفاضل مكانه فالله سبحانه بهذا العمل يرفع درجة طائفتين، وهما:

أ. المؤمنون، ب. الذين أُوتوا العلم، فإنّ النشوز عن المجلس وإقامة الغير مكانه تجسيد لرفع مقام المؤمن والعالم، وربما يكونان هما شخصاً واحداً أي مؤمناً وعالماً، وهذا هو ظاهر الآية.

قالوا: كان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء أُناس من أهل بدر، وفيهم ثابت بن قيس بن شمّاس، وقد سبقوا في المجلس، فقاموا حيال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، فقالوا: السلام عليك أيّها النبي ورحمة الله وبركاته، فردّ عليهم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم سلّموا على القوم بعد ذلك، فردّوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسّع لهم، فلم يفسحوا لهم، فشقّ ذلك على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: قم يا فلان، قم يا فلان، بقدر النفر الذين كانوا بين يديه من أهل بدر، فشقّ ذلك على من أُقيم من مجلسه، وعرفت الكراهية في وجوههم، وقال المنافقون للمسلمين: ألستم تزعمون أنّ صاحبكم يعدل بين الناس؟ فو الله ما عدل على هؤلاء، إنّ قوماً أخذوا مجالسهم، وأحبّوا القرب من نبيهم، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنهم مقامهم، فنزلت الآية. مجمع البيان:٩/٤٦٦ـ٤٦٧.

وفي الآية دليل على تعظيم أمر العلماء ورفع قدرهم ما لا يخفى، وأكّد ذلك بقوله في ذيل الآية: (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) البقرة: ٢٣٤..

وتجيء الآية الكريمة في إطار تأكيد المقياس الحقيقي للتفاضل الذي يريد القرآن أن يقرّره في نفوس المؤمنين، وهو المقياس القائم على اعتبار الإيمان والعلم، وهما ملاكا الفضل والفضيلة، وليس المال والثروة، أو الجاه والمنصب، أو غير ذلك من الاعتبارات الزائفة التي تعتمدها المقاييس المادّية.

روى الطبرسي في الاحتجاج عن الإمام الحسن العسكري(عليه السلام) أنّه وصل إلى أبي الحسن علي بن محمد العسكري (عليهما السلام) أنّ رجلاً من فقهاء شيعته كلّم بعض النُّصّاب فأفحمه بحجّته حتى أبان عن فضيحته، فدخل على علي بن محمد(عليهما السلام) وكان بحضرته خلق من العلويين وبني هاشم فما زال يرفعه حتى أجلسه [قربه] وأقبل عليه، فاشتدّ ذلك على أُولئك الأشراف فأمّا العلويّون فأجّلوه عن العتاب، وأمّا الهاشميون فقال له شيخهم: يابن رسول الله، هكذا تؤثر عامّيّاً على سادات بني هاشم من الطالبيين والعباسيين؟

فقال(عليه السلام):«إيّاكم وأن تكونوا من الذين قال الله تعالى عنهم:(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ) آل عمران:٢٣. أترضون بكتاب الله عزّ وجلّ حكماً؟ قالوا: بلى، قال: أليس الله يقول:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ) إلى قوله:(وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

دَرَجَات)فلم يرض للعالم المؤمن إلاّ أن يُرفَع على المؤمن غير العالم كما لم يرض للمؤمن إلاّ أن يُرفَع على من ليس بمؤمن... إلى أن قال: فكيف تنكرون رفعي لهذا لما وقّه الله؟! إن كسر هذا فلانَ الناصب بحجج الله التي علّمه إيّاها لأفضل له من كلّ شرف في النسب... والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة. تفسير نور الثقلين:٥/٢٦٣، عن الاحتجاج: ٢ / ٢٥٩ .

نعم الأدب الإسلامي يقتضي أن يترك بعضهم مكانه لذوي الإيمان والعلم ولكن ليس من حقّ القادم ـ ولو كان أفضل ـ أن يقيم الجالس من مكانه ويجلس بدله، روى الكليني في «الكافي» عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: كان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) إذا دخل منزلاً قعد في أدنى المجلس إليه حين يدخل. وفيه عنه(عليه السلام): «من رضي بدون الشرف من المجلس لم يزل الله عز وجلّ وملائكته يصلّون عليه حتى يقوم». الفرقان في تفسير القرآن:٢٧/٢٠٦.

وأخرج البخاري ومسلم عن عمر أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تفسّحوا وتوسّعوا» . الدر المنثور:٦/٨١ .

١٢. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ):

قال مقاتل بن حيّان: إنّ الآية نزلت في الأغنياء ؛ وذلك أنّهم كانوا يأتون النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)فيكثرون من مناجاته فأمر الله سبحانه بالصدقة قبل المناجاة، فلمّا رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته. مجمع البيان:٩/٤٦٧؛ وتفسير الرازي: ٢٩ / ٢٧١ .

ذكر سبحانه مسألة النجوى في الآيات المتقدّمة ثم تعرّض لآداب المعاشرة في المجالس ثم عاد إلى بيان حكم النجوى مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً، فما هو الوجه في فصل ذلك عمّا تقدم؟

والجواب: أنّ القرآن بصدد بيان آداب المعاشرة التي تنبئ عن التحظّر، فذكر حرمة النجوى إلاّ إذا كانت لمصالح، ثم ذكر من آداب المعاشرة، التفسُّح في المجالس والنشوز عنها.

كلّ ذلك كان راجعاً إلى حكم المجتمع من المؤمنين والمؤمنات، وأمّا المقام فيختلف عمّا ورد في الآيات المتقدّمة حيث رخّص لهم مناجاة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بشرط تقديم الصدقة إلى الفقراء، وذلك لأنّ مناجاة الأغنياء كانت تأخذ من وقت النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) شيئاً كثيراً، أوّلاً، وكانت تسبّب عدم ارتياح المستضعفين لغلَبة الأغنياء على مجلسه (صلى الله عليه وآله وسلم) ثانياً، فجاء الوحي الإلهي لعلاج هذه المشكلة بإعطاء الفرصة للجميع بشرط التصدّق على الفقير قبل النجوى.

وبعد نزول هذا الأمر توقّف الأثرياء عن مناجاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وخلا مجلسه من أي سائل وسامع منهم، وما ذاك إلاّ لأنّ الصدقة ولو بدرهم كان عندهم أكثر قيمة من مناجاتهم مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)ومحاورته.

وهذا إن دلّ فإنّما يدلّ على أمرين:

أ. أنّ ما كانوا يتناجون به لم يكن أمراً مهماً يسوّغ شَغْلَ وقت النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولذلك كفّوا عن مناجاته (صلى الله عليه وآله وسلم)لامتناعهم من التصدّق.

ب. لم يكن أكثر الصحابة على درجة رفيعة بحيث يغتنم مجلس النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وسماع كلامه، بدفع الصدقة على فقراء المدينة. وإذا لم تكن هذه الضابطة منطبقة على أكثرهم، فهي تنطبق على كثير منهم، وهذا يعني أنّ محبّة المال أقوى عندهم من محبّة استماع كلام النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)ومناجاته.

ثمّ إنّ هذا الحكم ـ أعني: وجوب الصدقة قبل المناجاة ـ كان حكماً امتحانياً مؤقّتاً ليعلم مبلغ تعلّق هؤلاء الرجال بنبيهم (صلى الله عليه وآله وسلم)هذا من جانب، ومن جانب آخر كان خلو مجلس النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) من السؤال والإجابة، يعود بالضرر على

المجتمع المسلم ويفوّت عليه فرصة التعلّم.

ولذا جاء الوحي الإلهي بنسخ ذلك الحكم بعد أن عُمل به لمدة قصيرة، وقد روى الطبرسي في «الاحتجاج» عن أمير المؤمنين(عليه السلام) حديثاً طويلاً يقول فيه للقوم بعد موت عمر بن الخطاب: أنشدكم بالله هل فيكم أحد نزلت فيه هذه الآية: (إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً)فكنت أنا الذي قدّم الصدقة، غيري؟ قالوا: لا. تفسير نور الثقلين:٥/٢٦٤، نقلاً عن الاحتجاج:١ / ٢٠٥.

وروى الصدوق في «الخصال» في مناقب أمير المؤمنين(عليه السلام) وتعدادها، قال: وأمّا الرابع والعشرون فإنّ الله أنزل على رسوله:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً)، فكان لي دينار فبعته بعشرة دراهم فكنت إذا ناجيت رسول الله أتصدق قبل ذلك بدرهم، فوالله ما فعل هذا أحد من أصحابه قبلي ولا بعدي فأنزل الله عزّ وجلّ:(أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَات فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ) الآية، فهل تكون التوبة إلاّ عن ذلك؟ الخصال: ٥٧٤ .

وروى الطبرسي في «مجمع البيان» عن علي(عليه السلام) أنّه قال: «بي خفّف الله عن هذه الأُمّة، لم تنزل في أحد قبلي ولم تنزل في أحد بعدي».(مجمع البيان:٩/٤٦٧.)

وأخرج الحاكم وصحّحه، وابن المنذر، وعبد بن حُميد وغيرهم عن عليّ (عليه السلام)أنّه قال: «إنّ في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، آية النجوى...». مستدرك الحاكم: ٢ / ٤٨٢ ؛ روح المعاني للآلوسي: ٢٨ / ٣١. وانظر: جامع البيان (تفسير الطبري): ١٤ / ٢٨، برقم ٣٣٧٩٤ .

وروى الطبريّ بإسناده عن مجاهد، في قوله: (فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً)، قال: نُهوا عن مناجاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)حتى يتصدّقوا، فلم يناجهِ إلاّ عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه)، قدّم ديناراً فتصدّق به، ثم أُنزلت الرخصة في ذلك. جامع البيان: ١٤ / ٢٧، برقم ٣٣٧٩١ ـ ٣٣٧٩٣.

وعلى الرغم من وضوح اختصاص الإمام علي (عليه السلام) ـ من دون الصحابة ـ بهذه الفضيلة، التي كان (عليه السلام)يفخر بها أمام الملأ، إلاّ أنّ بعضهم، أبت عليه عاطفته المذهبية إلاّ أن ينكر دلالتها على فضله على الخلفاء الثلاثة، ولو في هذا المورد!!

نقل الفخر الرازي عن القاضي أنّه قال: والأكثر في الروايات أنّه (عليه السلام)تفرّد بالتصدّق قبل مناجاته. ثم قال القاضي: وهذا لا يدلّ على فضله على أكابر الصحابة، لأنّ الوقت لعلّه لم يتّسع للعمل بهذا الغرض.

ويبدو أنّ الفخر الرازيّ لم يرَ هذا الاعتذار (لكبار الصحابة) كافياً، فقرّر ما يلي: على تقدير انّ أفاضل الصحابة وجدوا الوقت وما فعلوا ذلك، فهذا لا يجر إليهم طعناً، وذلك الإقدام على هذا العمل ممّا يضيق قلب الفقير الذي لا يجد شيئاً وينفّر الرجل الغنيّ، ولم يكن في تركه مضرّة، لأنّ الذي يكون سبباً للأُلفة أَولى ممّا يكون سبباً للوحشة.

وأضاف قائلاً، وبئس ما قال:

وأيضاً الصدقة عند المناجاة واجبة، أمّا المناجاة فليست بواجبة ولا مندوبة!! بل الأَولى ترك المناجاة لما بيّنا من أنّها كانت سبباً لسآمة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)! تفسير الرازي: ٢٩ / ٢٧٢ .

وقد كفانا أحد علماء السنّة، وهو نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري، مؤونة الردّ عليه، حيث قال:

هذا الكلام لا يخلو عن تعصّب ما، ومن أين يلزمنا أن نثبت مفضولية علي (رضي الله عنه)في كلّ خصلة؟ ولمَ لا يجوز أن يحصل له فضيلة لم توجد لغيره من أكابر الصحابة؟ ثم قال:

وهل يقول منصف: إنّ مناجاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)نقيصة؟ على أنّه لم يرد في الآية نهي عن المناجاة، وإنّما ورد تقديم الصدقة على المناجاة، فمن عمل بالآية حصل له الفضيلة من جهتين: سدّ خلّة بعض الفقراء، ومن جهة محبّة نجوى الرسول (صلى

الله عليه وآله وسلم)ففيها القرب منه، وحلّ المسائل العويصة، وإظهار أنّ نجواه أحبّ إلى المناجي من المال. غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ١٠ / ٤٨٩ ـ ٤٩٠ .

١٣. (أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ):

أي خفتم الفاقة وبخلتم بالصدقة قبل مناجاتكم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وبما أنّ هذا العمل كان غير صحيح فالله سبحانه عفا عنهم وقال:(فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ): أي رجع عليكم بالرحمة في عملكم هذا.

ثمّ إنّه سبحانه دعاهم إلى المثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله لأهميتها وقال:(فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

قيل: وإنّما اعتبرت المثابرة، لأنّ المأمورين مقيمون للصلاة ومؤتون للزكاة، وعدل عن (فصلّوا) إلى: (فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ)ليكون المراد المثابرة على توفية حقوق الصلاة ورعاية ما فيه كمالها، لا على أصل فعلها فقط. روح المعاني: ٢٨ / ٣١.

وقوع النسخ في القرآن الكريم

ذهب أكثر المفسّرين إلى وقوع النسخ في القرآن الكريم غير أنّ كثيراً منهم لم يفرّقوا بين التخصيص والنسخ، فالنسخ عبارة عن رفع الحكم بعامّته فيما بقي من الزمان بعد العمل به في فترة خاصّة، ومن المعلوم أنّ النسخ بهذا المعنى قليل جدّاً، ولا يعدو عن موردين أو أكثر بقليل، وهما:

١. ما ورد في هذه السورة، حيث شرّع الشارع جواز المناجاة مع النبي بتقديم الصدقة، ثم نسخه بآية تالية بعد العمل به، فقد روي عن مقاتل بن حيّان أنّه كان ذلك ليال عشر ثم نسخت بما بعدها وكانت الصدقة مفوضة إليهم غير مقدّرة على وجه عرفت تفصيله.

٢. قوله سبحانه: (وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ). البقرة:٢٤٠.

فإنّ تعريف الحول باللام إشارة إلى الحول الرائج بين العرب قبل الإسلام، قال المحقّق القميّ: الآية دالّة على وجوب الإنفاق عليها في حول وهو عدّتها ما لم تخرج، فإن خرجت فتنقضي عدّتها ولا شيء لها.(قوانين الأُصول:٢/٩٤.)

ولكن هذه الآية نسخت بآية أُخرى وهي قوله تعالى:(وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْرًا). البقرة:٢٣٤.

ثمّ إنّ اليهود أحالوا جواز النسخ قائلين بأنّه يلزم صيرورة الحسن قبيحاً والقبيح حسناً، لأنّ الأمر به آية الحسن، ورفعه آية القبح.

يلاحظ عليه: بأنّ الدليل أخصّ من المدّعى، فإنّ لازم ما ذكر امتناع تطرّق النسخ إلى الحسن والقبيح بالذات، كحسن العدل وقبح الظلم، أو حسن الوفاء بالعهد وقبح نقضه، وأمّا الأُمور التي ليست في حدّ ذاتها حسنة أو قبيحة ـ وإنّما تختلف بالوجوه والاعتبارات ـ فلا مانع من تطرّق النسخ إليها، كما مرّ في الآيتين السابقتين.

ولهم دليل آخر تعرضنا له في كتابنا «المناهج التفسيرية»، فلاحظ. المناهج التفسيرية: ٢٤٥ .

الآيات:١٤ إلى٢٢ (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ... إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اِتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لاَ

أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ * اِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

المفردات

جُنّة: السترة التي تقي البليّة، ومنها المِجَنّ: الترس.

الاستحواذ: الاستيلاء على الشيء.

الروح: مبدأ الحياة الذي تترشح منه القدرة والتصوّر.

التفسير

١٤. (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لاَ مِنْهُمْ وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ):

لمّا سبق ـ في ما مرّ من الآيات ـ تناجي المنافقين بعضهم مع بعض بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وأنّهم إذا جاءوا إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يُحيّونه بما يريدون به السوء، عاد في هذه الآيات إلى ذكر مؤامراتهم مع اليهود ضد النبي والمسلمين وافتخارهم بكثرة الأموال والأولاد وقال:(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ) وهؤلاء هم اليهود، لقوله سبحانه في حقّهم:(مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنَازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ). المائدة:٦٠.

فقوله: (أَلَمْ تَرَ) نوع تعجُّب من تولّيهم اليهود، ووجه التعجُّب هو قوله: (مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لاَ مِنْهُمْ): أي ليس المنافقون من المسلمين ولا من اليهود، وكانوا يتولّونهم لاشتراكهم في هدف واحد، وهو إيذاء النبي والمسلمين، ومع ذلك كلّما بانت أفعالهم السيئة بالنسبة إلى الإسلام والمسلمين، يحاولون تغرير المسلمين بالحلف الكاذب، كما قال تعالى: (وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)والحلف الكاذب علامة النفاق.

١٥. (أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ):

إنّ المنافقين بحلفهم الكاذب ربما يفلتون من ملاحقة المسلمين وعقوبتهم لهم، لكنّهم لا يستطيعون الإفلات من عذاب الله يوم القيامة كما قال: (أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) ولكن تعذيب الله سبحانه بملاك سوء أعمالهم، قال: (إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

١٦. (اِتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ):

إنّ النفاق عبارة عن مخالفة اللسان مع ما في الضمير، فهم في ضمائرهم محكومون بالعمل السيِّئ، ولكن لأجل تغرير المسلمين يحلفون على الكذب ليدفعوا بذلك بعض الملاحقات كما يقول سبحانه: (اِتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) وليست الآية وحيدة في هذا الموضوع، بل أُشير إليه أيضاً في سورة المنافقين :(اِتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُون). المنافقون:٢.

قال الشريف الرضي (رحمه الله): وهذه استعارة، والكلام وارد في شأن المنافقين، والمراد أنّهم جعلوا إظهار الإيمان الذي يبطنون ضدّه، جنّة يعتصمون بها، ويستلئمون فيها نفوذاً، بظاهر الإسلام الذي يسع من دخل فيه ويعيذ من تعوّذ به.(تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٢٨٣ .)

إنّهم في الوقت الذي وقَوا أنفسهم بالأَيمان الكاذبة، وشعروا فيه بالأمن، يسعون إلى صدّ الناس عن طريق الحقّ، كما قال

تعالى: (فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ) أي منعوا الناس عن سبيل الله؛ ويحتمل أن يراد: أعرضوا عن سبيل الله، والمعنى الأوّل أقرب، وفيه إشارة إلى عظمة جريمتهم وسوء عملهم حيث يمنعون الناس من الإيمان خفاءً.

١٧. (لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ):

كان المنافقون يتبجّحون بكثرة الأموال والأولاد ، ولذلك وصفوا أنفهسم بأنّهم أعزّاء والمؤمنين أذلآء، حتى قال رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ بن سلول: (لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ) المنافقون:٨، ولكنّه كان زعماً باطلاً وفكراً واهماً، فإنّ قدرة الله فوق قدراتهم الواهية، ولذلك قال: (لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

أي فلن تغني عنهم أموالهم التي جمعوها، ولا أولادهم الذين خلفوهم، من عذاب الله شيئاً، فقد كتب عليهم أنّهم أصحاب النار يخلدون فيها، فإنّ الذي ينجي الإنسان من عذاب الله هو الإيمان والعمل الصالح لا الأموال والأولاد التي يتركها في الدنيا وراءه.

١٨. (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ):

إنّ الملكات الفاضلة أو الدنيّة تتركّز في الإنسان بالممارسة من غير فرق بين الملكات العلمية، أو العملية، ولمّا كان النفاق عند المنافقين ملكة راسخة في طبائعهم، فتظهر آثاره في يوم القيامة أيضاً، وما هذا إلاّ لتوغّلهم في النفاق، ولذلك نرى أنّهم يحلفون كذباً يومذاك، ويظهر ذلك في غير موضع من آيات الذكر الحكيم، منها قوله في المقام:

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ) أي يقسمون لله كذباً يوم ذاك، كما كانوا يقسمون لكم في الدنيا.

(وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ) أي يحسبون أنّهم على دليل قاهر يغرّ الله تبارك وتعالى، ولكنّهم غفلوا عن أنّ الله يعلم السرّ وما يخفى، كما يقول:(إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ) .

إنّ الحلف على الكذب يوم القيامة الذي تنكشف فيه الحقائق وتظهر البواطن وتشهد فيه على أعمال الإنسان شهود تبلغ العشرة، يحكي عن الصلف السافر، فالله سبحانه يذكر حلفهم يوم القيامة على أنّهم لم يكونوا مشركين حيث يقول: (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا وَ اللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ). الأنعام:٢٣.

١٩. (اِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ):

إنّ قضاء الفطرة هو الصدق ورفض النفاق، والخضوع للحق والانقياد له، ولكن الفطرة تكون مغلوبة من قبل هوى النفس والرغبات الشيطانية لها، فيورث ذلك نسيان الله ونسيان ما جاء به أنبياؤه كما يقول:(اِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ) ونتيجة ذلك (فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ) ومن المعلوم أنّ إنساء الله ذكره رأس كلّ بليّة وخطيئة كما أنّ ذكره هو الحصن الحصين من كل شرٍّ وبلية (أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) الرعد:٢٨. وهو يحصّن النفوس عن الذنوب، فمن يذكر الله دوماً فهو من حزب الله، ومن نسي الله سبحانه فأنساه الله سبحانه ذكره فهو من حزب الشيطان، والنجاة للأوّل يوم القيامة، والخسران للثاني، كما يقول: (أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

٢٠. (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ):

قد مرّ في تفسير قوله سبحانه:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا) أنّه سبحانه حكم عليهم بالإذلال في الدنيا والآخرة، فعاد سبحانه إلى الموضوع بقوله:(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ)وما هذا إلاّ لأنّ العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين، كما في قوله تعالى: (وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)، المنافقون:٨ . فتكون الذلّة للطرَف المقابل، فليس لمن حادّ الله وشاقّه إلاّ الذلّة.

٢١. (كَتَبَ اللهُ لَاَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) :

الكتابة بمعنى القضاء والحكم القاطع كما في قوله:(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ)(البقرة:١٨٣.)، والآية تحكي عن أنّه سبحانه قضى بأنّ الغلبة تكون له ولرسله، وقال: (كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي)، وعلّل ذلك بقوله: (إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)، قوة ليس فوقها قوة، وعزّة لا تتناهى، فكيف لا تكون العزّة له ولرسله.

هذا على حسب الوحي وقد صرّح به في آية أُخرى وقال: (وَ إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) الصافات:١٧١.، وكيف لا تكون الغلبة لهم، وهذا هو شيخ الأنبياء نوح قد غلب على قومه الذين سخروا منه بالطوفان كما غلب هود وصالح ولوط أقوامهم بالصاعقة والزلازل وغير ذلك، كما أنّ المسلمين انتصروا في عامّة الغزوات على الشرك والكفر، ولو صارت الهزيمة نصيبهم في غزوة أُحد، فبسبب تخلّفهم عن وصايا رسول الله وتعليماته.

نعم أنّ للانتصار قيمة يجب أن يبذلها صاحبه، إذ لم يُظفَر بهذه الانتصارات إلاّ بعد استشهاد عدد من المسلمين، وهذا هو قضاء الله سبحانه ومن سننه تبارك وتعالى.

وفي مقابلة الحق مع الباطل في أرض كربلاء انتصر الحسين(عليه السلام) وكان الانتصار حليفاً له، إذ ليس معنى الانتصار حصوله عقب الشهادة فوراً، فإنّ الغاية من نهضة سيد الإباء هو تحريض المسلمين وإيقاظهم من السبات، فكانت الثورة الحسينية سبباً لإيقاظ المسلمين ومن ثمّ تتابعت ثوراتهم على الظلم إلى أن اجتثت الشجرة الأموية الخبيثة من الأرض ولم يبق منها إلاّ الاسم.

روى الطبرسي أنّ المسلمين قالوا لمّا رأوا ما يفتح الله عليهم من القرى: ليضمّنَ الله علينا الروم وفارس، فقال المنافقون: أتظنون أنّ فارس والروم كبعض القرى التي غلبهم عليها، فأنزل الله هذه الآية. مجمع البيان:٩/٤٧٢.

٢٢. (لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ):

لمّا تقدّم في قوله سبحانه:(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ) عاد سبحانه في هذه الآية إلى التأكيد على أنّ الإيمان بالله واليوم الآخر لا يجتمع مع موادّة من حادّ الله ورسوله وموالاته، وقال: (لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَ رَسُولَهُ)، وذلك لأنّ الله لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه، فلا يجتمع حب الرسول مع حبّ من يشتم الرسول ويؤذيه، حتى لو كان هذا المبغض أباً للمؤمن أو ابناً أو أخاً أو أحد أفراد عشيرته، كما قال تعالى:(وَ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) مع أنّ حبّ هؤلاء ربما يكون راسخاً في قلب المؤمن إلاّ أنّه يجب أن تكون العلاقة الإيمانية مقدّمة على علاقة النسب والسبب.

إنّ موادّة المؤمنين لمَن حادّ الله وشاقّه وشاقّ رسوله تورث التماسك والتعاون بين الفريقين، وربما يؤدّي هذا التعاون إلى كسر شوكة المسلمين، ولذلك حكم بقطع العلاقات الودّية بينهم، نعم عبّر القرآن الكريم بالموادة، ولكن المنهي عنه هو مودّة المؤمن للكافرين لا مودة الكافر للمؤمن، ومع ذلك عبّر بالمفاعلة اعتباراً بأنّ من شأن الودّ أن يجلب ودّاً من المودود إلى الوادّ.

نعم المعاشرة وحسن السلوك مع هؤلاء خصوصاً إذا كانوا ممّن بينهم وبين المؤمن أواصر القربي والرحم، ليس أمراً محرّماً بل ربما يكون أمراً حسناً يورث ميلهم إلى الحقّ وتخفيف الوطء.

وليست هذه الآية هي الآية الوحيدة في القرآن الكريم، بل ورد مضمونها في آيات أُخرى، قال سبحانه:(بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ

عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا). النساء:١٣٨ـ ١٣٩.

قال النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم):«أوثق عُرى الإيمان الحبّ في الله والبغض في الله». الدر المنثور:٨/٨٧ .

وقال(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ أيضاً ـ : «اللّهم لا تجعل لفاجر عندي يداً ولا نعمة فيودّه قلبي فإنّي وجدت فيما أوحيت إليّ: (لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَ رَسُولَهُ). الدر المنثور:٨/٨٧ .

وقال الإمام علي(عليه السلام) واصفاً أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ(صلى الله عليه وآله وسلم) ؛ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا: مَا يَزِيدُنَا ذلِكَ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً». نهج البلاغة: الخطبة ٥٦.

نعم استثني من هذا الحكم فيما لو عاش المؤمن في مجتمع لا مناص له من أن يتّقي صوناً لنفسه ودينه، قال سبحانه: (لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْء إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً). آل عمران:٢٨. ومن المعلوم أنّ الاستثناء في قوله:(إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً)استثناء منقطع لأنّ التقية لا تلازم المودّة القلبية، نعم يكفي التظاهر بها.

حتى أنّه سبحانه أجاز للمسلمين أن يقيموا علاقات طيبة، وعلى أساس العدل والقسط، مع الذين لم يقاتلوهم، قال تعالى: (لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ). الممتحنة:٨ .

إنّ هذه الآية تؤكّد على حرمة الموادّة القلبية للمحادّ، لكن الروايات تضمّنت حرمة تمنّي بقاء الظالم حتى يستوفي الدائن منه ديونه، فلذلك مُنع صفوان الجمال من إكراء جماله للظالم إذا كانت الأُجرة غير حالّة.

روى الكشي بسنده عن صفوان الجمّال أنّ أبا الحسن موسى] الكاظم [(عليه السلام) قال له: «كلّ شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً»، قلت: أي شيء؟ قال: «إكراؤك جمالك من هذا ـ يعني هارون ـ إلى أن قال: يا صفوان، أيقع كراؤك عليهم؟» قلت: نعم، قال: «أتحبّ بقاءهم حتى يخرج كراك؟» قلت: نعم، قال: «فمن أحبّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم فقد ورد النار»، قال صفوان: فذهبت فبعت جمالي عن آخرها... (رجال الكشي:٢/٧٤٠، برقم ١٢٨؛ الوسائل: ج ١١، الباب٣٧ من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الحديث٧.)

وقد تبيّن أنّ الموادّة القلبية وتعزيز العلاقات الروحية مع المنافقين أمر محرّم يورث تقوية النفاق وضعف الإيمان، وهذا أمر لا يسمح به الإسلام في كلّ حال، وأمّا الجائز فهو عبارة عن حسن السلوك مع هؤلاء، فالتعايش السلمي شيء والموادّة القلبية شيء آخر، فالأوّل لا يضرّ بالإيمان، والثانية لا تجتمع مع الإيمان.

ولأجل الاهتمام بقطع العلاقات الودّية مع المحادّين، يصف سبحانه المؤمنين الذين أخلصوا المودّة لله ولرسوله ولم يؤثروا عليهما أحد، بقوله:(أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) أمّا الكتابة فهي كناية عن ثبات الإيمان في قلوبهم بحيث لا تزول والكاتب هو الله سبحانه، وفيه تكريم لهم، وأمّا تأييدهم بروح منه فمعناه قوّاهم الله بروح من جنس الإيمان تحيا بها قلوبهم، وقد عرفت أنّ الروح مبدأ الحياة، وعلى ذلك فمن كتب في قلبه الإيمان وأُيّد بروح من الله يقابل المنافقين دون أن يتزعزع أو يتأثر بأوامر القرابة.

روى علي بن إبراهيم بسند صحيح عن جميل، عن أبي عبد الله(عليه السلام)قال: قلت: (وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) قال: هو الإيمان. تفسير نور الثقلين:٥/٢٦٩.

ويحتمل أن يراد من الروح درجة سامية من الإيمان بحيث يكون قادراً على التفريق بين الحقّ والباطل، قال سبحانه:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) الأنفال:٢٩.

هذا حال المؤمنين الصامدين في وجه النفاق في الدنيا، وأمّا مصيرهم في الآخرة فيصفه سبحانه بقوله:(وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)، وشتّان بين الحزبين فحزب الله كتب لهم الفلاح، وحزب الشيطان كتب عليهم الذلّ والخسران، كما قال:(أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

تمّ تفسير سورة المجادلة

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين

٥٩سورة الحشر

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ
الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ
يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا
قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ
اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا
وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي
صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ
جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ
رَحِيمٌ (١٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ
أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ
نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ
جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ
مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ
أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى
جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ
سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ (٢٤)

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت هذه السورة في المصاحف وأغلب كتب التفسير بسورة «الحشر» لوجود لفظ الحشر في الآية الثانية منها، حيث قال: (هُوَ الذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ).

وربّما يطلق عليها سورة «بني النضير» لورود قصّتهم فيها حيث أُخرجوا من المدينة قهراً، وغادروها إلى بلاد الشام إلى أريحا وأذرعات.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها أربع وعشرون، هي مدنية بالاتّفاق نزلت في السنة الرابعة بعد الهجرة؛ لأنّ بني النضير أُخرجوا في تلك السنة.

أغراض السورة

الغرض المهم ـ بعد ذكر تسبيح ما في السماوات وما في الأرض لله سبحانه ـ هو بيان شمول الخزي والهوان، لطائفة من اليهود القاطنين في المدنية، إثر نقضهم الميثاق الّذي اتّفقوا عليه مع النبي الخاتم، عُقْبَ وروده المدينة، وقد كشف فيها سبحانه مؤامرة منافقي المدينة واتّفاقهم مع اليهود على استئصال الإسلام والمسلمين، ولكن عمّهم الجبن وتفرّق الكلمة فلم ينصروا اليهود مع الوعود المؤكّدة الّتي اغترّ بها اليهود.

وفي ختام السورة يذكر سبحانه عظمة القرآن الكريم وجلائل أسماء الله الحسنى على نسق رائع لا نرى له نظيراً في سائر السور.

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

مرّ تفسير البسملة وما فيها من الأسماء الثلاثة لله سبحانه في سورة المجادلة، فلاحظ .

الآيات: ١-٥(سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ و .... فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ) .

الآيات: الخمسة الأُولى

(سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ الذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ * وَلَوْلاَ أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَة أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ) .

المفردات

اللينة: النخلة وأصله من اللّون، قلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها، وجمعها لينان.

التفسير

١. (سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمواتِ وما في الأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ):

وفي تفسير هذه الآية بحوث:

١. ما هو المراد من تسبيح ما في السماوات وما في الأرض؟

٢. لماذا أتى بالموصول مرة ثانية مع أنّه سبحانه لم يكرّره في سورة الحديد، حيث قال: (سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمواتِ وَ الأَرْضِ وَ هُوَ

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ؟ الحديد: ١ .

٣. لماذا ختم الآية بالاسمين (الْعَزِيزُ) و (الْحَكِيمُ)، دون سائر الأسماء، وقد أتى بهما أيضاً في الآية الأخيرة من هذه السورة مع تكرار مضمون الآية الأُولى؟

أمّا الأوّل ـ أعني: المراد من التسبيح ـ : فقد اختلفت أقوال المفسّرين في معنى تسبيح الكائنات، فمنها: إنّ تسبيحها هو دلالتها الكونية على أنّ صانعها عليم قادر حكيم.

أقول: إنّ ذلك المعنى وإن كان صحيحاً، ولكنّه ليس معنى منحصراً للآية، لأنّ قسماً من الآيات يدلّ على أنّ تسبيحها تسبيح خاصّ، نابع عن شعور، قال سبحانه: ﴿وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الإسراء: ٤٤، ويؤيّده سريان العلم في كافّة الموجودات، وأنّ كلّ موجود ـ حسب درجة وجوده ـ له شعور وإدراك بالنسبة لصانعه، فيسبّحه بمقدار ما أُوتي من الشعور. قال سبحانه: ﴿وَ إِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَ مَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ البقرة: ٧٧ . إلى غير ذلك من الآيات.

وأمّا الثاني ـ أعني: تكرار الموصول في قوله: ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ـ فهو:

إنّ فاتحة سورة الحديد قد تضمّنت الاستدلال على عظمة الله تعالى وصفاته وانفراده بخلق السماوات والأرض، فكان دليل ذلك هو مجموع ما احتوت عليه السماوات والأرض، من أصناف الموجودات، وجمع ذلك كلّه في اسم واحد، وهو «ما» الموصولة الّتي صلتها قوله: ﴿فِي السَّموَاتِ وَ الأَرْضِ﴾. وذكر الأرض بلا إعادة موصول.

وأمّا فاتحة سورة الحشر فقد سيقت للتذكير بمنّة الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضية، وهي خذلان بني النضير ومصادرة أموالهم وتقسيمها بين المهاجرين فناسب فيها أن يخصّ أهل الأرض باسم موصول خاصّ بهم، وهو «ما» الموصولة الثانية الّتي صلتها ﴿فِي الأَرْضِ﴾. وعلى هذا المنوال جاءت فواتح سورة الصف والجمعة والتغابن. التحرير والتنوير: ٢٨ / ٥٨ .

وأمّا الثالث ـ أعني: اختتام الآية بالعزيز الحكيم ـ فوجهه:

إنّ العزيز يدلّ على القدرة، فإنّ إخراج قسم من أهل الكتاب من قلاعهم الّتي كانوا متحصّنين فيها، إنّما هو عمل نابع عن العزة والقدرة، كما أنّه نابع عن حكمة بالغة، وعلم بوجه الصواب في التدبير؛ لأنّ تواجد اليهود في عاصمة الدولة الإسلامية، مع ما جُبلوا عليه من خبث ومكر ونقض للعهود، يشكّل خطراً على المسلمين وعلى دولتهم الفتيّة.

ثم إنّه سبحانه ابتدأ السورة بالتسبيح وختمها به، كما سيوافيك، ولعلّه لأجل الإشارة إلى تنزيهه سبحانه عن الظلم والتعدّي بالنسبة إلى أهل الكتاب، فإنّه سبحانه لم يُجلِ بني النضير من المدينة بأيدي المسلمين بلا سبب، بل لأجل خيانتهم وغدرهم.

٢. ﴿هُوَ الذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾:

نزل النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) يثرب وكان يسكنها طائفتان من العرب وهما: الأوس والخزرج، وثلاث قبائل من اليهود، وهم : بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، فكتب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود ، وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم واشترط لهم واشترط عليهم.

وقد نقل ابن هشام في سيرته نصّ الكتاب السيرة النبوية: ١ / ٥٠١ ـ ٥٠٤ . ، فمن أراد فليرجع إليه.

ثم إنّه كتب بين الطوائف الثلاث لليهود كتاباً نقله علي بن إبراهيم في تفسيره وقال: وجاءته اليهود: قريظة والنضير، وقينقاع،

فقالوا: يا محمد إلى مَ تدعو؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّي رسول الله، وأنّي الّذي تجدونني مكتوباً في التوراة، والّذي أخبركم به علماؤكم، أنّ مَخْرجي بمكة ومهاجري في هذه الحرّة. ثم ذكر رسول الله شيئاً من أوصافه الّتي سمعتها اليهود من أحبارهم، فقالوا: قد سمعنا ما تقول، وقد جئناك لنطلب منك الهدنة على أن لا نكون لك ولا عليك، ولانعين عليك أحداً، ولا نتعرّض لأحد من أصحابك، ولا تتعرّض لنا ولا لأحد من أصحابنا، حتّى ننظر إلى ما يصير أمرك وأمر قومك. فأجابهم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى ذلك، وكتب بينهم كتاباً ألاّ يعينوا على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ولا على أحد من أصحابه بلسان ولا يد ولا بسلاح ولا بكراع في السرّ والعلانية لا بليل ولا بنهار، والله بذلك عليهم شهيد، فإن فعلوا فرسول الله في حلّ من سفك دمائهم وسبي ذراريهم ونسائهم، وأخذ أموالهم. وكتب لكلّ قبيلة منهم كتاباً على حدة.

وكان الذي تولّى أمر بني النضير حُييّ بن أخطب، فلمّا رجع إلى منزله قال له إخوته ـ جُديّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب ـ : ما عندك؟ قال: هو الّذي نجده في التوراة، والّذي بشّرنا به علماؤنا، ولا أزال له عدوّاً، لأنّ النبوّة خرجت من ولد إسحاق وصارت في ولد إسماعيل، ولا نكون تبعاً لولد إسماعيل أبداً.

وكان الّذي ولي أمر بني قريظة: كعب بن أسد، والّذي ولي أمر بني قينقاع: مخيريق وكان أكثرهم مالاً وحدائق، فقال لقومه: تعلمون أنّه النبيّ المبعوث، فهلمّوا نؤمن به ونكون قد أدركنا الكتابين؛ فلم يجبه قينقاع إلى ذلك . (إعلام الورى: ١ / ١٥٨ ؛ وبحار الأنوار: ١٩ / ١١٠ ـ ١١١).

إجلاء بني قينقاع

ثم إنّ اليهود معروفون بنقض العهود، وأوّل من نقضها من هذه الطوائف هم بنو قينقاع، وذلك أنّه لمّا انتصر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في غزوة بدر، أظهروا له الحسد بما فتح الله عليه، ونقضوا ما بينهم وبينه، وأخذوا يتآمرون على المسلمين، فجمعهم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بسوقهم فقال: يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنّكم قد عرفتم أنّي نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم. قالوا: يا محمد: إنّك ترى أنّا كقومك، لا يغرنّك أنّك لقيتَ قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنّا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنّا نحن الناس . (السيرة النبوية: ٢ / ٤٧ ؛ وتاريخ الطبري: ٢ / ١٧٢) .

هذا هو كلامهم، وهو يدلّ على صَلَفهم، واستعدادهم للحرب، ونقض العهد الّذي عقدوه مع رسول الله .

ومع ذلك تركهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بحالهم، غير أنّ حادثة مؤلمة دعت النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أن يُجليهم عن المدينة المنورة، وهي أنّ امرأة من العرب قدمت بجلَب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعَمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلمّا قامت انكشفت سَوْءتها، فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.

فحاصرهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتّى نزلوا على حكمه بمغادرة المدينة. (السيرة النبويّة: ٢ / ٤٨).

إجلاء بني النضير

كان بنو النضير يسكنون في ضواحي المدينة المنوّرة في قلاع محكمة ورفيعة، وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد وادع اليهود حين قدم المدينة مهاجراً، وعندما انتصر المسلمون يوم بدر على مشركي قريش، غمر الحزن زعيمَهم كعب بن الأشرف، وأقدموا على الخيانة ونقض العهد، وذلك بوجهين:

١. أنّ كعب بن الأشرف قدم مكة فنزل على المطلب بن أبي وَداعة بن ضبيرة السهمي، وعنده عاتكة بنت أبي العيص بن أُميّة بن عبد شمس بن عبد مناف، فأنزلته وأكرمته، وجعل يحرّض على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وينُشد الأشعار، ويبكي أصحاب القليب من قُريش، الذين أُصيبوا ببدر. (السيرة النبوية: ٢ / ٥١ ـ ٥٢).

وقد روى الطبرسي القصة على وجه التفصيل وقال: فركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكة وأتوا قريشاً وحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم دخل أبو سفيان في أربعين وكعب في أربعين من اليهود، المسجد وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأستار والكعبة، ثم رجع كعب بن الأشرف وأصحابه إلى المدينة ونزل جبرائيل، فأخبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان. مجمع البيان: ٩ / ٣٨٦ .

٢. كان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف، فلمّا قتل عمرو بن أُمية الضمري نفرين من بني عامر ذهب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى قلاع بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر، فلمّا أتاهم(صلى الله عليه وآله وسلم): قالوا: نعم يا أبا القاسم، نُعينك على ما أحببت، ممّا استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنّكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ـ فمَنْ رجلٌ يعلو على هذا البيت، فيُلقي عليه صخرة، فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، أحدُهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليُلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في نفر من أصحابه. فأتى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة. فلمّا استلبث النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)أصحابه، قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه؛ فقال: رأيته داخلاً المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله، حتّى انتهوا إليه(صلى الله عليه وآله وسلم)، فأخبرهم الخبر، بما كانت اليهود أرادت من الغَدْر به، وأمرَ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)بالتهيّؤ لحربهم، والسير إليهم .

ثمّ سار (صلى الله عليه وآله وسلم) بالناس حتّى نزل بهم في شهر ربيع الأوّل، فحاصرهم ست ليال وتحصنوا في الحصون؛ ثم إن عبدالله بن أبي سلول وجماعة من المنافقين قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنّعوا فإنّا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم، فتربّصوا ذلك من نَصرهم، فلم يفعلوا. وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أنّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلاّ الحلْقة،(الحلْقة: السلاح كله، أو خاص بالدروع .) ففعل فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف(النجاف: على وزن كتاب، العتبة الّتي بأعلى الباب) . بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام . (السيرة النبوية: ٢ / ١٩٠ ـ ١٩١ .)

وقد نقلنا القصة بطولها لأنّها توضح وتفسّر الآيات التالية:

قال سبحانه: (هُوَ الذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) يعني يهود بني النضير بعدما عرفوه؛ لقوله سبحانه: (وَ لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) البقرة: ٨٩ . .

وقوله: (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) بيانية؛ لأنّ المراد خصوص اليهود ولا يعمّ المشركين ـ على ما عرفت ـ (مِنْ دِيَارِهِمْ) حيث سلّط المؤمنين على قلاعهم وحصونهم وأوطانهم (لأَوَّلِ الْحَشْرِ)، والحشر في اللغة بمعنى الجمع، والجملة متعلّقة بـ (أَخْرَجَ) .

وفسّره السيد الطباطبائي بإخراج الجماعة بإزعاج، فقوله: (لأَوَّلِ الْحَشْرِ)من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف أي الحشر الأوّل، واللام بمعنى «في» كقوله: (أَقِمِ الصَّلَوةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ) الإسراء: ٧٨ . أي في دلوك الشمس، والمعنى: الله الّذي أخرج بني النضير من اليهود من ديارهم في أوّل إخراجهم من جزيرة العرب . (الميزان في تفسير القرآن: ١٩ / ٢٠١ .) .

يلاحظ عليه: بأنّه لوكان أوّل إخراج لليهود، ففيه أنّه ليس أوّل إخراج لهم من جزيرة العرب، فقد أخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بني قينقاع قبلهم، كما مرّت قصتهم، فكيف يكون هذا الإجلاء إجلاءً أوّلاً، مع أنّ المنقول أنّ بني قينقاع غادروا المدينة إلى وادي القرى ومنها إلى أذرعات الّتي هي جزء من أرض الشامات، وذلك من غير فرق بين أن يُفسَّر الحشر بمعنى الجلاء أو بمعنى الاجتماع في أرض الشام؟

فالأوّل هو المنقول عن البلخي، حيث قال: لأنّهم أوّل من أُجلي من أهل الذمة من جزيرة العرب ثم أُجلي إخوانهم من اليهود.

والثاني عن ابن عباس، حيث قال: أوّل حشر اليهود إلى الشام (أي إجتماعهم فيها)، ثم يحشر الناس يوم القيامة إلى أرض الشام أيضاً، وذلك هو الحشر الثاني. مجمع البيان: ٩ / ٣٨٧ . وذلك أنّ الطائفة الأُولى اجتمعوا في أرض الشام، قبل بني النضير .

والصواب: أنّ المقيس عليه ليس خصوص بني قينقاع، بل الطوائف الثلاث لأجل اشتراكهم في أُمور، فصاروا مجتمعاً واحداً، فالأوّل وصف للجميع حتّى بني قريظة، وإنّما المقيس عليه يهود فلسطين حيث أجلوا مرتين: مرة في زمن «بختنصر»، ومرة في زمن طيطس سلطان الروم، وسلم بنو النضير ومن معهم من بني قينقاع وقريظة من الجلاء مرتين بل أُجلوا مرة واحدة. والله العالم. التحرير والتنوير: ٢٨ / ٦٢ .

قوله سبحانه: (مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ)يشير سبحانه إلى أمرين:

١. إنّ المسلمين ما كانوا يتوقّعون أن يخرج بنو النضير من قلاعهم لما هم عليه من القوة والشدة والمَنَعة.

٢. كان بنو النضير يعتقدون أنّ معاقلهم الحصينة تمنعهم ممّا ينزل بهم من بلاء على يد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، (فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)، أي فأتاهم عذاب الله سبحانه من حيث لم يتوقعوه ولم يتصوّروه، وذلك بإلقاء الخوف الشديد في قلوبهم، وكان سيدهم كعب بن الأشرف قد قُتل قبل محاصرتهم . (السيرة النبوية: ٢ / ٥١ ـ ٥٥، وقد ذكرت فيها كيفية قتله) . فقوله: (فَأَتَاهُمُ اللّهُ) إشارة إلى أنهم حسبوا لكلّ شيء واستعدوا له ، ولكنّهم لم يحسبوا لقدرة الله الغالبة، وإرادته النافذة. وقوله: (قَذَفَ)يدلّ على حصول الخوف في قلوبهم دفعة واحدة فأسرعوا إلى الاستسلام، كما في قوله: (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ) آل عمران: ١٥١ . .

(يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ)، وهذا من عجائب الأُمور حيث إنّ القلاع التي بنوها لأنفسهم لتكون مأوى لهم راحوا يهدمونها بأيديهم حتّى لا ينتفع بها المسلمون بعد خروجهم منها، وفي الوقت نفسه كان المسلمون يهدمونها من الخارج ليصلوا إلى داخل قلاعهم.

ومن هنا عمّ الدمار جميع قلاعهم وحصونهم بأيديهم وبأيدي المسلمين .

وبعد أن كشف سبحانه عن هذا المصير القاتم لهؤلاء الغادرين الخائنين، أمر عامّة الناس بالاعتبار بهم، فقال: (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ)، والاعتبار هو العبور من شيء إلى شيء آخر والنظر في دلالة الأشياء على لوازمها وعواقبها.

والمراد أن يتّخذوا درساً وموعظة أو دروساً ومواعظ من هؤلاء الذين لم تنفعهم قلاعهم عمّا حاق بهم من الضرر والخسران، وذلك لأنّ الأُمور المادّية والأسباب الطبيعية، معدات ومقتضيات وليست عللاً وأسباباً قطعية لنيل الأمان .

نعم، إنّ الضابطة هي غلبة من له منعة وقوة وأدوات وسلاح، وهم يتدرعون بحصونهم وقلاعهم، ولكن الضابطة قد انقلبت رأساً على عقب، حيث إنّ المسلمين لم يكن عندهم من العدد والعدّة ولا من القلاع والحصون ما لعدوهم ومع ذلك تغلّبوا عليهم بمحاصرتهم ستة أيام، وما ذلك إلاّ لأنّ إرادة الله سبحانه هي الإرادة النافذة في الأشياء الّتي تدلّ على أنّ الغادر ليس له أمان في النهاية، حيث إنّ القوم تهيّؤوا لقتل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)غدراً.

وربّما يستدلّ بقوله سبحانه: (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ) على حجيّة القياس، وذلك لأنّ الاعتبار عبارة عن دراسة حادثة بما لها من الأضرار والآثار، فيقاس عليها حادثة أُخرى تشترك معها في جوهرها وعرضها.

فإذا جاز ذلك في عالم التكوين فليجز في عالم التشريع، بأن نستنبط حكماً غير منصوص من المسائل من حكم المنصوصة منها.

يلاحظ عليه: أوّلاً: بأنّ تفسير الاعتبار بالقياس ـ لو صحّ ـ فإنّما يكون مفاده في التكوين سلبياً لا إيجابياً بمعنى أنّه إذا رأى حادثة ترتّبت عليها أضرار وخسائر، فعليه أن يجتنب مثلها في حياته، وهذا هو المراد من أنّ القياس في التكوين سلبي، وهذا بخلاف القياس المصطلح في علم الأُصول، فإنّه فيه إيجابي بمعنى استنباط حكم مسألة غير منصوصة من مسألة منصوصة، كاستنباط حكم الفقاع من حكم الخمر، فالقياس إيجابي.

وثانياً: أنّ غاية ما تدلّ عليه الآية هو جواز القياس في التكوين، وتجاوز ذلك إلى القول بجواز القياس في التشريع نوع قياس لا يعتمد عليه إلاّ أن يثبت القياس خارجاً قبل تفسير الآية، فالاستدلال دوري لأنّ جواز القياس في التشريع فرع جواز قياس التشريع على التكوين، وثبوت ذلك موقوف على ثبوت القياس تكويناً وتشريعاً.

٣. (وَ لَوْلاَ أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ):

لفظة (لَوْلاَ) في الآية امتناعية، وجوابها (لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا) ومفاد الآية: أنّ هؤلاء القوم مجرمون أمام الله سبحانه لأنّهم نقضوا عهد الله، فعليه أن يعذّبهم وينكّل بهم بأحد الأمرين.

١. بإجلائهم عن أراضيهم، وحرمانهم من مزارعهم وعملهم.

٢. تعذيبهم بمقاتلة المسلمين إيّاهم.

ولكنّه سبحانه كتب وفرض عقوبتهم بالإجلاء لا بقتلهم وهلاكهم بأيدي المسلمين لمصلحة اقتضتها حكمته، وهي أن يتغلّب المسلمون على أراضيهم وديارهم من دون إتلاف وإراقة دم، خصوصاً وأنّ الواقعة كانت بعد غزوة أُحد الّتي استشهد فيها سبعون نفراً من صحابة الرسول، ولو دق الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) باب الجهاد والقتال وانتصر عليهم، لكن لا ينفك عن استشهاد فريق من صحابته ولعلّه يورث في نفوسهم ضعفاً في المستقبل، فتقديم الجلاء على الحرب كان لمصلحة المسلمين لا تكريماً لليهود .

ثم إنّ في انتخاب خيار الجلاء على القتل فائدة أُخرى، وهي أنّ هؤلاء سوف تستعر قلوبهم حرقة وألماً إلى آخر حياتهم بما تركوا من أراض وديار ومزارع للمسلمين، وهو ليس أمراً هيّناً على اليهود.

ومن هنا يُعلم أنّ قوله: (لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا) هو قتلهم وإبادتهم بأيدي المسلمين، وذلك لا يخلو من أضرار تصيب المؤمنين أيضاً.

وتوهُّم أنّ هناك طريقاً ثالثاً وهو إهلاكهم بالصاعقة والزلزال، مدفوع بأنّه سبحانه جعل الرسول ما دام في الدنيا أماناً، قال سبحانه: (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ مَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) الأنفال: ٣٣..

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): «كَانَ فِي الأَرْضِ أَمَانَانِ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَقَدْ رُفِعَ أَحَدُهُمَا، فَدُونَكُمُ الآخَرَ فَتَمَسَّكُوا بِهِ: أَمَّا الأَمَانُ الَّذِي رُفِعَ فَهُوَ رَسُولُ اللهِ(صلى الله عليه وآله وسلم)، وَأَمَّا الأَمَانُ الْبَاقِي فَالاْسْتِغْفَارُ. قَالَ اللهُ تَعَالى: (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)». نهج البلاغة: قسم الحكم برقم ٨٨.

ثم إنّه ربّما يتصوّر أنّ جزاءهم كان هو الإبادة فقط، لكنّه سبحانه يردّ ذلك الوهم بأنّ لهم وراء الجلاء عذاب أليم في الآخرة.

٤. (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَ رَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ):

يشير سبحانه في هذه الآية إلى سبب الأحداث الّتي مرّت على بني النضير حيث أُجلوا عن ديارهم، وخرّبت بيوتهم، واستحقّوا

العذاب في الآخرة، وأنّ السبب هو أنّهم شاقّوا الرسول وعادوه وخاصموه، وجزاء مَن يخاصم الله ورسوله العقاب الشديد.

وعلى هذا فعطف اسم الرسول على اسم الجلالة، لأجل تعظيم شأن الرسول ليعلم أنّ طاعته طاعة الله ومشاقّته مشاقّة الله، نظير قوله سبحانه: (وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ) التوبة: ٧٤ ..

واقتصر في العطف على تلك الجملة دون الجملة التالية ـ أعني قوله تعالى: (وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) للاستغناء بذكره في الجملة المتقدّمة.

ثم إنّه تظهر من بعض الآيات أنّ مشاقّة الله ورسوله من المعاصي الكبار، يقول سبحانه: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا) (النساء: ١١٥).

ثم إنّ الفعل المضاعف يجوز فيه وجهان: الإدغام والإظهار، فأدغم في المقام وقال: (شَاقُّوا) و (يُشَاقِّ)، ويجوز الإظهار، كما في قوله (يُشَاقِقِ الرَّسُولَ) .

٥. (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَة أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ):

ظاهر الآية أنّ اللينة نوع من النخل، وقد كانت بساتين القوم ومزارعهم خارج القلاع والحصون، ولمّا حاصرهم المسلمون التجأوا إلى قلاعهم وأغلقوا عليهم الأبواب فصارت البساتين والمزارع تحت يد جيش المسلمين.

ويظهر من الآية ومن كتب السيرة أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أمر بقطع بعض النخيل، فأغاظ ذلك اليهود في قلاعهم، فنادَوه: أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على مَن صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟ السيرة النبوية:١٩١/٢.

ولمّا وقع ذلك موقع شك في قلوب بعض أفراد الجيش ـ مع أنّ المقطوع لم يتجاوز نخلتين أو ست نخلات ـ نزلت هذه الآية بأنّ ما قطع وما لم يقطع كان بأمر من الله سبحانه، وذلك لأنّ الضابطة عند التزاحم هي تقديم الأهم على المهم مطلقاً، سواء أكانت في الأُمور الاجتماعية أو السياسية أو العسكرية، فإنّ الغاية الأهم (القصوى) هي استسلامهم بلا إراقة دم من الطرفين، لأنّه قد قتل من المسلمين في غزوة أُحد قرابة سبعين شهيداً وجرح عدد كبير منهم، فالقيادة الحكيمة قرّرت حفظ دماء المسلمين في تلك الفترة، ولذلك قام الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)لأجل إنزال اليهود من قلاعهم، بقطع بعض نخيلهم، لرغبتهم فيه واهتمامهم الزائد به، لأنّ اليهود معروفون بحب المال والحرص عليه.

ولهذا نزل الوحي لإزالة الشبهة عن قلوب البعض، وأكّد أنّ ما قطع وما لم يقطع من النخيل إنّما كان بإذن الله سبحانه.

نعم من آداب الجهاد ا لتي أمر بها لا تقطعوا شجرة مثمرة ولاتحرقوا زرعاً الوسائل: ١٢، الباب ١٥ من أبواب جهاد العدو، الحديث ١٣ . ولكن هذا الحكم حكم أوليّ فلربّما جاز قلع الشجر لمصلحة أقوى كما هو الحال في المقام، حيث إنّ الغرض هو إيجاد الخوف والهول في قلوب بني النضير لغاية الاستسلام، فإن قلع عدد قليل من الأشجار ثم غرس أشجار أُخرى محلها ليس بمهمّ في مقابل استسلام اليهود وتركهم أراضيهم لصيانة المؤمنين من شرورهم.

هذا أوّلاً، وثانياً أنّ في هذا العمل نوع إجزاء لليهود حيث يرون كرائم أموالهم بين مقطوع من أصله ومسلوب بيد المسلمين، وفي هذا عزّة للمسلمين وذلّة للكافرين.

ثمّ إنّ قوله: «بإذن الله» عام يشمل مورد الآية وغيره، وأنّ كلّ ما يقع في الكون، سواء أصدر من الإنسان أم من غيره، فهو بإذنه سبحانه، ولولاه لما تحقّق، إذ يمتنع أن يتحقّق في الكون أمرٌ خارج عن إرادته وسلطانه، ولا يستلزم ذلك الجبرَ لتوسط إرادة الإنسان واختياره بين إرادة الله والفعل.

وهناك مَن يخص دائرة الإذن والإرادة بغير فعل الإنسان وأنّ ما في الكون يتحقّق بإذنه وإرادته دون فعل الإنسان، وما هذا إلاّ فرار

من الجبر، وهؤلاء بهذا التفسير وإن ابتعدوا عن الجبر وحاولوا تنزيهه سبحانه عن الظلم، ولكنّهم وقعوا في ورطة الشرك حيث صار الإنسان سلطاناً مستقلاً لفعل ما أراد وإيجاد ما قصد، دون أن يكون لله سبحانه وراء فعله إرادة وسلطان.

وأمّا وجه عدم استلزامه الجبر، فإنّه سبحانه يريد وجود كلّ ما في الكون، ولكن على وجهين: تارة يريد صدور شيء عن الفاعل جبراً بلا إرادة واختيار، كإحراق النار. وأُخرى يريد صدوره من الفاعل عن إرادة واختيار كفعل الإنسان، وبذلك يخرج فعل الإنسان عن وقوعه جبراً، ولو صدر منه بلا اختيار وإرادة للزم تخلّف إرادته سبحانه عن مراده؛ لأنّه أراد أن يكون الإنسان فاعلاً مختاراً، لا فاعلاً مجبوراً، والتفصيل في محلّه.

قوله: (لِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ) عطف على قوله: (فَبِإِذْنِ اللهِ) وأقام اسم الظاهر (الفاسقين) مكان الضمير إعلاناً عن فسقهم وخروجهم عن طاعة الله سبحانه، والمعنى: أنّه سبحانه أراد خزي هؤلاء الفسقة من بني النضير، والفسق بمعنى الخروج عن الطاعة، وهو يجتمع مع الكفر بلا إيمان ومع العصيان معه.

الآيتان: ٦-٧: (وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ... إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

الآيتان: السادسة والسابعة:

(وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَ لَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

المفردات

الفيء والغنيمة: يُستعملان فيما يغنمه الإنسان، ولكن ما كان بلا قتال فهو الفيء، وما كان معه فهو الغنيمة.

ثمّ إنّ الفيء في الأصل بمعنى الرجوع واستعماله فيما يفوز به الإنسان من غير إيجاف، لأجل أنّه تبارك وتعالى خلق العالم والأموال للصالحين من عباده دون الكافرين، فإذا استولى عليه غير الصالحين فقد استولوا على ما لا يصلح لهم، فإذا أُخذ منهم بالرعب وغيره فكأنّه قد رجع الشيء إلى محلّه...

ولذلك يطلق على الظل العارض بعد الظهر بالفيء، وذلك لنقص الظل قبل الظهر شيئاً فشيئاً وأمّا بعده فيزداد، ويطلق عليه الفيء وكأنّ الظل المعدوم قد رجع .

ثم إنّ معنى قوله:(أفاء) أي أعطى الفيء.

وقوله: (وَمَا أَفَاءَ اللهُ) مبتدأ خبره (فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ)، وإنّما دخلت الفاء على الخبر لتضمّن (ما) الموصولة معنى الشرط.

وهناك احتمال آخر وهو أن تكون الجملتان من قبيل الشرط والجزاء.

والإيجاف: هو تسيير الخيل أو الركاب، وإن شئت قلت: سوقهما إلى المقصد، غير أنّ الخيل هي الفرس، والركاب اسم جمع يطلق على الإبل، و (من) في قوله:(مِنْ خَيْلٍ) ليست زائدة بل لإفادة الاستغراق، أي ما سقتم على حيازته شيئاً من خيل ولا ركاب هذا ما يرجع إلى لغة الآية وإعرابها.

قوله: (مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) اللام للعهد، والظاهر أنّ المراد: القرى التي استسلم أهلها بلا إيجاف خيل ولا ركاب، والتي منها: قريظة وفدك وقرى عُرينة وينبع ووادي القُرى والصفراء، كلّها فتحت في عهد الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) بلا عنوة، وحُكم الجميع واحد.

الدُولة: بضم الدال، ما يتداوله الناس، والتداول التعاقب في التصرّف.

وأمّا الدَولة بفتح الدال فهو بمعنى النوبة في الملك.

وقوله: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ) يحتمل أن يكون بمعنى: أعطاكم الرسول، ولكنّ الظاهر أنّه بمعنى: أمركم به الرسول، بقرينة ما بعده أي قوله: (وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا). أمّا استعمال الإيتاء في مورد الأمر فكأنّه إشارة إلى جعل تشريع الرسول وتبليغه كإيتاء الشيء باليد، كما في قوله سبحانه: (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّة) البقرة:٦٣. والآية خطاب لبني إسرائيل حتى يأخذوا بما يأمر به موسى بتمام القوة.

التفسير

٦. (وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْل وَلاَ رِكَاب وَ لَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ):

غادر بنو النضير أرض المدينة وأخذوا من أموالهم ما استقلّت به الإبل، وبقيت بساتينهم وأراضيهم تحت يد الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) فقسّمها على المهاجرين الأوّلين دون الأنصار باستثناء سهل بن حنيف، وأبي دجانة سماك بن خرشة، والحارث بن الصمّة. ولم يُسلم من بني النضير إلاّ رجلان: يامينُ بن عُمير: أبو كعب بن عمرو بن جحاش؛ و أبو سعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاها. السيرة النبوية:٢/١٠١٢.

وقد أثار ذلك التقسيم هذا التساؤل لدى الأنصار: لماذا لم يقسّمه رسول الله بين جميع الغزاة، كما فعل ذلك في غزوة بدر، حيث أخذ الخمس وقسّم الباقي بين المهاجرين والأنصار الذين شاركوا في الجهاد؟

وكأنّ الآية أجابت عن هذا التساؤل عن وجود الفرق بين ما أُخذ في غزوة بدر من أموال، وبين ما أُخذ منها في غزوة بني النضير، فالمسلمون في غزوة بدر قد أوجفوا على ذلك بخيل وركاب وقاتلوا وقُتل منهم، فلذلك استحقوا أربعة أخماس الغنيمة؛ وأمّا في غزوة بني النضير فلم يوجفوا على ذلك بخيل ولا ركاب، ولم يتحمّلوا أعباء القتال، وإنّما سلّطهم الله سبحانه عليه بإلقاء الرعب من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في قلوب اليهود ، فلم يروا بدّاً من الاستسلام والنزول على حكمه(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولم يكن للجيش إلاّ ضئيل دور من محاصرة القلاع وقطع اللينة، فصار ذلك سبباً بأن تختصّ الغنيمة بالرسول يضعها حسب ما يراه من المصلحة، أو بما يُوحى إليه.

قال الكلبي: إنّ هذه الآية نزلت في رؤساء المسلمين، قالوا له: يا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) خذ صفيك والربع ودعنا والباقي، فهكذا كنا نفعل في الجاهلية وأنشدوا:

لك المِرباعُ مِنها والصّفايا *** وحُكْمُك والنَّشيطة والفضولُ[١]

١. مجمع البيان:٣٩٢.

فـ «المرباع»: رُبع المغانم كان يستأثر به قائد الجيش.

و«الصفايا»: النفيس من المغانم الذي لا نظير له فتتعذر قسمته، كان يستأثر به قائد الجيش، وأمّا «حكمه» فهو ما أعطاه العدو من المال إذا نزلوا على حكم أمير الجيش.

و «النشيطة»: ما يصيبه الجيش في طريقه من مال عدوّهم قبل أن يصلوا إلى موضع القتال.

و«الفضول»: ما يبقى بعد قسمة المغانم ممّا لا يقبل القسمة على رؤوس الغزاة مثل بعير وفرس. التحرير والتنوير:٢٨/٧٦.

فالآية بصدد إلفات نظر المسلمين إلى أنّ ما أُخذ من أموال بني النضير يختلف عمّا أُخذ من أموال المشركين في معركة بدر، وعلى أساس هذا الاختلاف قُسِّمت الأموال هناك على جميع المقاتلين، ولم تُقسَّم هنا كذلك، وإنّما قسّمها رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) حسب ما تقتضي المصلحة.

٧. (مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ):

اختلف المفسّرون في تفسير الآية اختلافاً شديداً والذي يمكن أن يؤخذ به أحد الأمرين التاليين:

الأوّل: إنّ هذه الآية تتضمّن حكماً غير الحكم الذي تضمّنته الآية المتقدّمة. فإنّ الأُولى من الآيتين تتضمّن حكم أموال بني النضير وأنّها تختصّ برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يضعها حسب المصلحة كما قال سبحانه:(وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ)، وأمّا هذه الآية فهي بصدد بيان ما هو الحكم الشرعي في الأفياء مطلقاً، أي التي حصلت بعد غزوة بني النضير، كبني قريظة (سنة ٥) وفدك(سنة٧) وأنّها ليست مختصّة بالنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، بل يقسمها حسب ما جاء في الآية، حيث جعل مطلق الفيء مصروفاً إلى ستة مصارف، وهذا هو الذي جعله الطبرسي القول الثاني، وقال: إنّ الآية الأُخرى بيان لأموال بني النضير خاصّة لقوله: (وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ).

وأمّا الآية الثانية فهي لبيان الأموال التي أُصيبت بغير قتال، وهذا هو الذي اختاره صديقنا الراحل الشيخ محمد جواد مغنية، قال: والذي ذكرناه من تخصيص الآية الأُولى بأموال بني النضير والآية الثانية بالفيء غير أموال بني النضير هو أرجح التفاسير في رأينا. والله أعلم بما أراد. التفسير الكاشف: ٧/٢٨٦.

والذي يُبعد هذا الرأي هو اتصال الآيتين والاشتراك في التعبير حيث إنّه سبحانه ابتدأ الآية الأُولى بقوله:(وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ) والآية الثانية بقوله:(مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ)، فكيف يمكن تخصيص الآية الأُولى ببني النضير والثانية بمطلق الفيء؟!

ثمّ إنّ هذا القول يتوقّف على وجود الفاصل الزماني بين نزول الآيتين حتى تُحمَل الأُولى على مورد خاص، والثانية على مطلق الموارد.

الثاني: أنّ الآيتين تهدفان إلى معنى واحد، غير أنّ الآية الأُولى أجملت بيان المصارف واقتصرت على قوله: (عَلَى رَسُولِهِ)، وأمّا الآية الثانية فقد فصّلت مصارف الفيء فهي بيان لحكم المال الذي ذكره في الآية الأُولى.

والناظر في الآيتين يقف على صحّة ذلك بلا تكلّف، فقوله: (عَلَى رَسُولِهِ)في الأُولى، لا يعني أنّه للرسول لا للأصناف الستة، بل يعني أنّه للرسول دون أفراد الجيش والمشاركين في محاصرة بني النضير. ولمّا كان في قوله«للرسول» إجمال إذ لا معنى أن تكون الأموال الطائلة لشخص الرسول، رفعه بالآية الثانية.

ثم إنّه ربما يقال: إنّ مقتضى كون الآية الثانية بياناً للآية التي قبلها، أن تكون أموال بني النضير ممّا يخمّس، ولم يرو أحد أنّ رسول الله خمّسها بل ثبت ضدّه.

وعلى هذا يكون حكم أموال بني النضير حكماً خاصاً، أو تكون هذه الآية ناسخة للآية التي قبلها إن كانت نزلت بعدها بمدّة. التحرير والتنوير:٢٨/٧٣.

يلاحظ عليه: ليس في الآية الثانية أي شاهد على لزوم التخميس حتى يلزم ـ من كونها بياناً للآية الأُولى ـ وجوب التخميس في أموال بني النضير، بل ظاهر الآية الثانية أنّ الفيء بأجمعه للأصناف الستة. والذي أوجب الاشتباه هو وجود الأصناف الستة في آية الغنيمة، قال سبحانه: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْء فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)، الأنفال:٤١. دون لفظ التخميس.

ولكن الفارق بين المقامين واضح، وهو وجود لفظ الخمس في سورة الأنفال دونه في آية الفيء.

فالغنيمة تُخمّس، والخمس للطوائف الست والأرباع الباقية للمجاهدين، بخلاف المقام.

ثمّ إنّه سبحانه ذكر مصارف الفيء فجعلها على أصناف:

١. سهم الله سبحانه (يُصرَف في سبيل الله).

٢. سهم الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو ما يصرفه في حاجاته الشخصية وما يحتاج إليه مقامه.

٣. سهم ذوي القربى، ولا شك أنّ المراد قربى الرسول، لا مطلق أقرباء المسلمين، لأنّ اللام في القربى للعهد أي قرباه من بني هاشم، وذلك لحرمانهم من الزكاة.

وتوهُّم أنّ المراد أقرباء الناس جميعاً، مدفوع، لأنّه يستلزم شموله جميع المسلمين، لأنّ الناس بعضهم أقرباء بعض، ويدلّ على ذلك تقدّم الرسول، فاللام في «القربى» إشارة إليه أي قربى الرسول، والضابطة في تفسير ذي القربى في القرآن، رعاية ما سبقه، فلو كان المتقدّم هو الرسول أو النبي، فالمراد أقرباؤه، وإن كان غيره نظير: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبى)(النساء:٣٦.)

فالمراد من يمتّ إلى الوالدين بصلة، والظاهر أنّ المراد من القربى مطلق القربى؛ وذلك لأنّ الإنفاق عليهم بملاك انتسابهم إلى النبي لا بملاك الفقر، بخلاف الأخيرين.

٤ـ ٦. سهم اليتامى، وسهم المساكين، وسهم أبناء السبيل. والسؤال: هل المراد أيتام بني هاشم ومساكينهم وأبناء سبيلهم، أو مطلق الأيتام والمساكين وأبناء السبيل؟

الظاهر هو الثاني، لأنّ سهم ذي القربى يعمّ كلّ مَن له وشيجة بالنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، سواء أكان يتيماً أو لا، مسكيناً أو لا، ابن سبيل أو لا، فتكون الأسهم الثلاثة الأخيرة لمطلق المسلمين.

وقال الشيخ الطوسي: إنّ المراد بهم الأيتام من أهل بيت رسول الله ومساكينهم وابن سبيلهم، لأنّ تقديره: ولذي قرباه ويتامى أهل بيته وابن سبيلهم، لأنّ الألف واللام تعاقب الضمير. التبيان في تفسير القرآن: ٩ / ٥٦٤ .

وأمّا الروايات فهي مختلفة، فقد روى المنهال بن عمرو عن علي بن الحسين(عليه السلام) قال: قلت: قوله:(وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)قال: «هم قُربانا، ومساكيننا، وأبناء سبيلنا»، بينما روى محمد بن مسلم عن أبي جعفر [الباقر](عليه السلام) أنّه قال: كان أبي يقول: «لنا سهم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)وسهم ذي القربى، ونحن شركاء الناس فيما بقي». مجمع البيان:٩/٤٣١.

قوله تعالى: (كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ).

قد سبق أن قلنا: إنّ الدُولة ـ بالضم ـ ما يتداوله المتداولون، والدَولة ـ بالفتح ـ النوبة في الغلبة والملك، فتداول المال بين الناس من مقولة الدُولة ـ بالضم ـ و تداول الملك والرئاسة بين ملك أو رئيس وآخر،من قبيل الدَولة ـ بالفتح ـ .

هذه الفقرة تعليل لما قبلها، وهو تخصيص الفيء بالأصناف الستة، دون الأغنياء من الأنصار، كما هو ظاهر قوله: (بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ) .

وتداول الأموال بين الناس وعدم اختصاصها بطائفة دون طائفة من مقاصد الشريعة، فمن أمعن في الفقه الإسلامي يجد ذلك بسهولة، فعناوين المعاملات تكشف أنّ غرض التشريع الإسلامي بالنسبة للأموال، هو انتفاع كلّ منها حسب استعداده وكفاءته، فقد شرّع عقود المعاملات إمّا بمبادلة مال بمال، أو مبادلته بالانتفاع بالعين، أو كون المال من طرف والعمل من طرف آخر، كالمضاربة والمساقاة، وفي الوقت نفسه حرّض على العمل وجعل في أموال الأغنياء حقوقاً للفقراء من الزكوات والأخماس والكفّارات وجعل للمواريث حدوداً وضوابط، كلّ ذلك لأجل انتفاع أبناء المجتمع من تداول الأموال، دون أن ينقسم المجتمع إلى طبقة ثرية تملك كلّ شيء، وطبقة فقيرة تفتقر إلى كلّ شيء . قال أمير المؤمنين علي(عليه السلام): «إنّ الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء: فما جاع فقير إلاّ بما مُتِّعَ به غنيّ، والله تعالى سائلهم عن ذلك». نهج البلاغة: قصار الحِكم، برقم ٣٢٨.

والآية تهدف إلى أنّه يجب أن تكون الأموال بنحو يتناولها الأغنياء والفقراء معاً وأن تسود العدالة في المجتمع.
ومن الغريب تفسير الآية بإلغاء المُلكية الفردية وإقرار المُلكية الجماعية، مع أنّ الآية لا صلة لها بهذه النظرية التي ثبت بطلانها بانهيار الشيوعية و(الاتحاد السوفياتي)، فإنّ في إلغاء المُلكية الفردية وتفويض المُلكية للدولة، إماتة للبواعث والحوافز الداخلية التي تبعث الإنسان نحو العمل والإنتاج والحصول على المال.
نعم من له نزعة اشتراكية يفسر الآيات وفق نزعته.
وهنا نكتة يجب إلفات نظر القارئ إليها، وهي أنّ الاتحاد السوفياتي كان يمثّل المعسكر الشرقي، في قبال المعسكر الغربي الذي تتزعّمه أمريكا، وكانت هاتان الدولتان الكبريتان تناطح إحداهما الأُخرى، وتتسابقان في كلّ المجالات العسكرية والاقتصادية والسياسية وغيرها.
ومع ذلك نرى أنّ الاتحاد السوفياتي قد انهار في أواخر القرن العشرين تماماً واستقلت الجمهوريات الّتي كان يتشكّل منها، بعد سيطرة الحكومة المركزية عليها لسنوات طوال، والأسباب الّتي أدت إلى هذه النتيجة عديدة، من أهمّها:
الأوّل: الانغماس في الجوانب المادية، وإلغاء التوجّهات الروحية، وقد أدّى ذلك إلى تنكّر الشعب للفضائل الأخلاقية، والأُسس الّتي تُبنى عليها الحضارة الإنسانية الواقعية، ومن ثم طغيان الفساد والشرور والآثام، واندحار المُثل والقيم الإنسانية.
وهذا ما اعترف به الدكتور غورباتشوف، آخر رؤساء الاتحاد السوفياتي .
الثاني: السعي إلى إلغاء الملكية الفردية وتأميم كلّ وسائل الإنتاج، استناداً إلى قاعدة (من كلٍّ حسب طاقته ولكل حسب عمله) المقرّرة في المرحلة الاشتراكية، وقاعدة (من كل حسب طاقته ولكلّ على حسب حاجته) المقرّرة في المرحلة الشيوعية، وقد أدّى ذلك إلى قتل الحوافز الذاتية، والدوافع الشخصية نحو بذل المزيد من الجهد في العمل، وزيادة الانتاج.
ومن المعلوم أنّ محاولة تطبيق هاتين القاعدتين في المجتمع، قد أفضت إلى ضعف الهمم وخمود العزائم باتجاه العمل وزيادة الانتاج، ومن هنا عانى الاتحاد السوفياتي ـ مثلاً ـ من انخفاض الإنتاج الزراعي، الأمر الّذي اضطر الحكومة إلى استيراد الحنطة من الدول الغربية، ممّا صار يولّد ضغطاً سياسياً على الاتحاد السوفياتي، وقد استغل المعسكر الغربي حاجة هذا المنافس القوي بفرض شروط قاسية آلت بالأخير إلى انهيار النظام السياسي، وتفكّك البلاد بأكملها.
قوله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) قد مر أنّ المراد من الإيتاء هو الأمر، أي إيتاء التشريع الإلهي إلى الناس.
والآية تدلّ على أنّه يجب على المسلم التسليم أمام تشريع السماء الذي يبلّغه الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)وليس له أن يعترض عليه؛ وذلك لأنّ معنى الإسلام هو التسليم أمام تشريع الله، قال سبحانه:(فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا). النساء:٦٥.
وفي هذه الفقرة تعريض بمن استنكر عمل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في تقسيم أموال بني النضير على المهاجرين فقط، وذلك لأنّه لم يكن نابعاً عن وشيجة قبلية، وإنّما هو بأمر من الله سبحانه حيث كان المهاجرون يعيشون في فقر مدقع، وبما أنّ الفقر هو الملاك، دفع(صلى الله عليه وآله وسلم) شيئاً من الأموال لعدد من الأنصار الذين كانوا كالمهاجرين في الفقر والحاجة.
قوله تعالى: (وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) .
أمر بالاتّقاء من مخالفة الله سبحانه، فإنّ مخالفته تنتهي إلى عقوبته وهو شديد العقاب.
وممّا يجدر ذكره في المقام أنّ (قرية فدك) هي إحدى القرى المثمرة في أطراف المدينة، وقد استسلم أهلها بعد سقوط قلاع خيبر

للجيش الإسلامي، الّذي بدأ يفتح القرى والقلاع واحدة بعد أُخرى، فاصطلحوا مع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) على النصف، أي تكون أراضيهم وبساتينهم نصفاً لهم ونصفاً لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)على أن يقوموا هم بزراعة ما لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في مقابل أجر. فلمّا نزل قوله سبحانه: (فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) الروم:٣٨.أعطى رسول الله (فدكاً) لفاطمة (عليها السلام).

وفي الدر المنثور: أقطع رسول الله فاطمة فدكاً. (الدر المنثور:٤/١٧٧.).

وقد كانت هذه القرية فَيئاً بيد بنت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وفيها أموالها، ولمّا ارتحل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) صودرت حسب ما يقول الإمام علي(عليه السلام): «بلى، كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم، وسَخَتْ عنها نفوس قوم آخرين، ونعمَ الحَكَم الله» (نهج البلاغة: الكتاب رقم ٤٥.).

نعم رافقت قصة فدك أحداث مؤلمة حيث غصبت في فترة من الفترات، ثم أُرجعت إلى أبناء علي في فترة أُخرى، وهكذا كانت تتنقل بين أخذ وردّ، فصار القبض والإرسال أمراً سياسيّاً، لا لغاية مالية بعد ما كانت كذلك في الصدر الأوّل، لأنّ الدولة ملكت بفضل الفتوحات الأموال الطائلة، ونالت زخارف الدنيا وزينتها، والتفصيل في محلّه.

سورة الحشر: الآيات ٨ ـ ١٠ (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ.... رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ).

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَ لإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ).

المفردات

تبوّأ (المكان): حلّ فيه، والمراد بالدار هنا: المدينة المنورة، والمعنى: الذين عمروا المدينة وسكنوها.

الحاجة: يراد بها المعنى المصدري، أي الاحتياج وأُخرى المحتاج إليه، وقد تفسّر هنا بالغيظ، وهو تفسير باللازم كما سيوافيك .

قوله: «والإيمان» عطف على الدار، والعامل فيه محذوف بمعنى: آثروا الإيمان، نظير قوله: علفتها تبناً وماءً بارداً.

ويحتمل أن تكون الواو للمعيّة، ويكون الإيمان مفعولاً معه، أي اتّخذوا المدينة سكناً ومأوىً مع الإيمان، نظير قوله: (فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكَاءَكُمْ). يونس:٧١.

ويظهر من السيد الرضي أنّ عطف الإيمان على الدار عطف حقيقي وأنّ التبوُّء يصدق عليهما على نهج سواء، من دون حاجة إلى تقدير فعل قبل الإيمان. قال بعد ذكر الآية: «وهذه استعارة، لأنّ تبوُّء الدار هو استيطانها والتمكّن فيها ولا يصحّ حمل ذلك على حقيقة في الإيمان، فلابدّ إذن من حمله على المجاز والاتّساع، فيكون المعنى أنّهم استقرّوا في الإيمان كاستقرارهم في الأوطان، وهذا من صميم البلاغة ولباب الفصاحة، وقد زاد اللفظ المستعار هاهنا معنى الكلام رونقاً، ألا ترى كم بين قولنا استقروا في الإيمان وبين قولنا تبوّءُوا الإيمان، وأنا أقول أبداً أن الألفاظ خدم للمعاني، لأنّها تعمل في تحسين معارضها وتنميق مطالعها» تلخيص البيان في مجازات القرآن : ٢٨٥، مطبعة عالم الكتب، بغداد، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م ..

الإيثار: ترجيح شيء على غيره مع الحاجة إليه، أو تقديم الغير على النفس.

الخصاصة: الفقر والحاجة، قال الراغب: خصاص البيت فرجه، وعبّر عن الفقر الذي لم يُسدّ بالخصاصة، كأنّ الفقر فرج في حياة الإنسان.

يُوق: فعل مضارع مجهول من الوقاية أي الحفظ.

الشُّحّ: بخل مع حرص على ما في يد الغير، بخلاف البخيل فإنّه يبخل بما في يده دون حرص على مال الغير. وفي مجمع البيان: لا يجتمع الشُّح والإيمان في قلب رجل مؤمن، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف رجل مسلم (مجمع البيان: ٩ / ٣٩٣).

الغِلّ ـ بكسر الغين ـ :الحقد والغشّ.

قوله سبحانه: (وَالَّذِينَ جَاءُوا) عطف على قوله: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ)، والضمير في (مِنْ بَعْدِهِمْ) يرجع إلى الفريقين المهاجرين والأنصار. ومن المحتمل أن يكون: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ) كلاماً مستأنفاً، والموصول مبتدأ خبره: (مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ).

التفسير

٨ . (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ):

قوله: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ) بدل ممّا ورد في الآية السابقة، وهناك احتمالات خمسة:

١. أن يكون بدلاً من قوله «فللّه» في:(مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلّهِ).

٢. أن يكون بدلاً من الأصناف الأربعة المذكورة في قوله:(وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ).

٣. أن يكون بدلاً من الأصناف الثلاثة الأخيرة، وعلى كلّ تقدير فاللام في قوله:«للفقراء» متعلّقة بقوله:(مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ) فكأنّه قال: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فللّه...وللفقراء والمهاجرين» وأُعيدت اللام مع أنّ مقتضى البدل عدم تكرارها، وذلك لوجود فصل طويل بين البدل والمبدل منه.

٤. أن تكون جملة ابتدائية على حذف المبتدأ والتقدير: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فللّه... وللفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم».

٥. أن تكون الجملة معطوفة بحذف حرف العطف على طريقة التعداد، كأنّه قيل: فللّه وللرسول ـ إلى آخره ـ وللفقراء المهاجرين.

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى مناقشة الوجوه الخمسة:

أمّا الأوّل، أي أنّه بدل من قوله تعالى: (فَلِلّهِ...) فالمراد به سبيل الله، وتقسيم الغنائم بين المهاجرين من مصاديق سبيل الله أي ما فيه رضاه، وعلى ذلك لا يكون المهاجرون من سهماء الفيء بل من مصاديق سهم واحد وهو سبيل الله.

وأمّا الوجه الثاني ـ أي جعله بدلاً من الأصناف الأربعة ـ فمعنى ذلك اشتراط الفقر فيهم، ولكنّه أمر غير صحيح إذ لا يشترط الفقر في ذوي القربى؛ لأنّ الله سبحانه علّق الاستحقاق بالقرابة، بخلاف الثلاثة الأخيرة حيث علّقه بعناوين تلازم الفقر، كاليتامى والمساكين وابن السبيل.

وأمّا الوجه الثالث ـ أي يكون بدلاً من الثلاثة الأخيرة ـ فلا إشكال فيه، غير أنّ لازم الوجهين الأخيرين كون المهاجرين الفقراء أحد السهماء في الفيء بحذف القول الأوّل فهم من مصاديق أحد السهام، أعني في سبيل الله.

وأمّا الوجه الرابع والخامس، فيكون فقراء المهاجرين مصارف مستقلة للفيء، وهذا خلاف الظاهر لما تقدّم من أنّ المراد من اليتامى والمساكين وابن السبيل كلّ من صدقت عليه هذه العناوين، والفقراء المهاجرين من مصاديق أحد هذه العناوين الثلاثة.

وعلى كلّ تقدير فهذه الآية تعدّ الفقراء من المهاجرين ممّن يجوز صرف الفيء فيهم، سواء أكانوا مصارف مستقلة أو من مصاديق في سبيل الله، أو فروعاً من العناوين الثلاثة.

ثم إنّه سبحانه وصف المهاجرين الذين خُصّوا بأموال بني النضير بالأُمور التالية:

١. كونهم فقراء.

٢. أُخرجوا من ديارهم وأموالهم.
٣. ابتغاؤهم فضلاً من الله، أي رزقاً من الله. ويمكن أن يراد به الثواب.
٤. يبتغون رضواناً من الله.
٥. ينصرون الله ورسوله في الغزوات وغيرها.
٦. أُولئك هم الصادقون.

وهؤلاء الذين شُرّدوا من ديارهم وأموالهم رغبة في مرضاة الله وثوابه ونصرة الإسلام، أولى بالفيء والزكاة لفقرهم، وجهادهم.

ولا شك أنّ المهاجرين كانوا عند نزول هذه الآية على الأوصاف التي ذكرها الله سبحانه في كتابه، ولكن النجاة والفوز رهن بقائهم على هذه الصفات حتى يلاقوا ربهم سبحانه، فربَّ إنسان كان عابداً عالماً مهتدياً، ثمَ يزيغ عن سبيل الهدى، ويتّبع الهوى، ويرتكس في الضلال، قال تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا). (الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦.)

فهذا الرجل كان قد بلغ من القداسة درجة آتاه الله معها آياته، كما يدلّ عليه قوله سبحانه: (آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا) ولكنّه انسلخ، بعد ذلك، من الآيات ومن الإيمان، وصار تابعاً للشيطان، ومن هنا لا يمكن الحكم بصلاح الإنسان بمجرد كونه في فترة من عمره على صلاح وفلاح، ولذلك فتح البخاري في صحيحه باباً باسم: «باب الأعمال بالخواتيم».

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «إنّ العبد ليعمل فيما يرى الناس عمل أهل الجنة وإنّه لمن أهل النار، ويعمل فيما يرى الناس عمل أهل النار وهو من أهل الجنّة، وإنّما الأعمال بخواتيمها». صحيح البخاري:٧/١٨٨، كتاب الرقاق.

وهذا هو قارون بني إسرائيل كان يقرأ التوراة بصوت حسن، ولكنّه ساء سلوكه فخسف سبحانه به وبداره وكنزه.(لاحظ سورة القصص:٨١.)

وعلى ضوء ذلك، فما مرّ من الآيات التي تُثني على فئات من الصحابة لا يُحتجّ بها على صلاحهم إذا ثبت بالأدلّة القطعية انحرافهم عن الطريق المهيع، واقترافهم المعاصي، ومجانبتهم للحق والحقيقة.

وممّا لا شكّ فيه وقوع التشاجر بين الأصحاب، كما دارت بينهم معارك دامية، قُتل على أثرها لفيف من البدريين والأُحديين وغيرهم من المسلمين الأبرياء وعندئذ يقال: إنّما العبرة بخواتيم الأعمال، وإن ثناء القرآن عليهم إنّما كان بحسب ملابساتهم وأحوالهم يوم ذاك، فكانوا من الصلحاء وليس من المستحيل أن ينسلخ بعضهم من تلك الأحوال كما انسلخ غيرهم.

٩. (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ):

كانت الآية السابقة واردة في وصف المهاجرين، وهذه الآية تتبنى بيان صفات من سكن المدينة قبل نزول المهاجرين فيها وعمَروها في حال كونهم مؤمنين، وبذلك صارت مهيّأة لنزول المهاجرين وسكناهم فيها.

وقد وصفهم سبحانه بالأوصاف التالية:

١. (يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ)

أي من المسلمين؛ وذلك لأنّ الإسلام جعل الجميع أُخوة، نعم من شأن القبائل أن يتحرّجوا من الذين يهاجرون إلى ديارهم، ولكن هؤلاء لا يتحرّجون بل يحبون من يهاجر إليهم لوجود العلقة الدينية التي هو أقوى من العلقة النسبية، يقول

سبحانه: (وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ). الأنفال:٧٤.

٢. (وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا) الضمير المتصل في (أُوتُوا) يرجع إلى المهاجرين، والمعنى أنّ الأنصار لا يجدون في نفوسهم رغبة إلى أخذ شيء ممّا أُوتي المهاجرون من أموال بني النضير، فالفقرة ثناء على الأنصار؛ لأنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) خصّ المهاجرين بأموال بني النضير. ومع أنّ طبيعة هذا العمل من شأنها تثير الحقد والغيظ في نفوس الآخرين ، ولكن الأنصار كانوا على خلاف ذلك، لأنّهم كانوا في غنى فرضوا بذلك، بينما كان المهاجرون في حاجة، لأنّهم كانوا غرباء.

٣. (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

لقد بلغ الأنصار في فضائل الأخلاق درجة أقدموا معها على تقديم المهاجرين على أنفسهم حتى لو كانت عندهم حاجة، وهذه الفقرة قد عرّفتهم بدرجة أعلى من الفقرة السابقة، حيث وصفتهم أوّلاً بأنّهم لا يجدون في نفوسهم رغبة في ما أُوتي المهاجرون، أو غيظاً وغلاًّ من ذلك.

ثم وصفتهم هذه الفقرة بالإيثار على أنفسهم حتى لو كانوا في فاقة، وكانت لديهم حاجة إلى ما أُوتي المهاجرون، وذلك من أسمى درجات التضحية .

٤. (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

أي فمن وقي شحّ نفسه، فأُولئك هم الفائزون بثواب الله ونعيم جنته، ويظهر من بعض الآيات أنّ الشحّ لا يفارق الإنسان ولكن الناجح هو من يلجمها،قال سبحانه:(وَ أُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ) النساء:١٢٨، فكأنّ الشحّ حاضر مع الإنسان لا يفارقه، فمن تمكّن من السيطرة عليها فهو الفالح الناجح.

إلى هنا تمّ وصف الأنصار بهذه الأوصاف العالية، والمفسّرون ـ حسب ما حضرني من التفاسير ـ يحملون الآية على الإخبار بمعنى أنّه سبحانه يخبر عن أحوالهم وأنّهم كذلك، ولكن من المحتمل أن يكون غير الوصف الأوّل (التبوُّء) بصدد الإنشاء، أي يليق أن يكونوا على وفق هذه الأوصاف، فالآية بصدد التحريض على اكتساب هذه الصفات.

والإخبار بصدد الإنشاء كثير في كلام العرب، حيث يقول الوالد للولد: ولدي يصلّي، والمعنى : صلِّ... .

وعلى ذلك تكون الآية بصدد حثّ الأنصار على أن يَتحلَّوا بهذه الصفات ويكتسبوا هذه المحامد.

نعم، لا يمكن إنكار وجود أرضية صالحة عندهم للتسامي إلى هذه الدرجات الرفيعة، والذي يدلّ على ذلك ـ أي أنّهم ربّما كانوا يجدون في أنفسهم حاجة نابعة من تخصيص النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) الغنائم لغيرهم ـ ما ذكره ابن هشام في أمر أموال هوازن وسباياها، قال: لمّا أعطى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجَد هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة القالة: الكلام الرديء .، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)قومَه، فدخل عليه سعد بن عُبادة، فقال: يا رسول الله، إنّ هذا الحيّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعتَ في هذا الفيء الذي أصبت، قَسَمْت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء.

ثمّ إنّ سعداً قد جمع الأنصار للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وحضروا عنده، فخطب(صلى الله عليه وآله وسلم) فيهم، قائلاً: «يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم، وجِدَة وجدتموها عليّ في أنفسكم، ألم آتكم ضُلاّلاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم...» إلى آخر ما ذكره.

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قَسْماً وحظّاً. ثم انصرف رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وتفرّقوا. (

السيرة النبوية لابن هشام:٢/٤٩٨ـ٥٠٠.)

وما ذكرناه من الاحتمال ـ والله أعلم ـ يأتي في قوله سبحانه:(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا...).(الفتح:٢٩.)

فالآية كما تحتمل الإخبار عن أوصاف صحابة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) تحتمل ـ أيضاً ـ أن تكون إخباراً بقصد الإنشاء، أي يجب أن يكونوا على هذه الصفات العالية : خصماء للكفّار، رحماء بينهم، ناشدين لمرضاة الله تعالى. والّذي يقوّي هذا الاحتمال أنّ قسماً منهم لم يكونوا بهذه الصفات في عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولم يكونوا كذلك بعد رحيله(صلى الله عليه وآله وسلم) ، ويشهد لذلك ما وقع بينهم من نزاع وشقاق، ومن معارك دامية أُريقت فيها دماء الآلاف من الأبرياء، وحسبك من ذلك معركة الجمل الّتي خاضها الناكثون ضد الإمام والخليفة الشرعي.

نعم، لو قلنا باختصاص الآية بحياة الصحابة في عصر الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)لتعيّن القول بأنّ الآية بصدد الإخبار عن الصفوة منهم.

١٠. (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَ لإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ):

ذكر سبحانه في الآيتين الثامنة والتاسعة أوصاف المهاجرين والأنصار، وذكر في هذه الآية أوصاف طائفة ثالثة، وهم التابعون (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ) أي من بعد المهاجرين والأنصار معهم، ولم تعنِ الآية التابعين بالمصطلح الرجالي، أي من لم ير الرسول بل رأى من رآه. بل إنّ المراد بهم كلّ من جاء من بعد الطائفتين وسار بسيرتهم إلى يوم القيامة.

والأوصاف التي ذكرت في الآية ، هي:

١. (يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَ لإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ).

أي أنّهم يدعون ويستغفرون لأنفسهم ولمن سبقهم بالإيمان.

٢. (وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا) فهم يسألون الله سبحانه أن يزيل الغشّ والحقد والعداء عن قلوبهم، إذ يستحيل أن يجتمع الإيمان مع الغلّ على الأخ في قلب المؤمن؛ لأنّ الحقد على المؤمن حقد على النفس، والمؤمنون كالجسد الواحد....

٣. (رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ): أي يسألونه سبحانه بما أنّه رؤوف رحيم أن ينزّه قلوبهم من الغلّ والنفاق.

وهذه الأدعية الثلاثة تختلف مضموناً، فهم في الدعاء الأوّل يسعون في إصلاح أنفسهم ويطلبون العفو والرحمة من الله لتلك الغاية، وفي الدعاء الثاني يطلبون العفو والمغفرة من الله لإخوانهم، وفي الدعاء الثالث يركّزون على تصفية نفوسهم من الرذائل والضغائن لمن سبقهم في الإيمان.

وفي هذه الأدعية الثلاثة مقابس نور لعامّة المسلمين، ولكلّ الأجيال ينبغي أن يستضيئوا بها في سلوكهم وتعاملهم مع إخوانهم بالصفاء والأُخوّة.

ومن المعلوم أنّ مجرد الدعاء غير كاف لاستجابته، بل يجب على الداعي السعي في مقدّمات استجابة دعوته وتهيئة النفس لنزول البركات من الله سبحانه وزوال الرذائل.

وممّا يدلّ على ما ذكرنا من الاحتمال من أنّ الآية بصدد الإنشاء لا الإخبار عن الواقع المحقّق، هو أنّ مضمون هذه الآية يشمل كلّ من وجد ويوجد من المسلمين إلى يوم القيامة، مع أنّ الجميع لم يكونوا على وتيرة واحدة، فكم من مسلم ينغِل قلبُه على أخيه المسلم، وكم من طائفة تحمل الحقد والعداء لطائفة أُخرى.

والتاريخ حافل بالحروب الدامية الّتي وقعت بين المسلمين، ومن أوضحها دلالة على أنّ إحدى الطائفتين المتقاتلتين كانت منقادة لغلّها وحقدها، تلك الحروب الّتي خاضها الناكثون والقاسطون والمارقون مع الإمام علي(عليه السلام)، لأنّ الحق كان مع إحدى الطائفتين. وعلى هذا، فمن الغريب جداً ما ذكره ابن عاشور في تفسيره حول هذا الأمر، حيث قال: وأمّا ما جرى بين عائشة وعليّ من النزاع والقتال، وبين عليّ ومعاوية من القتال، فإنّما كان انتصاراً للحق في كلا رأيَي الجانبين، وليس ذلك لغلّ أو تنقّص، فهو كضرب القاضي أحداً تأديباً له، فوجب إمساك غيرهم من التحزّب لهم بعدهم، فإنّه وإن ساغ ذلك لآحادِهم لتكافؤ درجاتهم أو تقاربها... إلخ. التحرير والتنوير:٢٨/٨٧ـ٨٨.

ولا أدري كيف يقول ذلك، وقد ملأ أسماع الخافقين إخبار رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) للإمام علي(عليه السلام)بأنّه سيقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين؟!

قال الحافظ ابن كثير : قال الحاكم: حدثنا أبو جعفر محمد بن علي بن دُحيم الشيباني، حدثنا الحسين بن الحكم الحبري، حدثنا إسماعيل بن أبان، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الأزدي، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري، قال: أمرنا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فقلت: يا رسول الله! أمرتنا بقتال هؤلاء، فمع مَنْ؟ فقال: «مع علي بن أبي طالب معه يقتل عمار بن ياسر». البداية والنهاية: ٧ ـ ٨/٣١٧.

وقال: قال الحافظ: حدثنا الإمام أبو بكر أحمد بن الحسن الفقيه، أنا الحسن بن علي، حدثنا زكريا بن يحيي الخراز المقرئ، حدثنا إسماعيل بن عباد المقرئ، حدثنا شريك، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، قال: خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأتى منزل أُمّ سلمة، فجاء عليّ، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «يا أُمّ سلمة هذا والله قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين من بعدي». البداية والنهاية: ٧ ـ ٨/٣١٧ .

وروى الحاكم بإسناده عن أبي أيوب: أمر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) علي بن أبي طالب بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين. المستدرك على الصحيحين:٣/١٣٩ .

وروى النَّسائي بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري، قال: كنّا جلوساً ننظر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فخرج إلينا قد انقطع شسع نعله، فرمى به إلى علي(عليه السلام)، فقال: إنّ منكم رجلاً يقاتل الناس على تأويل القرآن، كما قاتل على تنزيله، قال أبو بكر: أنا؟ قال: لا، قال عمر: أنا؟ قال: لا، ولكن خاصف النعل . (خصائص أمير المؤمنين: ١٣٤، الحديث ١٥٢. وانظر: المستدرك على الصحيحين: ٣ / ١٢٢ ـ ١٢٣، وفيه:(إنّ منكم من يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله).

فإذا اتّضح الحق بنصّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهل يكون فعل المقابل انتصاراً له؟! ثمّ كيف يسوّغ ابن عاشور لبعضهم ذلك النزاع، بقوله «لتكافؤ درجاتهم أو تقاربها»؟! وهل تكون درجة من خالفت نصّ القرآن الكريم، الذي أمر نساء النبي بقوله:(وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) الأحزاب:٣٣.متكافئة أو متقاربة مع من قال فيه (صلى الله عليه وآله وسلم): «عليّ مع القرآن، والقرآن مع عليّ، لن يتفرّقا حتّى يردا عليّ الحوض» . المستدرك على الصحيحين: ٣ / ١٢٤، وصححه الحاكم، وأقرّه الذهبي.

سورة الحشر: الآيات ١١ ـ ١٤ (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ.... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ):

الآيات: الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ * لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ * لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرى

مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ):

التفسير

١١. (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ):

تضمّنت الآيات السابقة ما يرجع إلى أوصاف الطوائف الثلاث: المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، وأمّا هذه الآية فتعرّضت لذكر المنافقين الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، وكان يرأسهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول الأوسي. وعدّهم سبحانه إخواناً لليهود لاشتراكهم معهم في المقصد والمأرب، وهو معاداة الرسول ومن آمن به، فصار ذلك وسيلة لارتباطهم وتوافقهم، حيث قال:(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ).

روى السيوطي في «الدر المنثور» عن ابن عباس: أنّ رهطاً من بني عوف ابن الحارث منهم عبد الله بن أُبي بن سلول، ووديعة بن مالك، وسويد، وداعس، بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنّعوا فإنّا لا نُسلِمكم وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم. الدر المنثور:٨/١١٥.

وسياق الآيات والمأثورات يدلّ على أنّ المراد من قوله: (الَّذِينَ كَفَرُوا)هم بنو النضير، لا بنو قينقاع، لأنّهم شُرّدوا من قبل، ولا بنو قريظة الذين سار إليهم الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) بجيشه عقيب غزوة الأحزاب في السنة الخامسة للهجرة.

ثمّ إنّ المنافقين وعدوهم بالوعود التالية، بعد أن أرفقوها بالقسم (حيث إنّ قولهم «لئن» موطئة للقسم):

١. (لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ)، أي نحن لا نفارقكم في الخروج، وكأنّه كناية عن النصر، فإنّ المنافقين لا يفارقون بلادهم.

٢. (وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا)، أي لا نُصغي أبداً لقول أيّ إنسان يشير علينا بمفارقتكم.

٣. (وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ)، أي نُعينكم في القتال.

ثمّ إنّه سبحانه يصف أصحاب هذه الوعود بالكذب، ويقول في توكيد شديد:(وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ).. فوعودهم إذن خاوية، لا تثبت عند الامتحان، وسيفضحها واقع الأحداث، كما بيّن ذلك سبحانه في الآية التالية.

١٢. (لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ):

في هذه الآية أخبار غيبية ثلاثة، حيث إنّ الضمائر في قوله: (أُخْرِجُوا)و (مَعَهُمْ)، و (قُوتِلُوا) وغيرها، تعود إلى الذين كفروا من اليهود، فالله سبحانه يكذّب المنافقين في أقوالهم ووعودهم، ويخبر أنّهم لا يوفون بها، وأنّ مواقفهم ستكون على هذه الأنحاء:

١. (لَئِنْ أُخْرِجُوا] اليهود [لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ).

٢. (وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ).

٣. ثم يرتقي في تكذيبهم على ما وعدوا به إخوانهم ويقول : (وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ) ـ على فرض المحال ـ (لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ)، أي يفرون ولا يثبتون مع اليهود بل يسلمونهم إلى مصيرهم المجهول.

يُشار إلى أنّه لا منافاة بين الإخبار بعدم نصرهم إذا قوتلوا وبين قوله: (وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ)، فإنّ الفقرة الثانية وردت فرضاً، أي لو فُرض أنّهم ينصرونهم، فإنّ ذلك لا ينفعهم، وسوف ينهزمون من فورهم هذا، ويتركون الساحة ولا يثبتون في ميدان الدفاع.

ثمّ إنّ بعض المفسّرين قالوا بأنّ الآية ناظرة إلى الذين لم يخرجوا ولم يقاتلوا وهم بنو قريظة وأهل خيبر، وأمّا بنو النضير فقد أُخرجوا قبل [نزول] هذه السورة، فهم غير معنيّين بهذا الخبر المستقبل، والمعنى: لئن أُخرجت بقية اليهود في المستقبل لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا في المستقبل لا ينصرونهم. التحرير والتنوير:٢٨/٩٠.

يلاحظ عليه: أنّه يلزم من ذلك، التفكيك في سياق الآيتين ومضمونهما، فإنّ الوعود الكاذبة الّتي وردت في الآية الحادية عشرة، قد صدرت من المنافقين في حق بني النضير، وقد مرّ أنّ رئيس النفاق مع صحبه وعدوا بني النضير بتلك الوعود.

فإذا كانت هذه الآية ناظرة إلى بني النضير، تكون الآية بعدها (والتي هي بصدد تكذيبهم) ناظرة إليهم أيضاً، ولا دليل على نزول الآيات بعد نزوح بني النضير وخروجهم من المدينة، ولعلّ الآيتين نزلتا أيام الحصار الّذي دام خمساً وعشرين ليلة. السيرة النبوية لابن هشام: ٣ / ٢٤٦، دار إحياء التراث العربي.

نعم بالنظر إلى صدر السورة ـ أعني قوله:(هُوَ الذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ) ـ يبدو القول بنزول هذه الآيات بعد خروجهم وجلائهم من المدينة؛ لأنّ الآية تخبر عن خروجهم قبل نزول هذه الآيات، ومع ذلك لا يمكن الاعتماد على هذا، لاحتمال نزول الآيتين قبل نزول أوّل هذه السورة، والرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) أمر بوضعهما في مكانهما هذا من السورة.

وعلى كلّ تقدير فقد اشتملت الآية على أخبار غيبية ثلاثة.

والقرآن الكريم يشتمل على أخبار غيبية أُخرى من غير فرق بين خبر غيبي كوني حول السماء و الأرض أو في المجتمع، نظير قوله سبحانه: (غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ). الروم: ٢ ـ ٣.

وقد قمنا بجمع ما ورد من الأخبار الغيبية في الذكر الحكيم في موسوعتنا «مفاهيم القرآن».(انظر: مفاهيم القرآن: ٣٤٩/٣ـ ٣٩٤).

١٣. (لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ):

هل الضمير في قوله (صُدُورِهِمْ) يعود إلى الذين نافقوا أو يعود إلى الذين كفروا، أو يرجع إليهما معاً؟

وبعبارة أُخرى: هل يرجع إلى المنافقين أو إلى اليهود من بني النضير أو إلى الجميع؟ في ذلك وجوه، والمُختار في «التبيان» وغيره أنّه يعود إلى المنافقين.(التبيان في تفسير القرآن: ٩ / ٥٦٨).

وعلى كلّ تقدير، فالآية تعليل لقوله:(لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ)، وكأنّ سائلاً يسأل عن وجه فرار المنافقين أو عدم انتصار بني النضير، فأُجيب بأنّهم يخافون من المؤمنين ويرهبونهم أشدّ من خوفهم من الله سبحانه، ولذلك يقول: لأنتم ـ أيّها المسلمون ـ أشدّ رهبة وخوفاً في صدور هؤلاء من رهبة الله وخوفه، مع أنّ المفروض أن يكون العكس، إذ أين التراب من ربّ الأرباب؟! وأين قوة الإنسان من قوة الخالق وقدرته؟ وأمّا هذا الخوف والهلع من المسلمين فهو نابع من (أَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ) أي أنّهم لا يعرفون الله وقدرته وشدة عقابه، لغلبة الأفكار المادية على عقولهم، وهذا شأن كلّ جاهل بعظمة الله، فترى أنّ بعض العصاة يخافون الشرطة أكثر ممّا يخافون من الله سبحانه، استناداً إلى أنّ عقاب الأوّل عقاب عاجل، وعقاب الله عقاب آجل.

١٤. (لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قرى مُحَصَّنَة أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُر بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ):

تكشف هذه الآية الكريمة عن صفة راسخة لدى اليهود، وهي الجُبن والخوف من خوض القتال مع خصومهم وجهاً لوجه، والدليل على ذلك أمران:

١. (لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرى مُحَصَّنَة)، أي قرى ممنوعة ومحكمة.

٢. (أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُر)، وجدر جمع جدار.

وحاصل المعنى: أنّهم يخافونكم أشدّ الخوف بشهادة أنّهم لا يواجهونكم في ساحات القتال، بل يتحصّنون إمّا بقرى محصنة، أو بأسوار القرى.

فلو كانت عندهم شجاعة روحية وإرادة نضالية لخرجوا من القرى ومن وراء الجدر للدفاع عن دورهم وأفنيتهم بالقتال والحرب، ولكنّهم غلب عليهم الخوف والجبن، ولذلك يرمونكم بالنبل والحجارة من داخل القرى أو من وراء السور.

وهذه الصفة، صفة الجبن، الّتي لزمتهم، إنّماهي نتيجة طبيعية لتفكيرهم الماديّ، وحرصهم الشديد، وحبّهم الجمّ للدنيا، فهم يحرصون على البقاء في هذه الحياة، حتى وإن كانت حياة تافهة لا عزّة فيها ولا كرامة (وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاة) البقرة: ٩٦ ، وهم يكرهون الموت ويخشَون مواجهته بما قدّمت أيديهم من شرور وجرائم، وبما اكتسبت نفوسهم من معاص وآثام.

واليهود اليوم في حاضرهم، لا يختلفون عن يهود الأمس في ماضيهم، فكما أنّهم كانوا يستترون كالفئران في القلاع ووراء الجدر، تجدهم اليوم، في فلسطين المحتلّة، يقيمون (جدار الفصل العنصري) فيها، خوفاً من أن ترصدهم عيون المجاهدين والمناضلين، وفراراً من أن تنال منهم سواعدهم القوية. وهم يسعَون إلى حيازة أكثر الأسلحة تطوّراً في العالم لهذا الغرض، فيلوذون بدبّاباتهم الّتي أُثقل هيكلها الحديديّ المتين بأكوام أُخرى من الحديد!!! ويصبّون حُمم أحقادهم على الأبرياء العُزّل من طائراتهم الّتي تحلّق من دون طيّار، وترى أحدهم إذا ما أُصيب بجرح في أثناء المعركة، يصرخ باكياً، ويولول مذعوراً، وقد شاهد أبناء هذا الكوكب من خلال (القنوات الفضائية) صوراً من هذا المشهد الّذي حدث غير مرّة، لاسيّما أثناء تغطيتها لحرب تموز الّتي شنّها الكيان الصهيوني على رجال (حزب الله) في لبنان، وهُزم فيها الصهاينة شرّ هزيمة رغم تفوّقهم العسكريّ الهائل، والدعم الدولي لهم .

وهنا نكتة التفت إليها مؤلف التحرير والتنوير قال: إنّ عملهم هذا كناية عن مصيرهم إلى الهزيمة، إذ ما حورب قوم في عقر دارهم إلاّ وقد ذلّوا كما قال علي(رضي الله عنه). التحرير والتنوير:٢٨/٩٤.

نعم قاله علي(عليه السلام) في إحدى خطبه حيث يندد بالقاعدين عن القتال ويقول: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ ... إلى أن قال: أَلاَ وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هؤُلاَءِ الْقَوْمِ لَيْلا وَنَهَاراً، وَسِرّاً وَإِعْلاَناً، وَقُلْتُ لَكُمْ: اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَاللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلاَّ ذَلُّوا. فَتَوَاكَلْتُمْ وَ تَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الاَْوْطَانُ». نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.

ثمّ إنّه سبحانه يدعم ما ذكره حول هزيمة بني النضير بدليل آخر، وهو أنّهم وإن كانوا أقوياء في عددهم وعدتهم، ولكن الأهواء فرّقت بينهم فصارت (قُلُوبُهُمْ شَتَّى).

ولعل المراد أنّ بينهم إحَناً وعداوات، فلا يتعاضدون، فالآية بصدد تشجيع المسلمين على قتالهم والاستخفاف بجماعتهم، ومن ثمّ إلفات نظرهم إلى ضابطة جهادية وهي أنّ كثرة القوة والعدد لا توجب النصر، إلا إذا كانت الضمائر متّفقة، ولو تفرقت الآراء لم تنفع العدة والعدد.

ثمّ إنّه سبحانه ختم الآية بقوله:(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ)، ولكنّه أتمّ الآية السابقة بقوله: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ)، فما هو الوجه في انتخاب «لا يعقلون» على «لا يفقهون»؟ والجواب: أنّ الآية الأُولى تذكر أنّ خوف اليهود من المسلمين أشدّ من خوفهم من الله، وإنّما صاروا كذلك لأنّهم قوم لايفقهون حق الفهم بأنّ الأمر إلى الله تعالى، وليس لغيره من الأمر شيء سواء في ذلك المسلمون أو غيرهم، ولا يقوى غيره تعالى على القيام بعمل ما، خيراً كان أو شراً، نافعاً أو ضارّاً، إلاّ بحول منه وقوة، فلا ينبغي أن يُرهب إلاّ هو عزّ وجلّ.

وأمّا الآية التالية، فهي تتكلم في أمر اتّفق عليه العقلاء ، وهو أنّ التشتّت في الرأي يوجب الهزيمة وتفكّك القوى، فلو عقلوا لفهموا، ولكنّهم لا يعقلون.

سورة الحشر: الآيات ١٥ ـ ١٧ (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ... وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ):

الآيات: الخامسة عشرة إلى السابعة عشرة

(كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ):

المفردات

كَمَثَلِ: المثل في الذكر الحكيم، يراد به بيان الحال ووصف المقام، يقول سبحانه:(وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا). الفرقان: ٨. حيث وصفوا النبي، بكونه رجلاً مسحوراً. ويقول سبحانه في ردّه:(اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً) الفرقان:٩. ، أي انظر كيف وصفوك بأمر باطل، فضلّوا في وصفك مع أنّك رسول كريم، تنطق بالوحي.

وَبَالَ: الوبال: العاقبة السيئة، وهو مأخوذ من «الوابل» بمعنى المطر الغزير؛ لأنّه يكون مخيفاً وربما يكون ذا عاقبة مريرة، كجريان السيول الخطرة التي تخرّب المزارع، وتهدم الأبنية.

قريباً: قائم مقام الظرف، أي في مقام قريب.

التفسير

١٥. (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ):

قوله: (كَمَثَلِ الَّذِينَ) خبر لمبتدأ محذوف، أي حال هؤلاء اليهود الذين نصبوا العداء لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ).

ذكر سبحانه في هذه الآية مثلاً، وفي الآية التالية لها مثلاً آخر. وقد عرفت أنّ المثل في الذكر الحكيم ليس بالمعنى المصطلح بل بمعنى بيان الحال.

والمثل الأوّل يرجع إلى بيان حال بني النضير وأنّ مثلهم كحال من نصبوا العداء للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)قبلهم، ولكن خسروا في صفقتهم هذه وذاقوا وبال أمرهم، يعني الخزي في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة.

هذا هو معنى الآية، إنّما الكلام في بيان ما هو المشبّه به؟ هنا قولان:

١. أنّ المراد به طائفة بني قينقاع إحدى الطوائف الثلاث الذين سكنوا المدينة ونصبوا العداء للرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) فعمّهم الخزي وأُجلوا من المدينة إلى أذرعات. وبما أنّ قصة هؤلاء حدثت بعد غزوة بدر عبّر عنهم بـ : (الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)؛ لأنّ الفاصل الزماني لم يكن بكثير، فحال بني النضير كحال بني قينقاع، اغترّوا بعُدتهم وعددهم، فلم تنفعهم أمام إرادة الله سبحانه في خذلان من نصب العداء للحق والحقيقة.

٢. أنّ المراد من المشبَّه به، الذي أُشير إليه بقوله:(الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) هم مشركو مكة وكفّار قريش، الذين خاضوا القتال ضد المسلمين في معركة (بدر)، مغترّين بماعندهم من القدرات، فلم تنفعهم وذاقوا مرارة الهزيمة في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة.

والقول الأوّل هو الأقرب إلى الذهن لوجود مشتركات بين القبيلتين، مثل كونهما على ملة واحدة، وذاتا مصير واحد، حيث شُرِّدتا من المدينة وأُخرجتا منها ذليلتين.

وأمّا مشركو مكة فلم يُشرَّدوا من ديارهم، وإنّما قُتل منهم من قُتل وسُبي منهم من سُبي، فالمشتركات المسوّغة للتشبيه في القول الأوّل أكثر وأظهر.

١٦. (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ):

كان التمثيل الأوّل لبيان حال بني النضير وأنّ مثلهم كمثل طائفة (بني قينقاع)عادوا النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)فكان الخذلان مصيرهم، وأمّا هذه الآية فبصدد تمثيل حال المنافقين بالنسبة إلى بني النضير، وأنّ مثلهم بالنسبة إليهم كمثل الشيطان، الّذي يُغري الإنسان بالكفر، فإذا كفر تبرّأ منه قائلاً (إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ).

فهنا مقامان:

الأوّل: بيان أنّ المنافقين بالنسبة إلى بني النضير كمثل الشيطان بالنسبة إلى الإنسان، حين يغريه بالكفر، والوجه واضح، وذلك أنّ المنافقين أغرَوا بني النضير بالتمنّع من محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وشجّعوهم على الثبات في موقفهم المتعنّت منه، ووعدوهم بمؤازرتهم في كلا الحالتين: الجلاء، أو القتال، فلمّا استبدّ بهم الخوف، وتزلزلت نفوسهم، وانهارت مقاومتهم، اختفى المنافقون، وخمد صوتهم، ونسَوا وعودهم، فتركوهم في ساحة الخزي دون أن يرشقوا لصالحهم بسهم أو يضربوا بسيف، فصاروا كالشيطان الّذي يحرّض الإنسان على المخالفة والعصيان، ويعده بالعون والحماية، ولكنّه لا يفي به عند الحاجة، كما سيأتي شرحه في المقام الثاني.

الثاني: بيان حال الشيطان مع الإنسان الذي صار موضع التشبيه، فهنا وجوه:

١. أنّ المراد من الإنسان مطلقه دون إنسان خاص، وكأنّ الشيطان يسعى بأحابيله وبوعوده الكاذبة لإضلال الإنسان، وسَوقه إلى الشرك والطغيان، فإذا وقع الإنسان في شِباك ضلاله، وكُتب عليه دخول النار، يتبرأ منه ويقول:(إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ).

٢. المقصود من الإنسان هو الإنسان الخاص، كأبي جهل وأتباعه، حيث إنّ الشيطان غرّهم في غزوة بدر بوعوده الكاذبة فاغتروا بإضلالاته، فلمّا انهزموا نكص على عقبيه وتبرّأ منهم، وهذا ما يرويه بعض المفسّرون في تفسير قوله سبحانه: (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ). الأنفال:٤٨.

فقد روي أنّ قريشاً لمّا أجمعت المسير ـ إلى بدر ـ ذكروا الذي بينها وبين بني بكر بن عبد مناف ابن كنانة من الحرب وكاد ذلك أن يثنيهم، فجاء إبليس في جند من الشيطان فتبدّى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جشعم الكناني ثم المدلجي وكان من أشراف كنانة، فقال لهم: لا غالب لكم اليوم من الناس وإنّي جار لكم، أي مجير لكم من كنانة، كما قال الشاعر:

يا ظالمي أنّى تروم ظلامتي *** والله من كل الحوادث جاري

فلمّا رأى إبليس الملائكة نزلوا من السماء وعلم أنّه لا طاقة لهم بهم نكص على عقبيه، وقيل: إنّه لما التقوا كان إبليس في صفّ المشركين (بصورة سراقة) آخذاً بيد الحارث بن هشام فنكص على عقبيه، فقال له الحارث: يا سراقة أين؟ أتخذلنا على هذه الحالة؟ فقال له: إنّي أرى ما لا ترون، فقال: والله ما نرى إلاّ جعاسيس جعس: تغوط، تجعس: تقذّر، كناية عن الفحش في الكلام. يثرب فدفع في صدر الحارث وانطلق وانهزم الناس، فلمّا قدموا مكة قالوا: هزم الناسَ سراقةُ، فبلغ ذلك سراقة فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم، فقالوا: إنّك أتيتنا يوم كذا، فحلف لهم، فلمّا أسلموا علموا أنّ ذلك كان الشيطان. مجمع البيان:٣ـ٤/٨٤٤.

وروى ابن هشام في سيرته أنّه: لمّا أجمعت قريش المسير ذكرت الذي كان بينها و بين بني بكر(من كنانة)، فكان ذلك يثنيهم، فتبدّى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جشعم المدلجي، وكان من أشراف بني كنانة، فقال لهم:أنا جارٌ لكم من أن تأتيكم كنانةُ من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعاً. السيرة النبوية:١/٦١٢.

٣. إنّ الآية تشير إلى قصة راهب من بني إسرائيل، فقد أخرج ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن عبيد بن رفاعة الدارمي يبلغ به النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: كان راهب في بني إسرائيل، فأخذ الشيطان جارية

فخنقها فألقى في قلوب أهلها أنّ دواءها عند الراهب، فأُتي بها الراهب، فأبى أن يقبلها، فلم يزالوا به حتى قبلها، فكانت عنده، فأتاه الشيطان فوسوس له وزيّن له، فلم يزل به حتى وقع عليها، فلمّا حملت وسوس له الشيطان فقال: الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها، فإن أتوك، فقل: ماتت، فقتلها ودفنها، فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم، وألقى في قلوبهم أنّه أحبلها ثم قتلها، فأتاه أهلها فسألوه فقال: ماتت، فأخذوه فأتاه الشيطان فقال: أنا الذي ألقيت في قلوب أهلها، وأنا الذي أوقعتك في هذا، فأطعني تنجُ، واسجد لي سجدتين فسجد له سجدتين فهو الذي قال الله فيه: (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ) (الدر المنثور: ٨/ ١١٨؛ شُعب الإيمان: ٤ / ٣٧٢ برقم ٥٤٤٩، ورواه مختصراً (برقم ٥٤٥٠) بإسناده عن حميد بن عبدالله السلولي، عن علي بن أبي طالب(عليه السلام) ..

ولكن الأنسب بين هذه الوجوه الثلاثة هو الوجه الأوّل، حيث إنّه هو الضابطة الكلّية بين العدو المخادع والإنسان المخدوع. وأمّا الموردين الثاني والثالث ـ أعني: تمثُّل الشيطان في غزوة بدر، أو تمثُّل الشيطان في قصة الراهب ـ فهما من مصاديق الضابطة التي أشرنا إليها .

ثمّ إنّ خوف المنافقين من الله سبحانه خوف من نزول العذاب في الدنيا، لأنّهم كانوا معتقدين بالله دون الآخرة.

وأمّا خوف الشيطان فلا شك أنّه يعتقد بالله واليوم الآخر، فخوفه يشمل كلا الموطنين، إلاّ أنّ هواه واستكباره يغلب على اعتقاده.

١٧. (فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ):

الظاهر أنّ الضمير يرجع إلى الشيطان والإنسان المخدوع الذي وقع في شباكه، ويعود حسب الملاك إلى المنافقين وبني النضير أيضاً، فإنّ الجميع ينتظمون في سلك واحد؛ وذلك لأنّ مصير الشيطان الغَرور والإنسان المغترّ بأمانيّه، مصير واحد، وكذا مصير المنافق والكافر ، وهو الخلود في النار في الآخرة جزاءً لظلمهم.

فقوله: «الظالمين» كأنّه تعليل لخلودهم في النار، حيث إنّ الجميع اشتركوا في إضلال أنفسهم وغيرهم.

الآيات ١٨ ـ ٢٠ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ....صْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ):

الآيات: الثامنة عشرة إلى العشرين

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَد وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ):

التفسير

١٨. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَد وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ):

الآية تتضمن أُموراً ثلاثاً:

١. الأمر بالتقوى مرتين .

٢. والأمر بالنظر إلى ما يقدّمه لغد .

٣. وعلمه سبحانه بما يعمل الإنسان. وإليك شرح هذه المضامين الثلاثة:

أمّا الأمر الأوّل ـ أعني: قوله: (اتَّقُوا اللهَ)ـ فيظهر وجهه بما يلي:

وقد مرّ بيان مصير بني النضير وأنّهم لأجل نصب العداء لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) كتب عليهم الخذلان، فتركوا مزارعهم وبساتينهم في يد المسلمين، ودفع شرّهم بإيجاد الرعب في قلوبهم من دون أن يشارك المسلمون في قتالهم، إلى غير ذلك من النعم التي غمرتهم، جاء الأمر بالتقوى ـ الذي هو الورع عن محارم الله ـ شكراً لما منحوا من النعم الطائلة. وهنا وجه آخر للأمر بالتقوى، هو تنبيه المؤمنين على أنْ لا يأمنوا من شر الشيطان فإنّه لم يزل ولا يزال يسعى لإضلال الناس بأنواع الحيل، كما

أضلّ الآخرين، فليأخذوا من التقوى وقاية في مقابل شروره.

ثم إن أكثر المفسرين فسّروا التقوى بالاجتناب عن المعاصي أو عن مخالفة الله، والظاهر أنّه تفسير باللازم فإن التقوى مأخوذة من «وقيَ، وقاية» والوقاية عبارة عن اتخاذ شيء يتقي به الإنسان عن الشر كالدرع في الحروب، والبرنس للرأس، وعلى هذا فالتقوى عبارة عن تجهيز النفس بصيانة خاصّة لا يغلب عليه الهوى، ولا تملكه الأطماع الدنيوية والغرائز الحيوانية، بل هو الذي يملكها ومثل هذا يكون أمراً وجودياً قائماً بالنفس ولا يحصل إلاّ بالتمارين.

وأمّا الأمر الثاني، وهو قوله :(وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) فيعني أن لا ينسى الإنسان حياته الأُخروية، فكما أنّه يحتاج في هذه الدنيا إلى ما يعيش به، فهكذا يحتاج في آخرته إلى ما يريحه فيها، وما ذلك إلاّ الأعمال الصالحة التي يقوم بها في الدنيا، وهي ذخيرته ليوم معاده.

وأتى بالنكرة في قوله: «نفس» للاستغراق من غير فرق بين نفس ونفس. وأشار بكلمة «قدّمت» لبيان أنّ ما يقوم به من الأعمال الصالحة، كأنّه يقدّمها ويرسلها إلى دار الآخرة. وأتى بكلمة (لغد) إمّا لأنّه كناية عن المستقبل وإن كان بعيداً، أو لقربها عند الله دون غيره لقوله:(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا) المعارج:٦ـ٧؛ ثم أمر بالتقوى ثانياً وقال: (واتقوا الله)، وهذا إمّا للتأكيد كقوله تعالى: (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى). القيامة: ٣٤ـ ٣٥. ويحتمل أيضاً أن يراد من الأمر الثاني الدوام على التقوى والاستمرار عليها.

ومن عجيب الأمر أنّ الإنسان قبل أن يموت قدّم شيئاً لحياته الأُخروية، وهذا هو الذي يحكي عنه قوله: (مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)فلو أعطى فقيراً ديناراً أو دنانير فهو في نفس ذلك اليوم قدّم ذخيرة لحياته الآخروية وربّما يلحق به بعد موته عبر قرون لايعلم وقت بلوغه إلاّ الله سبحانه.

وأمّا الأمر الثالث: وهو قوله سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) فيعني أنّه خبير بمقدار اجتهاداتكم في تحصيل التقوى والاستمرار عليها...

وأخيراً : الآية تأمر بمحاسبة النفس حتى تقدّم لحياتها الأُخروية ما تعيش به.

١٩. (وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ):

الآية السابقة تأمر بمحاسبة النفس والتفكير في مستقبل أمرها، وهذه الآية تأمر بالمراقبة حتى لا يغفلوا عن أنفسهم وينسَونها بترك أسباب فلاحها، ونجاتها من الهلاك، لأجل نسيان الله سبحانه، فنسيان الخالق البارئ المميت، الباعث يوم القيامة، يلازم نسيان النفس والغفلة عنها ، وذلك لوجوه:

١. أنّ نسيانه تعالى بمعنى نسيان أسمائه الحسنى وصفاته العليا التي بها ترتبط صفات الإنسان الذاتية من الذلة والفقر والحاجة، فيتوهّم الإنسان نفسه مستقلة في الوجود، ويُخيّل إليه أنّ لنفسه حياة وقدرة وعلماً وسائر ما يتراءى له من الكمال، وعند ذلك يعتمد على نفسه، مع أنّه كان عليه أن يعتمد على ربّه؛ ويرجو ويخاف الأسباب الظاهرية، مع أنّه كان عليه أن يرجو ربّه ويخافه؛ ويطمئنّ إلى غير ربّه مع أنّه كان عليه أن يطمئنّ إلى ربّه.

وبعبارة أُخرى: ينسى ربه، والرجوع إليه، ويُعرض عنه بالإقبال على غيره، وبالتالي ينسى نفسه فإنّ الذي يخيل إليه من نفسه أنّه موجود مستقل الوجود، ليس هذا واقع الإنسان بل واقعه شيء آخر، إذ هو موجود متعلّق الوجود، جهلٌ كلّه، ذلٌّ كلّه، فقرٌ كلّه، وهكذا. وماله من الكمال كالوجود والعلم والقدرة والعزة والغنى فإنّما هو لربه، وإلى ربه انتهاؤه. انظر: الميزان في تفسير القرآن: ٢١٩/١٨ـ ٢٢٠.

٢. أنّ معرفة الله تبارك وتعالى أمر فطري جُبلت عليه فطرة الإنسان وخلقته، والشاهد على ذلك أنّ علم النفس قد أثبت أنّ

للنفس الإنسانية غرائز وأحساسيس أربع:

أ. غريزة حُبّ الاستطلاع، وهذه الغريزة تدفع الإنسان إلى اكتشاف المجهولات، وفكّ الرموز، وفي ظلها توسّعت المعارف وتطوّرت العلوم وتقدّمت، ولولاها لتوقّف تطوّر الحياة البشرية.

ب. غريزة حُبّ الخير، وهي منشأ ظهور الأخلاق، وهي التي تدفع الإنسان إلى إقامة العدل ومكافحة الظلم، ولذلك يجد الإنسان من صميم ذاته الميل إلى الأخلاق النبيلة والسجايا الحميدة.

ج. غريزة حبّ الجمال، وهي منشأ الفنون الجميلة قديماً وحديثاً، وسبب ظهور الأعمال السنيّة المختلفة.

د. غريزة التديّن أو الشعور الديني، وهي البعد الرابع في النفس الإنسانية وتعني أنّ كلّ فرد من أبناء الإنسان يميل بشكل فطري إلى الله سبحانه والاعتقاد به، وينجذب عفوياً إلى معرفة ماوراء الطبيعة والقوة الحاكمة على هذا الكون، وقد أوجد اكتشاف هذا الشعور حركة عظيمة في الأوساط العلمية وفي الوقت نفسه قد حطّ كثيراً من غرور الماديين في القرن الغابر.

ولقد أشار الذكر الحكيم إلى هذا البعد قبل أربعة عشر قرناً، وقال: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ). الروم:٣٠.

فإذا كانت معرفة الله هي فطرة الإنسان، فالغفلة عن الله غفلة عن النفس وما فيها، فيكون نسيان الله بمنزلة نسيان النفس.

وبذلك يُعلم أنّ ما يجترّه الماركسيون من أن تعلّق الإنسان بالله تبارك وتعالى وعبادته، تعلّق بالغير وخروج عن التعلّق بالذات، فلابد أن يتعلّق الإنسان بنفسه ويخرج كلّ تعلّق بغيره حتى الله والأموال، أمر باطل، فإذا كان التوجّه إلى الله وماوراء الطبيعة أحد الأبعاد الأربعة والغرائز الموجودة في صميم الإنسان، فالتعلّق بالله ليس خروجاً عمّا تقتضيه النفس، بل إجابة لبعض متطلبات الفطرة، وتكون الغفلة عنه خروجاً عن التعلّقات الذاتية والغرائز الدفينة.

٣. إنّ نسيان الله يؤدي إلى انغماس الإنسان في اللذات المادية والشهوات الحيوانية، من جهة، ومن جهة أُخرى ينسى خالقه، وخالقه يغفل عن إدخار ما يحتاجه في الحياة الأُخروية . الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل :١٨/١٩٩.

هذه وجوه ثلاثة يمكن أن يُحمل عليها قوله سبحانه: (نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ).

ثم إنّ المراد بالموصول في قوله: (وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ) هو المنافقون، وإن كان يحتمل أن يكون المراد بني النضير، ويشهد على الوجه الأوّل قوله تعالى: (نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ). التوبة:٦٧.

نعم يوجد فرق بين الآيتين، ففي هذه السورة جعل نسيان الله سبباً لنسيانهم أنفسهم، وفي سورة التوبة جعل نسيان الله سبباً لنسيان الله إياهم، ومن المعلوم أنّ المراد من نسيان الله لهم هو عدم شمول رحمته لهم وهدايته، فصاروا من مصاديق قوله سبحانه: (خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ). البقرة:٧.

بقي الكلام في قوله: (فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) فقد نسب الذكر الحكيم نسيانهم أنفسهم إليه سبحانه، وما هذا إلاّ أنّ نسيان النفس. متفرّع على إنساء الله تفرع المسبّب على سببه، والمعلول على علّته. وجه عدم استلزامه الجبر: أنّ العبد نسي الله عن اختيار، فأعقب ذلك مؤاخذة الله، وهو إنساء الله أنفسهم، ولو أنّ العبد لم يقم بنسيان ربّه، لم يُنسهم الله أنفسهم، فلو عوقب العبد بفعل الله، فلأجل تقصير العبد وتفريطه، نظير قوله سبحانه: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) الصف:٥، فكأنّ فعله سبحانه جزاء لعملهم وفعلهم، وبذلك يُعلم أنّ قوله سبحانه:(فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) لا يستشم منه القول بالجبر؛ وذلك لأنّ الفاعل المختار إذا أوجد العلّة يترتّب عليه معلوله.

وختمت الآية بقوله: (أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) وقد وصفتهم بصورة حصر وقصر ادّعائي غير حقيقي، كأنّه ليس في الساحة فاسق

غيرهم، والفسق هو الخروج عن الطاعة بالأعمال السيئة والعقائد الباطلة.

٢٠. (لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ):

إنّ الله سبحانه يستعرض في هذه الآية طائفتين:

الأُولى: الطائفة المؤمنة المطيعة لله، المعتقدة بالبعث والحياة الأُخروية، المقدّمة لها ما يريحها فيها.

الثانية: الطائفة الكافرة الغافلة عن الحياة الأُخروية الواردة إليها بلا زاد ولا ذخيرة. ومن المعلوم أنّ الطائفة الأُولى هم الفائزون، والثانية هم الخاسرون، ولا يستوي الخاسر مع الفائز؛ لأنّ أصحاب الجنة لا يتساوون مع أصحاب النار في الدنيا والآخرة.

وقد تكرّر نفي الاستواء بين الطائفتين في القرآن كثيراً، قال سبحانه: (هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَ النُّورُ) . الرعد:١٦.

وقال سبحانه:(وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ). فصلت:٣٤.

وقال سبحانه:(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ). الزمر:٩.

إلى غير ذلك من الآيات النافية للاستواء بين طائفتين، تفقد إحداهما الكمال تماماً، وفي الوقت نفسه تجده الأُخرى كذلك.

وكأنّ هذه الآية تشير إلى نتيجة ما تقدّمها من آيات، وأنّ المسلمين هم الفائزون والمنافقين وبني النضير وكلّ من هو في خطّهم هم الخاسرون.

ثمّ إنّ هنا سؤالاً، وهو: ما هو السرّ في طرح هذه القضايا الواضحة الّتي لا تخفى على ذي لبّ، فإنّ الناس قاطبة يذعنون بعدم استواء الأعمى والبصير والظلمات والنور، والعالم والجاهل، وهكذا ما في المقام من عدم استواء من في النار ومن في جنة النعيم؟

والجواب: أنّ هذه قضايا واضحة ولكن تستنبط منها قضايا نظرية هي المقصودة واقعاً، وهي نفي الاستواء بين الكافر والمؤمن على وجه الإطلاق، ويبين ذلك ضمن تمثيلات.

توضيحه: أنّ الكافر كالأعمى عند الله، والمؤمن كالبصير، فالكافر لأجل خلوده إلى الأرض وعدم تجاوزه الماديات، لا يؤمن بما وراء الطبيعة كعالم البرزخ والقيامة، فصار مثله مثل الأعمى لايذعن إلاّ بما تلمسه يداه، أو تسمعه أُذنه، وأمّا المؤمن فمثله كمثل البصير يذعن بما لا يذعن به الأعمى.

ومنه يظهر حال نفي الاستواء بين النور والظلمة، فالإيمان نور يهدي به الله الإنسان إلى مدارج السعادة، والكفر ظلمة لا يهتدي بها إلى شيء، فإذا قال سبحانه: (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) فإنّه يريد العالمين بما وراء هذا العالم من نظام كامل يدبّره، كما يريد ممّن لا يعلمون كلّ جاهل بذلك.

وأمّا المقام ـ أعني: نفي الاستواء بين أصحاب النار وأصحاب الجنّة ـ فهو إلماع إلى أنّ الكفرة كاليهود والمنافقين هم من أصحاب النار، وأنّ المؤمنين من أصحاب الجنة، فعلى طالب الكمال أن ينضمّ إلى أصحاب الجنة وينفر من أصحاب النار، فإنّ الفوز والسعادة هي من نصيب الفئة الأُولى لا الثانية.

روى الشيخ الطوسي في أماليه بإسناده إلى محدوج بن زيد الذهلي وكان في وفد قومه أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) تلا هذه الآية: (لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ)قال: فقلنا: يا رسول الله من أصحاب الجنة؟ قال: «من أطاعني وسلّم لهذا من بعدي». قال: وأخذ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)بكف عليّ(عليه السلام)وهو يومئذ إلى جنبه فرفعها، وقال: «ألا إنّ علياً منّي وأنا منه، فمن حادّه فقد حادّني، ومن حادّني فقد أسخط الله عز وجل»... الأمالي: ٤٨٥ ـ ٤٨٦، المجلس السابع عشر، الحديث ١٠٦٣ / ٣٢ .

وغير خفيّ أنّ هذه الرواية من باب تطبيق الضابطة الكلّية على أحد مصاديقها.

الآية ٢١ (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ...لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

الآية الحادية والعشرون:

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

المفردات

الخشوع: الخضوع ، وأكثر ما يستعمل فيما يوجد على الجوارح، على عكس الضراعة، فإنّ أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب، وقد روي: إذا ضرع القلب خشعت الجوارح.

التصدّع: التفرّق بعد التلاؤم.

الخشية : الخوف، قال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) المؤمنون: ٥٧ ..

وعن المحقّق الطوسي: الفرق بين الخوف والخشية، الخوف: تألُّم النفس من العقاب المتوقع من ارتكاب المنهيّات، والخشية، حالة تحصل عند الشعور بعظمة الحق، وهذه حال لا تحصل إلاّ لمن اطّلع على حال الكبرياء، وذاق لذة القرب، قال سبحانه: (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فاطر: ٢٨ ، فالخشية خوف خاص، والخوف المطلق يحصل لأكثر الناس. مجمع البحرين، مادة «خشى» .

المَثَل: قد مرّ منّا أنّ المثل في القرآن الكريم لا يراد به المعنى المصطلح الذي هو قسم من الحِكَم يرد في واقعة لمناسبة اقتضت وروده فيها، ثم يتداوله الناس في غير واحدة من الوقائع التي تشابهها دون أدنى تغيير لما فيه من وجازة ودقة في التصوير، ولذلك يقول الشاعر:

ما أنت إلاّ مثل سائرُ *** يعرفه الجاهل والخابرُ

وأمّا المثل الوارد في القرآن الكريم فالمراد به توصيف الحال، وتشبيه شيء بشيء.

وإن شئت قلت: هو عبارة عن التمثيل القياسي الذي تعرّض له علماء البلاغة في علم البيان، وهو قائم بالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز.

التفسير

٢١. (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ):

إنّ للمفسرين في تفسير الآية قولين:

الأوّل: إنّ الكلام قد ورد على مجرد فرض دلّت عليه كلمة «لو»، والغرض منه بيان عظمة القرآن، وأنّ له من قوة التأثير ما لو أُنزل على جبل لخشع.

وبعبارة أُخرى: لو كان له فهم وشعور بالنسبة لما ورد فيه من المعارف والحِكم، لتصدّع مع عظمته وصلابته وتماسكه، فما بال قلب هذا الإنسان الضعيف لا يتأثر به؟ فقلبه في الواقع أقسى من الجبل وأشدّ تماسكاً منه. انظر: التفسير الكاشف: ٧ / ٢٩٤ .

وعلى هذا لو أُنزل هذا القرآن على جبل ـ لو كان يتمتع بشعور وإدراك ـ لتصدّع وتأثّر من خشية الله، مع ما له من الغلظة والقسوة، وكبر الجسم وقوة المقاومة. فالإنسان الشاعر العارف أَولى بأن يخشع إذا تليت عليه آيات الله.

ويظهر من السيد الرضي أنّه اختار هذا القول، حيث قال بعد نقل الآية:

«هذا القول على سبيل المجاز، والمعنى أنّ الجبل لو كان ممّا يعي القرآن ويعرف البيان، لخشعَ لسماعه، ولتصدّع من عظم شأنه، على غلظ أجرامه وخشونة أكتافه، فالإنسان أحقّ بذلك منه إذ كان واعياً لقوارعه وعالماً بصوادعه». تلخيص البيان: ٢٨٥.

الثاني: إنّ الآية تحكي عن حقيقة كونية، وهي أنّ كلّ ذي وجود له حظّ من الشعور والمعرفة حسب درجة وجوده وحسب قربه من الكمال، فعلى هذا فالجبل له شعور بعظمة الله حسب ما أُعطي من الوجود بشهادة أنّ الأحجار تهبط من خشية الله، قال سبحانه:(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَ إِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَ إِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَ إِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَ مَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).(البقرة:٧٤.)

فعلى هذا، فالآية تهدف إلى بيان أنّه لو أنزل هذا القرآن وخوطب به الجبل حسب ما أُعطي من الشعور، لتأثّر به وتصدّع بسببه، فما بال هذا الإنسان لا يتأثر بخطابات القرآن وعتاباته؟

قوله:(وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

«ضرب المثل» يراد من الضرب هنا: سَوْقُه، كأنّه يقول: نحن نسوق هذا المثل والغاية من سوقه التعريف بالقرآن لعلّ الناس يتفكّرون فيه.

ويحتمل أن يكون ضرب المثل بمعنى وصف الشيء، كما في قوله سبحانه: (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا * اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً) الإسراء:٤٧ـ ٤٨.، أي انظر كيف وصفوك.

وربّما يستعمل الضرب ويراد به الوضع،يقال: ضرب بيتاً، أي وضعها وبناها، ولكن الظاهر هو المعنيان الأوّلان، ولعلّ الثاني أظهر.

سورة الحشر: الآيات ٢٢ ـ ٢٤ (هُوَ اللهُ الذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ.... وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ):

الآيات: الثانية والعشرون إلى الرابعة والعشرين:

٢٢ ـ ٢٤. (هُوَ اللهُ الذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيم * هُوَ اللهُ الذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّموَاتِ وَ الأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ):

التفسير

بما أنّ الآيات الثلاث الأخيرة بصدد بيان أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وما بينها من صلة وثيقة، فقد اقتضى هذا تفسيرها مجتمعة غير متفرّقة.

وقبل الخوض في تفسير ما ورد فيها من الأسماء والصفات، نشير إلى أُمور:

الأوّل: إنّ الآيات الثلاث اشتملت على ثمانية عشر اسماً أو صفة.

ففي الآية الأُولى:

١. لا إله إلاّ هو، مشيراً إلى توحيده ذاتاً وصفاتاً.

٢. عالم الغيب والشهادة.

٣. الرحمن.

٤. الرحيم.

وفي الآية الثانية:

٥. المَلك.

٦. القدّوس.

٧. السلام.

٨. المؤمن.

٩. المهيمن.

١٠. العزيز.

١١. الجبار.

١٢. المتكبّر.

وفي الآية الثالثة:

١٣. الخالق.

١٤. البارئ.

١٥. المصوّر.

١٦. له الأسماء الحسنى.

١٧. المسبح في السماوات والأرض.

١٨. الحكيم.

وقد تكرّر «العزيز» فيها أيضاً.

الثاني: أنّه سبحانه سرد هذه الأسماء والصفات على نظام خاص.

ففي الآية الأُولى: تكلّم عن أعمّ أسمائه ذاتاً وصفاتاً، أعني: التوحيد والعلم والرحمة.

وفي الآية الثانية: تكلّم عن خالقيته وحاكميته (الملك) وما له من الشؤون،فذكر: الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبّر.

وفي الآية الثالثة: تكلّم عن خالقيته وما يتبعه من تصوير الإنسان في الأرحام، وكونها على وجه العزّة والحكمة، ولذا ذكر: الخالق، البارئ، المصوّر، العزيز، الحكيم.

الثالث: أنّ ما جاء في هذه الآيات الثلاث هو من أظهر صفاته وأسمائه ولكن له أسماء وصفات أُخرى، أشار إليها سبحانه في الآية الأخيرة بقوله: (لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) مشيراً إلى عدم انحصارها فيما ذُكر.

الرابع: أنّ هذه الآيات الثلاث نزلت في السنة الثالثة أو الرابعة من الهجرة في بيئة غارقة في الجهل والضلالة، ولم يكن لهم علم بالمعارف العليا، وبالأخصّ ما يرجع إلى معرفة أسمائه وصفاته، ففي هذه الظروف بزغت شمس الهداية إلى معرفة الله سبحانه بهذه الأسماء والصفات الباهرة التي تنزّهه بصورة ليس فوقها شيء. ففيها التنزيه عن التجسيم والتشبيه والتوحيد في الأُلوهية، وسعة علمه بالغيب والشهادة، والإشارة إلى كمال فعله وجماله.

فالنبي الأُمّيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يدرس عند أحد ولم يمارس الكتابة، وعاش بين ظهراني قوم وثنيين، فمن أين له ـ إن لم يكن يوحى إليه ـ بهذه المفاهيم السامية التي لا يدركها إلاّ الأوحدي من أساتذة الكلام والفلسفة، وفي الوقت نفسه تغذّي عامة النفوس وإن لم يكن لهم حظ في المسائل العقلية، وهذا ـ أيضاً ـ وجه من وجوه إعجاز الكتاب العزيز.

الخامس: عرّف سبحانه نفسه بهذه الصفات، لأجل بيان أنّ ما وقع من إذلال بني النضير وإخراجهم من قلاعهم لم يقع إلاّ بإذن من له العظمة والكبرياء، ولذلك هدمت قلاعهم وصودرت بساتينهم في يوم واحد وسلّط عليها المسلمون، كلّ ذلك بقدرة من الله

سبحانه.

وبعد بيان هذه الأُمور التمهيدية الخمسة نعود إلى تفسير الآيات الثلاث، فنقول: أمّا قوله تعالى: (هُوَ اللهُ الذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) من الآية الثانية والعشرين فالضمير في صدر الفقرة ـ أعني: «هو» ـ ضمير الشأن يؤتى به لإلفات المخاطب إلى ما يأتي بعده، كما هو الحال في قوله: (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ)، وربّما يحتمل أنّ الضمير يرجع إلى لفظ الجلالة الوارد في الآيات المتقدّمة التحرير والتنوير:١٠٥/٢٨، وهو بعيد جدّاً لاستلزامه وحدة المبتدأ والخبر؛ لأنّ خبر الضمير هو الله الموصوف بـ«لا إله إلاّ الله» فالأَولى ما ذكرنا، ثم إنّ قوله: (لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ)إشارة إلى وحدانيته وأنّه لا إلٰه (واجب الوجود، خالق الكون، أو ما يمكن أن يُفسَّر به) إلاّ هو. وفي الآية دلالة واضحة على «الإله» ليس بمعنى المعبود، لأنّها ليست بصدد توحيد العبودية، بل بصدد توحيد الذات، وأنّه لا مثل له ولا ضد ولا ندّ، وأنّه بذاته واحد لا كثير.

وفيها تأييد لما قلنا من أنّ الإله كلّي، ولفظ الجلالة إشارة إلى مصداق منه، وليس بمعنى المعبود.

قوله: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) لعلّ المراد من الغيب ما لا يُدرك بالحواس بخلاف الشهادة، وعلى ذلك فالمجرّدات، وهكذا العوالم الموجودة بعد الموت قبل البعث كلّها غيب، فالغائب عن إحساس الناس ومشاهداتهم وما حضر عندهم عند الله سواء، ولعل فيه ردّ لما يُروى عن الإغريقيين بأنّه سبحانه عالم بالكلّيات دون الجزئيات، وهو باطل، إذ كيف يكون خالقاً، ولا يكون عالماً. وليس علمه سبحانه إلاّ حضور المخلوق عنده، بوجوده العيني لا بصورته، على خلاف علوم البشر، لأنّ علمنا بالأشياء ـ غير النفس والصور القائمة بها ـ حصولي، بمعنى حضور صورة الشيء الخارجي في النفس، لا بعينه.

وفي كلام الإمام علي(عليه السلام) إلماع إلى سعة علمه سبحانه، قال: «وَلاَ يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ وَلاَ نُجُومِ السَّمَاءِ، وَلاَ سَوَافِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ، وَلاَ دَبِيبُ الَّنمْلِ عَلَى الصَّفَا، وَلاَ مَقِيلُ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ. يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الاْوْرَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ الاْحْدَاقِ». نهج البلاغة: الخطبة١٧٨.

ثمّ إنّ تخصيص عالم الغيب والشهادة بصورة الحصر، لا ينافي علم الإنسان بالشهادة وعلم أنبيائه وأوليائه بالغيب؛ وذلك لأنّ علمه سبحانه بهما ذاتي لا اكتسابي وليس له حدّ، بخلاف علم غيره بالشهادة وعلم أنبيائه وأوليائه بالغيب، فإنّ علمهم زائد على ذواتهم ومكتسب من الله سبحانه، وفي الوقت نفسه محدود متناه.

وبما أنّ المسألة محررة في موضعها نكتفي في توضيح ما ذكر بما يلي:

إنّ العلم بالغيب على ضربين:

أحدهما: ما هو مختص بالله سبحانه لا يشاركه فيه غيره، ولا يتجاوز إلى سواه، وأنّ ما جاء في الذكر الحكيم من الإشارة إلى علم الغيب، لا يراد منه إلاّ هذا، فقوله سبحانه: (قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاّ اللهُ) النمل: ٦٥ . لا يراد منه إلاّ هذا المعنى المختصّ به تعالى كسائر أوصافه ونعوته.

ثانيهما: ما يوصف به غيره سبحانه من ملائكته ورسله ومن يظهره على غيبه، وهذا لا يصح إطلاقه على الله سبحانه، وهذا الانقسام كما يجري في علم الغيب كذلك يجري في سائر نعوته وصفاته من قدرته وحياته و ... فما يجري منها على الواجب سبحانه لا يمكن تشريك الغير فيه، ولا يصح إطلاقه عليه، وما يجري على من سواه لا يصح إطلاقه عليه سبحانه، ولا يطلق إلاّ على غيره من المخلوقين .

هذا وقد ورد في غير واحد من الآيات والروايات إخبار الأنبياء عن الغيب بتعليم من الله سبحانه .

وهذا هو نوح يخبر عن مستقبل قومه وأولادهم ويقول: (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ

يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا) نوح: ٢٦ ـ ٢٧ ..

أو ليس هذا إخباراً عن عواقب حياتهم.

وهذا هو صالح يخبر عن عواقب قومه وأنّ العذاب سيعمّهم بعد ثلاثة أيّام ويقول: (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّام ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوب) هود: ٦٥ ..

وقد أخبر يعقوب عن المغيّبات عن مستقبل ولده يوسف يقول سبحانه:

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِابِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ القَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِـلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَ كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) يوسف : ٤ـ ٦..

كما يخبر يوسف عن الغيب في الآيات التالية:

(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المُحْسِنِينَ * ... يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَان) يوسف: ٣٦ ـ ٤١..

وأمّا الروايات، فقد تنبّأ النبي والوصي وسائر الأوصياء (عليهم الصلاة والسلام) في غير مورد على وجه لا يمكن إنكار تواترها، فلاحظ الموسوعات الروائيّة.

قوله:(هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) أُتي بضمير الفصل لقصر الرحمة عليه تعالى؛ لأنّ رحمة الغير مأخوذة ومقتبسة منه، فهو يرحم عباده عند استحقاقهم الرحمة.

وأمّا قوله: (هُوَ اللهُ الذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) من الآية الثالثة والعشرين فقد مضى الكلام في الضمير ومفاد الفقرة، والفقرة هذه تأكيد للتوحيد الذي مضى ذكره في الآية المتقدّمة.

٥. قوله:(المَلِك): إمّا بمعنى الحاكم في الناس، أو بمعنى المالك إذ له ملك السماوات والأرض.

والمعنى الأوّل أنسب، لما في الصفة التالية.

٦. (القدّوس): المنزّه عن النقائص، ولعلّ تعقيب الملك بالقدوس، إشارة إلى تنزيهه عمّا اشتهر به الملوك من الظلم والفساد والاسترسال في الشهوات، لقوله تعالى: (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ). النمل: ٣٤.

ولقوله أيضاً: (وَ كَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَة غَصْبًا). الكهف:٧٩.فكأنّه لا شؤون للملك على الإطلاق أو على الأغلب إلاّ الإفساد في الأرض، وجعل الأعزاء أذلاّء، وغصب أموال الفقراء.

ومع ذلك كلّه يمكن أن يكون وصف القدّوس، إشارة إلى نزاهته وتعاليه عن كلّ ما لا يناسب ساحته، فيندرج تحته الصفات السلبية وهي:

أ. واحد ليس له مثيل ولا نظير.

ب. ليس له جسم ولا هو في جهة ولا في محل، ولا حالٌّ ولا متّحد.

ج. ليس محلاًّ للحوادث.

د. لا تقوم اللذة والألم بذاته.

هـ. لا تتعلّق به الرؤية.

و. ليست حقيقته معلومة لغيره بكُنهه، ومن ثمّ ليس جوهراً ولا عَرَضاً.

وقد أقام المتكلّمون البراهين على هذه الصفات. (الإلهيات:٢/١٠٩ـ١٤٤، محاضراتنا بقلم الشيخ الفاضل حسن مكي العاملي).

٧. (السَّلاَمُ): هناك احتمالان:

١. أن يكون المراد منه أنّه ذو السلام، ووصف به مبالغة في وصف كونه سليماً من النقائص والآفات كما يقال: رجل عدل.

٢. أن يكون المراد منه كونه معطياً للسلامة، وهو تعالى خلق الخلق سويّاً وقال: (مَا تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفَاوُت) الملك:٣. ، وقال:(رَبُّنَا الذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى).(طه:٥٠.)

٨ . (الْمُؤْمِنُ): اسم فاعل من آمن والهمزة فيه للتعدية فيكون جعل غيره آمناً، وعلى هذا فالمؤمن يستعمل تارة لازماً، وأُخرى متعدّياً؛ والمراد هنا هو الثاني، أي بمعنى: معطي الأمان لعباده، حيث يؤمنهم من العذاب في الدنيا والآخرة، قال سبحانه:(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ التي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) فصلت:٣٠..

ومع ذلك يحتمل أن يكون بمعنى المصدِّق، كقول أبناء يعقوب:(وَ مَا أَنْتَ بِمُؤْمِن لَنَا).(يوسف:١٧.) والله سبحانه يصدّق أولياءه بالمعاجز والكرامات.

٩. (الْمُهَيْمِنُ): الفائق المسيطر على الشيء، وعلى ذلك فالله سبحانه هو الفائق المسيطر على العباد، كما أنّ القرآن مسيطر على الكتب السماوية عامّة، إذ به يعرف صدق ما في الكتب السماوية الأُخرى، قال سبحانه: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) النحل:٧٦، وقال: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ).(المائدة:٤٨.)

ولعلّ الوجه لإتيان وصف المهيمن هنا، هو أنّه سبحانه لمّا وصف نفسه بالأوصاف الأربعة: ملك، قدوس، سلام، مؤمن، ربّما يتصوّر بأنّ معاملته العباد بالعدل والسلامة بسبب ضعفه، فذكر أنّه مع كونه موصوفاً بهذه الصفات، فهو مهيمن مسيطر غالب على ما في السماوات والأرض، وأيّد ذلك بالوصف التالي:

١٠. (الْعَزِيزُ): وهو الغالب الذي لا يغلبه شيء، فهو غالب لا يعجزه شيء وأُتبعت هذه الصفة بالصفة التالية:

١١. (الْجَبَّارُ): أي نافذة إرادته، ويحتمل أن يراد العالي الذي لا يُنال.

١٢. (الْمُتَكَبِّرُ): الذي تلبّس بالكبرياء وظهر بها، فإذا كان الكبْر هو الحالة التي توجب إعجاب المرء بنفسه ورؤية ذاته أكبر من غيره، لاترى لذلك الوصف حقيقة إلاّ في ذاته سبحانه، حيث له الكبرياء والعظمة دون غيره.

(سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ): فهو منزّه عن الشريك والصاحبة والولد.

١٣ ـ ١٥ . (هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ) في الآية الرابعة والعشرين فالكلام في الضمير، هو ما سبق بيانه. وقد ذكر سبحانه في هذه الفقرة أوصافاً ثلاثة كلّها مترتّبة في الخارج:

فهو «خالق» موجد للأشياء من العدم، و «بارئ» أي مميّز للأشياء، ممتازاً بعضها عن بعض، و «مصوِّر» ومعط الصور للأشياء. والأسماء الثلاثة تتضمّن معنى الإيجاد باعتبارات مختلفة، فهو بما أنّه موجد من العدم، خالق؛ وبما أنّه مميِّز لما خلق، بارئ؛ وبما أنّه معط للصور، مصوّر، كما قال: (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ). آل عمران: ٦.

وقال تعالى:(وَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ). الأعراف:١١.

وقال أيضاً:(وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ). غافر: ٦٤ .

ثم إنّ حصر الخالقيّة في الله ليس بمعنى نفي سببية الأسباب والعلل، فإنّ خالقيّة غيره إنّما هي بالتَّبَع لو صحّت تسمية العلل

الطبيعية بالخلقة، ولذلك نرى أنّه سبحانه يخاطب المسيح بقوله:(وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي) المائدة:١١٠، ويصف نفسه بكونه (أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ).

وما ذلك إلاّ لأنّ بين كونه خالقاً وكون المسيح خالقاً بُعد المشرقَين، فالأوّل مستقل في إيجاد ما خلق، والثاني يستمدّ من قدرته سبحانه فيما يخلق من الصور للطين.

١٦. (لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى): أي لا تنحصر صفاته فيما ذكر.

١٧. المسبَّح في السماوات والأرض: (يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ)فكلّ موجود يسبِّح اللّه سبحانه إمّا بلسان المقال أو بلسان الحال على وجه، أو يسبِّح الكلّ بلسان المقال على القول بسريان الشعور في عامّة الموجودات.

الْعَزِيزُ: الغالب غيرالمغلوب وقد مرّ ذكره في الآية الثالثة والعشرين .

١٨. الْحَكِيمُ: المُتقن الفعل، نظير قوله: (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْر حَكِيم) الدخان: ٤ .، أو البريء عن العبث واللغو، نحو قوله سبحانه: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ) المؤمنون: ١١٥ . أتى بهذين الاسمين لشدّة صلتهما بأمر الخلقة ثم إنّ قوله: (يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمواتِ وَ الأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) من قبيل ردّ العجز إلى الصدر؛ لأنّ صدر السورة مشتمل عليه، وهو من المحسِّنات البديعية.

وفي الختام، نودّ أن نشير إلى أنّ البحث حول هذه الأسماء والصفات تمّ بإيجاز هنا، وقد بسطنا الكلام فيه في موسوعتنا القرآنية: «مفاهيم القرآن» لاحظ مفاهيم القرآن: ٦ / ١١٠ ـ ٥٠٠، وسيجد القارئ أن تفسير هذه الاسماء جاء مرتباً حسب الحروف الهجائية، فراجعه إن أحببت.

***

تمّ تفسير سورة الحشر

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين سورة

٦٠- سورة الممتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ

دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت هذه السورة بالممتحنة تارة، وبالمودّة أُخرى.

فعلى الأوّل: فإن كانت بصيغة اسم الفاعل يكون إسناد الامتحان إلى السورة مجازاً؛ لأنّ السورة ليست ممتحِنة حقيقةً إلاّ مجازاً، لما ورد فيها من الأمر بالامتحان.

ولو كانت بصيغة اسم المفعول، فهي وصف لموصوف محذوف، وهي المرأة الممتحَنة. وأوّل امرأة امتحنت هي أُم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط زوجة عبد الرحمن بن عوف.

وعلى الثاني ـ أي تسميتها بالمودّة ـ : فلأجل ورود النهي عن إسرار المودّة لأعداء الله وأعداء المسلمين، فيها.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

إنّ عدد آيات هذه السورة ثلاث عشرة آية، لكنّها آيات طوال. وهي مدنية لما سيتّضح في أسباب النزول.

أغراض السورة

الغرض من السورة هو تحذير المؤمنين من اتّخاذ الكافرين أولياء مع وجود الصلة والقرابة بينهم، وقد ورد في ثنايا السورة شيء من أحكام النساء المهاجرات وبيعة المؤمنات. وابتدأت السورة بالنهي عن المودة واختتمت بنفس المضمون وهو النهي عن تولّي الكافرين والمشركين الذين غضب الله عليهم. وترسم للمسلمين الخطّ العام لعلاقاتهم مع الكافرين والّذي يتحدّد على أساس موقفهم من الإسلام ومعتنقيه .

أسباب النزول

سبب نزول السورة، هو أنّ بعض المؤمنين من المهاجرين قام بإفشاء سرّ الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)وإخبار أهل مكة بما عزم عليه النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) من التهيّؤ لفتح مكة، وقد قام بذلك ليحمي من بقي من أرحامه في مكة المكرمة، فنزلت السورة في هذا الشأن، وإليك التفصيل:

ذكر ابن إسحاق أنّه: لمّا أجمع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)المسير إلى مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يُخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه امرأة، زعم محمد بن جعفر أنّها من مزينة، وزعم لي غيره أنها سارَة مولاةٌ لبعض بني عبد المطلب، وجعل لها جُعلاً على أن تبلِّغه قريشاً، فجعلته في رأسها، ثم فتلت عليه قُرونها، ثم خرجت به، وأتى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) الخبرُ من السماء بما صنع حاطب، فبعث علي بن أبي

طالب والزبير بن العوام، فقال: أدركا امرأة قد كتب معها حاطبُ بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش، يحذّرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم.

فخرجا حتى أدركاها بالخُليفة، خليفة بني أبي أحمد، فاستنزلاها، فالتمسا في رحلها، فلم يجدا شيئاً، فقال لها علي بن أبي طالب: إنّي أحلف بالله ما كُذب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ولا كُذبنا، ولتخرجِنّ لنا هذا الكتاب أولنكشفَنّك، فلمّا رأت الجدّ منه، قالت: أعرض، فأعرض، فحلّت قُرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليه، فأتى به رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فدعا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)حاطباً، فقال: يا حاطب،ما حملك على هذا؟ فقال: يا رسول الله، أما والله إنّي لمؤمنٌ بالله ورسوله، ما غيّرتُ ولا بدّلتُ، ولكنّي كنت امرأً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهلٌ فصانعتهم عليه. السيرة النبوية لابن هشام:٢/٣٩٨ـ٣٩٩. وللرواية صلة يأتي الكلام فيها .

ونقل القصة الشيخ الطبرسي على وجه التفصيل، وممّا جاء فيها ـ ولم يذكره ابن هشام ـ : إنّ سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام أتت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) من مكة إلى المدينة بعد بدر بسنتين فقال لها رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أمسلمة جئت؟ قالت: لا، قال: أمهاجرة جئت؟ قالت: لا، قال: فمن جاء بك؟ قالت: كنتم الأصل والعشيرة والموالي وقد ذهب مواليّ واحتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني. قال: فأين أنت من شبّان مكة وكانت مغنية نائحة. قالت: ما طلب مني بعد وقعة بدر. فحثّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)عليها بني عبد المطلب فكسوها وحملوها وأعطوها نفقة، وكان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)يتجهّز لفتح مكة، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة وكتب معها كتاباً إلى أهل مكة وأعطاها عشرة دنانير، عن ابن عباس، وعشرة دراهم، عن مقاتل بن حيان، وكساها بُرداً على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة وكتب في الكتاب: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة أنّ رسول الله يريدكم فخذوا حذركم... إلى آخر القصة. مجمع البيان:٩ـ١٠/٤٠٥. ثم إنّ الآية العاشرة من هذه السورة لها قصة أُخرى وشأن نزول خاصّ بها سنذكره في محلّه قبال تفسير تلك الآية.

الآيات ١ ـ ٣ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ.... وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ):

الآيات: الأُولى إلى الثالثة

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَ مَا أَعْلَنْتُمْ وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ):

المفردات

تُلْقُونَ: الإلقاء: رمي ما في اليد على الأرض، قال الشاعر:

ألقـى الصحيفـة كي يخفّـف رحلَـه *** والزاد حتى نعله ألقاها

ويستعمل في صدور فعل من غير تدبُّر.

إنّ في قوله (بِالْمَوَدَّةِ) وجهين:

الأوّل: الباء للإلصاق، لتأكيد اتّصال الفعل بمفعوله، نظير: (وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) البقرة: ١٩٥ ،. وذلك تصويراً لقوة مودّتهم لهم. التحرير والتنوير:٢٨/١٢٠.

الثاني: أنّ الباء، للسببية؛ ومفعول الفعل (تُلْقُونَ) محذوف. والمعنى، تُلقون أخبار النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)إلى المشركين

بسبب المودة الموجودة بينكم وبين المشركين.

وقوله: (تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ)، حال من الضمير المتصل في (لاَ تَتَّخِذُوا).

وقوله: (وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ) حال من الضمير في وقوله:(إِلَيْهِمْ).

وقوله: (يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ) حال من نفس الضمير.

وقوله:(إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ) قيد لصدر الآية، أي لا تتّخذوا عدوي أو عدوكم أولياء إن كنتم خرجتم... الخ.

يَثْقَفُوكُمْ: أي يظفروا بكم، يقال: ثقفتُ الرجلَ، إذا ظفرتَ به، نظير قوله:(وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ). البقرة:١٩١.

وربما يستعمل في الفطنة والذكاء، يقال: غلام ثقِف، أي ذو فطنة وذكاء.

التفسير

١. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَ مَا أَعْلَنْتُمْ وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ):

إنّ قوله سبحانه:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ) وإرداف (عَدُوِّي) بـ (عَدُوَّكُمْ) جاء لشدة الترهيب من اتّخاذ أعداء الله وأعداء المؤمنين أولياء، فإذا كان المشرك عدواً لله وعدواً لكم فلا مسوّغ في منطق العقل اتّخاذهم(أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ).

قال السيد الشريف الرضي (رحمه الله): وهذه استعارة على أحد التأويلين وهو أن يكون المعنى: تلقون إليهم بالمودّة ليتمسّكوا بها منكم كما يقول القائل: ألقيت إلى فلان بالحبل ليتعلّق به . تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٢٨٦ .

قوله: (وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ) جملة حالية، وهي سبب ثان للنهي عن اتّخاذهم أولياء، وعلى هذا فقد ذُكر للنهي سببان:

١. كونهم عدواً لله وعدواً لكم.

٢. كونهم كافرين بما جاءكم من الحق.

ثم أضاف سبباً ثالثاً وهو قوله:(يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ)، أي كيف تُلقون إليهم بالمودة مع أنّهم أخرجوا النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) من بلده، كما أخرجوكم منه، لأجل إيمانكم بالله ورسالة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)؟

والإتيان بصيغة المضارع (يُخْرِجُونَ) مع أنهم أخرجوه مع المؤمنين من مكة قبل سنوات لتصوير الحال التي كانوا عليها حين صدر منهم هذا الفعل.

والمراد من الإخراج هو تمهيد مقدّماته وإيجاد أسبابه، بالتضييق على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)واضطهاد المؤمنين به حتى اضطروهم إلى مغادرة موطنهم.

قوله: (إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي) والجملة قيد للنهي الوارد في قوله:(لاَ تَتَّخِذُوا) وقد شكّلتا جملة شرطية وجزائية، وعلّقت النهي عن اتخاذ الأولياء وإلقاء المودة إليهم بخروجهم جهاداً في سبيل الله، مع أنّ النهي عن اتخاذ الأولياء مطلق في عامة الحالات، سواء خرجوا جهاداً في سبيل الله أم لا.

ومع ذلك فالتعليق صحيح، جاء للتأكيد وتبيين أنّ ما خرجتم إليه من الجهاد في سبيل الله لا ينسجم مع اتخاذ الكافرين أولياء، فالمجاهد في سبيل الله يبتغي مرضاة الله لا مرضاة الناس، فلا يمكن الجمع بينهما. فلا مفهوم للجملة الشرطية حتّى يجوز

اتخاذهم أولياء إذا لم يخرجوا للجهاد في سبيل الله. نظيرها في التأكيد وفقدان المفهوم في الذكر الحكيم قوله تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ). الأنفال:٤١. فالشرط تأكيد لما تقدّم وليس قيداً واقعياً. والمراد أنّ الإيمان بالله وما أُنزل على الرسول يبعثكم إلى قبول تشريعاته وأنّ ما حازه المجاهدون يقسّم بين الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) والمجاهدين أخماساً، فالخمس للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)والباقي للمجاهدين... .

قوله: (تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَ مَا أَعْلَنْتُمْ) الجملة تفسير لقوله: (تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ)، حيث تبيّن كيفية الإلقاء إليهم بالمودة وذلك بالإخبار عن أحوال الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)في السرّ بسبب المودة بينكم وبينهم. ومفعول الفعل (تُسِرُّونَ) محذوف: أي تخبروهم بأحوال المسلمين سرّاً، وعلى هذا فمفعول الفعل (تُسِرُّونَ)محذوف هو: أحوال المسلمين .

ويحتمل أن يكون المراد أنّكم تعلمونهم بالسرّ أنّ بينكم وبينهم مودّة. تقومون بذلك مع أنّه سبحانه أعلم بالخفاء والعلن، قال سبحانه:(إِنَّ اللهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ) آل عمران:٥.، وقال سبحانه: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد: ٤..

ثمّ إنّه سبحانه وصف مَن اتخذ عدو الله أولياء بقوله: (وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) أي عدل عن طريق الحق وسبيل الرشد.

وفي الآية دليل على أنّ مرتكب الكبيرة ليس بكافر، حيث إنّ حاطب بن أبي بلتعة ارتكب الكبيرة وهي اتخاذ عدو الله ولياً مع أنّه لم يكفر، ولم يرتد عن الدين، وقد روي أنّ عمر بن الخطاب طلب من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)أن يقتله، فأبى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) . السيرة النبوية:٢/٣٩٩.

٢. (إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ):

سبق منّا أنّ قوله تعالى: (إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً) بمعنى: إن يظفروا بكم عن طريق الحيلة والفطنة والذكاء لا يرحمونكم، أي يتعاملون معكم بأُمور أربعة:

١. (يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً)، ولعلّ المراد إظهار العداء المكنون، ولذلك عبّر بصيغة المضارع، مشعراً بأنّ عداوتهم قديمة مستمرة تظهر عند الظفر بكم.

٢. (وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ) أي يوقعون بكم ما يقدرون عليه من القتل والأذى.

٣.ويبسطوا (أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ)أي يذكرونكم بكلّ قبيح من الشتم واللعن وتشويه السُّمعة.

٤. (وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ) أي يودّون رجوعكم من الحق إلى الضلال، وهذه هي أُمنيّة الشيطان حيث لا يريد من الإنسان إلاّ الضلال حدوثاً وبقاءً. وثمة نكتة بلاغية أوردها نظام الدين محمد بن الحسن القمي النيسابوري في كتابه «غرائب القرآن»، قال: قال علماء المعاني: إنّما عطف قوله (وودّوا) وهو ماض لفظاً على ما تقدّمه وهو مضارع، تنبيهاً على أنّ ودادهم كفركم أسبق شيء عندهم، لعلمهم أنّ الدين أعزّ على المؤمنين من الأرواح والأموال، وأهمّ شيء عند العدوّ أن يقصد أعزّ شيء عند صاحبه. غرائب القرآن ورغائب الفرقان:١٠/٥٢١.

وهذا الأمر الرابع يعدّ من أشدّ الآثار السلبيّة المترتبة على تولّي الكافرين، لأنّه يفضي إلى انهيار بناء المجتمع الإسلامي الفتيّ، القائم على العقيدة الجديدة.

وقد تجسّد ذلك بعد قرون في المغرب الإسلامي ـ أعني: الأندلس ـ الّتي كان من أكبر أسباب ضياعها، وانهيار حكم المسلمين فيها ، هو مهادنة الأعداء المحاربين، والتحالف والتعاون معهم، والحرص على إرضائهم وكسب مودّتهم على حساب المبادئ والمصلحة

الإسلامية العليا، وقد وصل الأمر ببعض ملوكها (كعبد الله الصغير) إلى التزوّج ببنات الأعداء (الإسبان)، وإطلاعهنّ على أسرار البلاط، وأسرار المملكة، ومن ثم إيصالها إلى الإسبان، الأمر الّذي أتاح لهم التدخل في شؤون المملكة، والكيد لها. انظر: رجال من التاريخ، لعلي الطنطاوي:٣١٧ـ٣٢٣.

قال الدكتور عبدالمجيد نعنعي، وهو يتحدث عن أوضاع طليطلة في عام (١٠٧٩م) وما بعده: الطليطليون الذين استدعوا المتوكّل، وأمّلوا الخلاص على يديه، أُصيبوا بخيبة أمل مريرة من ممارسته، وأُولئك الداعون للتعاون والسلام مع الإسبان النصارى وجدوا في تصرّفاته مبرّرات إضافية تدعم وجهة نظرهم. في هذا الوقت كان القادر ينظم أُموره بالتعاون مع (ألفونسو السادس) ويوثّق تحالفه معه، استعداداً لمهاجمة العاصمة طليطلة واحتلالها.

بعد الاتفاق بين الملكين، جمع (ألفونسو السادس) جيشاً كبيراً، وانطلق يباشر غزو أراضي مملكة طليطلة، يخرّب أراضيها وينشر الرُّعب بين أهلها. وعندما تسرّبت هذه الأخبار إلى المتوكّل الأفطسي، وأدرك قوة الخطر الإسباني وعجزه عن ردّ الغزاة خان الطليطليين، وفرّ تاركاً إياهم لمصيرهم السيء. ألقى (ألفونسو السادس) حصاراً قوياً على طليطلة،]ممّا [جعل الطليطليين يفتحون أبواب مدينتهم ويُدخلون ملكهم السابق]القادر[.

وفى القادر بتعهده، وقدّم إلى (ألفونسو السادس) كل ما وجده في القصر الملكي من تحف وثروات ومن أموال ذي النون، وقد اعتبر(ألفونسو السادس)ما قُدّم له قليلاً واتّهم القادر بأنّه قد أخفى الكثير ممّا وجده في المدينة، ولذا طالب بأن يُعطى بالمقابل، كرهينة، حصن (قتالش) الهامّ!!

منذ ذلك الوقت صار سقوط طليطلة [بيد الإسبان] يعتبر وكأنّه أمر واقع ومؤكّد، وما كانت عودة القادر ابن ذي النون إليها وإعادة تتويجه على عرشها بالنسبة لألفونسو السادس إلاّ أموراً آنية ومؤقتة. وانطلاقاً من هذه القناعة دخل الملك الإسباني في مباحثات مع قداسة البابا لإعادة كرسي رئيس أساقفة إسبانيا إلى طليطلة، تلك الرئاسة الّتي افتقدتها الأُسقفيات الإسبانية منذ زمن طويل. الإسلام في طليطلة: ٢٨٠ـ٢٩١.

***

وعلى أي تقدير، فالآية الثانية بعامة فقراتها تعليل لذيل الآية الأُولى ـ أعني: (وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ) ، والدليل على هذا أنّه لو سنحت الفرصة لهم، لتعاملوا معكم بهذه الأُمور.

أفهل يجوز في منطق العقل التعامل معهم معاملة الصديق مع الصديق؟

٣. (لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ):

لا شكّ أنّ أواصر القربى تنفع الإنسان في الحياة الاجتماعية الدنيوية، والآية تدلّ على عدم نفعها يوم القيامة لانفصال كل اتصال يومئذ، كما قال سبحانه:(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئ مِنْهُمْ يَوْمَئِذ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) عبس:٣٤ـ٣٧، فإذا كان حال الإنسان مع أولاده وأرحامه يوم القيامة هكذا، فلا يصحّ لمؤمن بما أُنزل على الرسول، أن يخون الله ورسوله بإفشاء سرّه إلى الأعداء وموادّتهم، لأجل أن تكون له يد عندهم، يدفع بها عن أهله وأولاده، بل يجب أن تكون آصرة العقيدة عنده أقوى من كلّ آصرة. وكأنّ الآية ردّ على حاطب بن أبي بلتعة في اعتذاره عن عمله التجسسي بأنّه لم يكن أحد من المهاجرين إلاّ وله قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم، وأنّه كان غريباً في قريش، فخشي على أهله، فأراد أن يتخذ عندهم يداً.

هذا ما يرجع إلى تفسير قوله: (لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) لانقطاع وشيجة الأنساب، فلا ينتفع ذوقرابة من قرابته شيئاً.

بقي تفسير قوله:(يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ) الظاهر أنّ (يَوْمَ الْقِيَامَةِ)ظرف لكلا الفعلين: عدم النفع، والفصل بينكم وإن كان الظاهر أنّه ظرف للفعل الثاني، لكنّه ظهور بدئي، لأنّ الإنسان ينتفع بالأرحام والأولاد في الحياة الدنيوية، فلا محيص من تخصيص عدم النفع بيوم القيامة وجعله ظرفاً لكلا الفعلين، إنّما الكلام فيما هو المقصود من الفصل، فقد ذُكرت هنا وجوه:

١. انقطاع روابط الأنساب، فلا خبر عنها يوم القيامة، ولعله إلى هذا يشير قوله سبحانه:(وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ) البقرة:١٦٦..

٢. إنّ الله يفرّق بينهم، فيفرّ المرء من أخيه وأُمّه وبنيه وصاحبته.

٣. إنّ الله يميّز بينهم بإدخال أهل الإيمان الجنة، وأهل الكفر النار.

٤. إنّ الله يقضي بينكم يوم القيامة.

والظاهر هو المعنى الأوّل، لعدم تناسب سائر المعاني مع سياق الآية.

الآيات ٤ ـ ٦ (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ.... فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ):

الآيات: الرابعة إلى السادسة

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْء رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ اغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَ الْيَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ):

المفردات

أُسْوَةٌ: الأُسوة: القدوة.

بُرَآءُ: جمع بريء.

الْبَغْضَاءُ: نفرة النفس والكراهية الظاهرة على الجوارح، كما في قوله سبحانه: (قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ). آل عمران:١١٨.

التفسير

١ . (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْء رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ):

إنّ من أساليب التربية الناجعة ـ في مجال تهذيب النفوس ـ هو عرض نماذج من البشر بلغوا الغاية في السموّ الإيماني والأخلاقي وفي الطهارة والنزاهة، وحضّ الآخرين على التأسّي والاقتداء بهم في الحياة. وهذا المنهج قد اتُّبع في القرآن الكريم فيذكر هنا، مثلاً، إبراهيم (عليه السلام)ذلك النبي الكبير الذي كانت حياته كلّها طاعة لله وجهاداً في سبيله، فيقول سبحانه في حقّه: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ).

كما أشار القرآن الكريم إلى أُسوة أُخرى، أعني: النبي الخاتم(صلى الله عليه وآله وسلم)الّذي تمحّضت نفسه للطاعة والإخلاص، وكُرّست حياته للجهاد في سبيل الله والعمل بمرضاته، يقول سبحانه: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ) الأحزاب: ٢١ ..

ولم يقتصر الأمر على الرجال، في عرض أُسوة حسنة أمام أعين المسلمين، بل أشار إلى امرأتين متّقيتين، بلغتا في التقوى والنزاهة

مبلغاً لا يُدرك شأوهما، فيذكر من باب المثال امرأة فرعون ويقول:(وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ)(التحريم:١١.) ويذكر بعدها مريم ويقول:(وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا). التحريم:١٢.

إنّ إبراهيم(عليه السلام) كان أُسوة في مجالات مختلفة.. في إخلاصه وحبّه لله تبارك وتعالى.. في نضاله وجهاده مع المشركين الّذي بلغ حدّاً لم يأبه فيه للقتل والإحراق، إلى غير ذلك من وجوه الكمال، ولكن المراد هنا هو اتخاذه ومن معه أُسوة في ترك مُوالاة المشركين، وذلك بالصور التالية:

١. (إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) فتبرّؤوا من قومهم وأصنامهم التي يعبدونها من دون الله.

٢. (كَفَرْنَا بِكُمْ) أي كفرنا بجمعكم، والمراد من الكفر هو كفر البراءة من جمعهم.وهذا غير كفرهم بما يعبدونه. وما في المجمع من تفسيره بجحد دينهم وإنكار معبودهم مجمع البيان:٩/٤٠٦، يستلزم التكرار لوروده في الفقرة الأُولى.

٣. (وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا) أي ظهرت العداوة والبغضاء اللتين نشأتا في القلب، على الجوارح والألسن، فلا جامع بيننا، ولا صلة تربطنا بكم، أنتم أعداؤنا ما دمتم عاكفين على الأصنام وعبادة الكواكب، ولا تنقلب هذه العداوة إلى موالاة، والبغضاء إلى محبّة إلاّ في صورة واحدة، وهي:

٤. (حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ) أي تصدّقوا بوحدانية الله وإخلاص التوحيد والعبادة له.

إنّ الهدف من هذا الخطاب، هو الحثّ على الاقتداء بالموقف الشجاع، والقرار الحازم الّذي اتخذه (إبراهيم(عليه السلام) ومن آمن معه) من قومهم حتى يقطع المسلمون كل الروابط والوشائج الاجتماعية مع أقوامهم الكافرين، وهو في الوقت نفسه يتضمّن تنديداً بعمل حاطب بن أبي بلتعة، فإنّه تخلف عن هذا المنهج المتوارث عن إبراهيم(عليه السلام)والمؤمنين به.

وهنا يُطرح السؤال التالي، وهو أنّه سبحانه حين تحدّث عن دعوة إبراهيم قومه إلى التوحيد، قال:

(فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). العنكبوت:٢٦.

فالظاهر من هذه الآية أنّه لم يؤمن له إلاّ لوط، فكيف يقول سبحانه: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ والذين معه).

والجواب هو أنّ ذكر اسم لوط هنا، لا يدل على عدم إيمان غيره، فلعلّه سبحانه قد خصّه بالذكر لأجل منزلته الرفيعة وكونه نبيّاً من أنبيائه، على أنّ ابن الأثير يذكر في تاريخه: أنّ قوماً آمنوا به وفارقوا المشركين بالهجرة من وطنهم، قال: ثم إنّ إبراهيم والذين اتّبعوا أمره أجمعوا على فراق قومهم.(الكامل في التاريخ:١/٥٧ .) ويمكن أن يكون الجمع للتعظيم وافتراض فرد كالأُمّة، كما في قوله سبحانه: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً). النحل:١٢٠.

قوله تعالى:(إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْء).

اختلفت كلمة المفسرين في تفسير هذا الاستثناء، ومع قطع النظر عنه فمعنى الفقرة واضح حيث إنّ إبراهيم(عليه السلام)وعد أباه أن يستغفر له ومع ذلك نبّه بأنّ استغفاره مشروط بقبول الله سبحانه، فإنّ الأمر كلّه بيد الله وحده. وقد ذُكرت في تفسير الاستثناء وجوهٌ:

١. أنّ الاستثناء جملة معترضة بين قوله تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ)إلى قوله: (حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ) وبين مقال إبراهيم ومن معه(رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)، وعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً، والاستغفار مغايراً للتبرّي التحرير والتنوير:٨/١٣٠، ويمكن أن يكون نظر القائل لما سنذكره في الوجه الثالث.

٢. أنّه استثناء من قوله: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ) فهو أُسوة في جميع المجالات إلاّ في استغفاره لأبيه، فليس للمؤمنين الاقتداء به في ذلك، وهذا الوجه غير صحيح جدّاً، فإنّ القرآن الكريم وصف بطل التوحيد بصفات كثيرة ربما تصل إلى

خمسة عشر صفة، وقد توفرت فيه العصمة والصفات الكمالية، فكيف يمكن أن يخالف ربّه في الاستغفار، مع أنّه كان يجب عليه التبرّي في عامّة الجهات ولا يستثني هذه الجهة؟

٣. أنّ الظاهر من مجموع ما ورد من الآيات حول تبرّي إبراهيم من أبيه واستغفاره له، أن تبرّيه كان بعد الوعد وبعد أن تبيّن عداءه لله سبحانه، يقول سبحانه: (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَة وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ).(التوبة:١١٤.)

فالآية ظاهرة في أنّه(عليه السلام) وعد أباه بالاستغفار، حيث كان يترقّب منه الإيمان وترك عبادة الأصنام، فلمّا تبيّن أنّه ثابت على الوثنية التي هي تعبير آخر عن كونه عدواً لله، فعند ذلك تبرّأ منه.

وعلى هذا فلو كان الاستغفار بعد التبرّي، يرد الإشكال في أنّه كيف حفظ هذا القسم من التولّي وترك الأقسام الأُخرى، وهو نبي معصوم؟

وأمّا على ما ذكرنا بأنّ الاستغفار كان قبل التبرّي، حيث إنّه ظنّ أنّه سيهتدي ويترك عبادة الأصنام، ولمّا تبيّن أنّه مستمر على ضلاله تبرّأ منه، فلا يكون استثناء الاستغفار المذكور في الآية منافياً للتبرّي لوقوعه قبله .

وعلى هذا، فكأنّ الاستثناء جواب لسؤال معلوم من سياق الآية، وهو أنّه سبحانه حينما وصف إبراهيم ومن آمن معه بالتبرّي الكامل من المشركين (حسب ما عرفت) دار في ذهن المخاطب: أنّه إذا كان بهذه المنزلة، فكيف استغفر إبراهيم لأبيه، وهو أمر لا ينسجم مع التبرّي؟

فأجاب سبحانه: بأنّ هذا الاستثناء قد تم تحت شروط خاصّة، ولم يكن لأغراض دنيوية ولا لمصلحة وقتية، وإنّما كان الوعد بزعم أنّه سيرجع إلى حظيرة التوحيد، فوعده(عليه السلام)بالاستغفار. وقد عرفت أنّه كان قبل التبرّي، ولم يمكن الاستغفار مضاداً للتبرّي ولا بمعنى التولّي، وإنّما هو استثناء في حياة بطل التوحيد حيث وعد في وقت مناسب بزعم وجود المصلحة، فلمّا تبيّن عدمها تركه ولم يستغفر، وعلى هذا فكأنّ هنا جملة محذوفة، وهي: إنّكم تقتدون بإبراهيم في كل شيء بلا استثناء، وأمّا الاستغفار فإنّما هو أمر خارج عن موضوع التولّي والتبرّي، وكان وعداً لمصلحة دينية لا شخصية، فلا يعتبر وعد الاستغفار، دليلاً على وجود الصلة وعدم التبرّي الكامل.

فلفظة «إلاّ» استثناء في حياة الخليل، أو هي بمعنى أمّا، أي أمّا قول إبراهيم، والجواب محذوف أي لمصلحة خاصّة، فلمّا تبيّن موقف الأب، تركه ولم يستغفر له، ولعلّه هذا مراده من جعل الفقرة جملة معترضة بين صدر الآية وذيلها.

بقي هنا بحث وهو:

ظهور الآية في كون أبي إبراهيم مشركاً

يستفاد من الآية الرابعة أنّ أبا إبراهيم كان من المشركين بدليل قوله: (إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) مع أنّ الإمامية اتّفقوا على أنّ آباء الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)كلّهم موحّدون، قال المفيد: واتّفقت الإمامية على أنّ آباء رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) من لدن آدم إلى عبد الله بن عبد المطلب مؤمنون بالله عزّ وجلّ موحِّدون. أوائل المقالات:١٢، ط. تبريز.

فلو كان أبو إبراهيم مشركاً فكيف ادّعى الشيخ المفيد إجماع الإمامية على أنّ آباء الرسول إلى آدم كلّهم موحّدون؟

هذا هو الإشكال، وقد أُثير قبل قرون ولكن دراسة الآيات الواردة حول إبراهيم(عليه السلام) تدلّ على أنّ المراد من الأب هنا هو غير الوالد، إمّا أن يكون عمّاً أو خالاً، وإليك توضيح ذلك.

لا شك أنّه إذا أطلق الأب يتبادر منه المعنى المتعارف، أي من خُلق من مائه الولد، ولو استعمل في مورد في معنى العمّ فإنّما هو بقرينة دالة على خلاف الظاهر كما في قوله: (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) البقرة:١٣٣، ولا شك أنّ إبراهيم كان جد يعقوب، وإسحاق كان والده، وأمّا إسماعيل فهو عمّه، ومع ذلك أُطلق عليهم جميعاً الآباء وهذا الاستعمال مقرون بقرينة. وعلى هذا فلا يمكن صرف الآية في المقام عن الوالد إلى العمّ أو الخال بمجرد استعمال الأب في العم بقصة يعقوب، بل يجب أن يوجد هنا دليل قاطع على صرف الأب عن الوالد إلى غيره، ومن حسن الحظ وجود هذه القرينة، وذلك: أنّ المتبادر من الآية الواردة في سورة التوبة، هو أنّ إبراهيم تبرّأ من أبيه أيام إقامته في بابل وهي أيام شبابه حيث قال:(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) التوبة:١١٤، وهذا يدل على انقطاع الصلة بينه وبين من يُعبّر عنه بالأب عندما كان إبراهيم في بابل وهو فتى يافع، وتدلّ الآيات الواردة في سورة الشعراء أنّه قد استغفر له وهو في بابل أيام شبابه حيث يذكر قصة إبراهيم(عليه السلام)بقوله:(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ)(الشعراء :٦٩ـ٧١.) ثم يذكر قوله: (وَ اغْفِرْ لاِبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ) الشعراء: ٨٦ .. وعلى ذلك فالدعاء له ثم التبرّي منه، كلّ ذلك تحقّق أيام إقامته في بابل قبل أن يغادرها إلى فلسطين ومنها إلى مصر ومنها إلى الحجاز، هذا من جانب. ومن جانب آخر نجد إبراهيم(عليه السلام) لما طُعن في السنّ وبنى البيت الحرام ورُزق بولدين صالحين، نجده يدعو لوالديه بالمغفرة، وإليك الآيات: (الْحَمْدُ للهِ الذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ). إبراهيم:٣٩ـ٤١. فالمستغفَر له والمتبرَّأ منه بعد ذلك في أيام شبابه والذي سمّي بالأب، هو غير الذي دعا له في أُخريات حياته وسمّاه بالوالد. وهذه قرينة واضحة على أنّ تسمية آزر بالأب، إنّما هو لوجود صلة قوية بينه وبين إبراهيم(عليه السلام)ككونه عمّه أو خاله، فقد دعا له بالمغفرة ثم تبرّأ منه. وأمّا الوالد الحقيقي فقد دعا له ولم يتبرّأ منه لحظة واحدة. وهذا هو السرّ في أنّه عبّر عن آزر بالأب، وعن غيره بالوالد. قوله تعالى : (رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)، يُعدّ تتمّة لتبرّي إبراهيم ومن معه من المشركين، ويتضمن ثلاث جمل: ١. (رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا)... والتوكّل على الله تفويض كلّ الأُمور إليه ثقةً بحسن تدبيره. ٢. (وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا) أي رجعنا إلى طاعتك وتبنا إليك. ٣. (وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)،... أي وإليك مرجع كلّ شيء، وهو تعبير عن الإيمان الراسخ بالآخرة.
٥. (رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ اغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ):
تطلق الفتنة ويراد بها أحد المعاني التالية: ١. الخصومة والحرب بين رئيسين ضالّين يدعوان كلاهما إلى ضلالة، كفتنة عبدالملك وابن الزبير، وفتنة مروان والضحاك، وفتنة الحجاج وابن الأشعث، ونحو ذلك، فإذا كان أحدهما صاحب حق فليس ثمّة فتنة كالجمل وصفين ونحوهما، بل يجب الجهاد مع

صاحب الحق، وسلّ السيف والنهي عن المنكر. انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٨ / ٨٢ .

وإلى هذا المعنى يشير الإمام علي(عليه السلام) بقوله: «كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ، لاَ ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ، وَلاَ ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ». نهج البلاغة: قسم الحكم، برقم ١. وفيه: ابن اللّبون: ولد الناقة الذكر إذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة، واللّبُون من الإبل والشاة: ذات اللَّبن. وابن اللّبون لا يكون قد كمل وقوي ظهره على أن يُركب، وليس بأُنثى ذات ضرع فيُحلب وهو مطّرَح لا يُنتفع به.

وقال (عليه السلام): «احمل نفسك أيّام الفتنة، وكن ضعيفاً مغموراً بين الناس لا تصلح لهم بنفسك ولا بمالك، ولا تنصر هؤلاء وهؤلاء». شرح نهج البلاغة : ١٨ / ٨٣

٢. الكفر والضّلال والمعصية: وبه فُسّر قوله تعالى:(أَلا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا)(التوبة:٤٩.) أي وقعوا في الكفر والمعصية، وقوله تعالى:(وَقاتِلُوهُمْ حَتّى لا تَكُونَ فِتْنَة)(البقرة:١٩٣.) يعني هاهنا الكفر. قال الشيخ الطوسي: وإنّما سمّي الكفر فتنة، لأنّ الكفر يؤدي إلى الهلاك كما تؤدي الفتن إلى الهلاك، ولأنّ الكفر إظهار الفساد عند الاختبار، والفتنة إنّما هي الاختبار. التبيان في تفسير القرآن:٢/١٤٧.

٣. العذاب والبليّة: وبه فُسّر قوله سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتُ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا)(الذاريات: ١٣)، وقوله جلّ من قائل: (يَوْمَ هُمْ عَلَى النّارِ يُفْتَنُونَ) البروج: ١٠. أي يُحرقون بالنّار ويُعذّبون فيها. وأصل الفتنة تخليص الذهب بإحراق الغُشّ الّذي فيه، فهؤلاء يُفتنون بالإحراق كما يُفتن الذهب.(التبيان في تفسير القرآن: ٩/٣٨٢.)

٤. الامتحان والاختبار: وهذا هو المراد من قوله تعالى: (أَحَسِبَ النّاس أَنْ يُتركُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَهُمْ لا يُفتَنُون) العنكبوت:٢. ، وقوله سبحانه: (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ)(التغابن: ١٥.) أي محنة وابتلاء وشدّة في التكليف عليكم، وشغل عن أمر الآخرة، فإنّ الإنسان بسبب المال والأولاد يقع في الحرام مجمع البيان:٩/٤٥٢. ، يقول الإمام علي(عليه السلام): «لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ» لاِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلاَّ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَة، وَلكِنْ مَنِ اسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلاَّتِ الْفِتَنِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ يَقُولُ: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ).(الأنفال: ٢٨.) وَمَعْنَى ذلِكَ أَنَّهُ يَخْتَبِرُهُمْ بِالاْمْوَالِ وَالاْوْلاَدِ» . نهج البلاغة: قسم الحكم، برقم ٩٣ .

قال ابن أبي الحديد: وعندي أنّ أصل اللفظة (يعني الفتنة) هو الاختبار والامتحان، وأنّ الاعتبارات الأُخرى راجعة إليها، وإذا تأمّلت علمت صحّة ما ذكرناه. شرح نهج البلاغة:١٨/٢٤٩.

ومهما يكن، فالظاهر أنّ المراد في قوله تعالى: (رَبَّنَا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا): لا تجعلنا سبب فتنة لصالح الكافرين بأن يتسلّطوا علينا ويحملونا على ما يريدون، فلا تسلّطهم علينا فيفتنونا عن دينك.

وقيل في تفسير الآية وجوه ذكرها الطبرسي، والظاهر ما ذكرناه، وهو خيرة السيد الطباطبائي، قال: الفتنة ما يُمتحَن به، والمراد بجعلهم فتنة للذين كفروا:تسليط الكفار عليهم ليمتحنهم فيُخرجوا ما في وسعهم من الفساد، فيؤذوهم بأنواع الأذى أن آمنوا بالله ورفضوا آلهتهم وتبرّؤوا منهم وممّا يعبدون.(الميزان في تفسير القرآن: ١٩/٢٣٣.)

والظاهر أنّ الآية جزء من دعاء إبراهيم(عليه السلام) ومن معه ولذلك ختموا هذا الدعاء بدعاء آخر، قالوا:(وَ اغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا) ما سلف من ذنوبنا (ربّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) أي الغالب الذي لا يُغلَب، والحكيم الذي لا يفعل إلاّ عن حكمة.

وفي هذا تعليم للمسلمين أن يدعوا الله سبحانه بهذا الدعاء، وكأنّ الإتيان بوصف العزيز هنا تعليل لما مرّ من توكلهم على الله والإنابة والمصير إليه، فهذه الأُمور إنّما تُطلب ممن يوصف بالعزة والقدرة والحكمة. ولو كان علّة لطلب المغفرة، لكان من المناسب أن يقول: إنّك أنت الغفور الرحيم.

٦. (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ):

الآية تكرار لما مرّ في الآية الرابعة، حيث قال: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ).

وقد أُعيد المضمون لأجل التأكيد على اتّخاذهم أُسوة.

قوله:(لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَ الْيَوْمَ الآخِرَ) بدل من الضمير في (لَكُمْ)أُتي به للتعميم، وأنّ اتّخاذهم أُسوة لا يختص بالمهاجرين الذين كان لهم أقارب في مكة المكرمة، فأعلن أن ما مرّ من الأمر بالتبرّي من العدو واتخاذ إبراهيم ومن معه قدوة، يعمّ كلّ من آمن بالله واليوم الآخر.

قوله:(وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِي الْحَمِيدُ)، أي من يتولّى الكافرين بابتغاء المودة إليهم فلا يضرّ الله، لأنّه هو الغني الحميد.

وفسّره في المجمع بالإعراض وقال: ومن يعرض عن هذا الاقتداء بإبراهيم والأنبياء والمؤمنين والذين معه فقد أخطأ حظ نفسه وذهب عمّا يعود نفعه إليه. مجمع البيان:٩/٤٠٨.

الآيات:٧-٩ (عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ .... فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ):

الآيات: السابعة إلى التاسعة

(عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ):

التفسير

٧. (عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ):

لمّا أمر الله تعالى المسلمين في عصر الرسالة بعدم موالاة أقاربهم وأرحامهم وأولادهم المشركين وأن لا يقيموا أيّة صلة معهم، وغير خفي أنّ قطع الصلة مع ذوي القربى ليس أمراً سهلاً، عاد سبحانه يسلّيهم ويُطمعهم رجاء عودة المودة بينهم وبين الذين قطعوا معهم الصلة، وذلك بأن يتشرّفوا بالإيمان والإسلام ويكون الجميع متحابين ومتوادّين، وقد تحقّق ذلك بفتح مكة، وإسلام المشركين ودخولهم حظيرة الإسلام. فقوله في أول الآية: (عَسَى اللهُ)بمعنى رجاء المسلمين ذلك من الله، لا رجاء الله، وبذلك يُعلم أنّ الآية ليست ناسخة لوجوب التبرّي، وإنّما هي من قبيل تبدّل الموضوع، أي إسلام الكافر وإيمانه، وبذلك يصير كالآخرين.

ما هو معنى خطاب الله لأهل بدر: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ) فصلت: ٤٠ .؟

قد روى كثير من المحدّثين وعلى رأسهم البخاري صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن برقم ٤٨٩٠، وكتاب الجهاد والسير برقم ٣٠٠٧. ومسلم في صحيحيهما، أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)كلّم حاطب بن أبي بلتعة في ما صدر عنه، فاعتذر بعذر مرّ نقله، وعندئذ قال عمر للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم): دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): إنّه شهد بدراً، وما يدريك لعلّ الله اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، ونزلت الآية:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ...)فيه. نقله في «الدر المنثور» وقال: أخرجه، أحمد، والحميدي، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وأبو عوانة، وابن حبان، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، وأبو نعيم معاً في الدلائل الدر المنثور:٩/١٢٥..

ولا تصح المناقشة في السند، لأنّه مروي في الصحيحين ـ على رأي القوم ـ وغيرهما من كتب الحديث ولا محيص من دراسة مضمونه على ضوء الكتاب والسنّة المتواترة والعقل الحصيف.

ومن المعلوم أنّ ردّ الرواية، ليس بمعنى ردّ قول النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)فإنّه كفر وإلحاد وإنّما هو ردّ لمن يروي الحديث. وقد قال أبو حنيفة:أُكذّب هؤلاء ولا يكون تكذيبي لهؤلاء وردّي عليهم تكذيباً للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، إنّما يكون التكذيب لقول النبي(صلى الله عليه وآله وسلم): أن يقول الرجل أنا مكذّب لقول نبي الله(صلى الله عليه وآله وسلم)؛ فأمّا إذا قال الرجل: أنا مؤمن بكلّ شيء تكلّم به النبي، غير أنّ النبي لا يتكلّم بالجور، ولم يخالف القرآن، فإنّ هذا القول منه هو التصديق بالنبي والقرآن، وتنزيه له من الخلاف على القرآن، ولو خالف النبي القرآن وتقوَّلَ على الله غير الحق، لم يدعه اللهُ حتى يأخذه باليمين، ويقطع منه الوتين كما قال الله عزّ وجل:(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَد عَنْهُ حَاجِزِينَ) الحاقة:٤٤ـ٤٧، ونبي الله لا يخالف كتاب الله تعالى، ومخالفُ كتاب الله لا يكون نبي الله. العالم والمتعلم:١٠٠ـ١٠١.

إذا عرفت ذلك فلندرس مضمون الرواية على ضوء المقاييس الثلاثة التي ذكرناها:

أمّا على ضوء القرآن الكريم، فأوّلاً: إنّ ظاهر آيات سورة الممتحنة أنّ كاتب الرسالة ـ أعني: حاطب بن أبي بلتعة ـ كان مستحقاً للجزاء غير أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)عفا عنه بحجة أنّه بدري، فلو أباح سبحانه للبدريين اقتراف المحرّمات، فلا مبرّر لتوجيه اللوم والذمّ إليه إلى حدّ طلب عمر من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)أن يضرب عنقه!! وهذا دليل على أنّ جزاءه كان هو القتل أو نحوه، ولم يردّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)على عمر ويقول له: إنّه لا يستحقّ الجزاء، بل إنّه عفا عنه.

وثانياً: كيف يمكن القول بأنّ الله أباح لهم المحرّمات وأضاء لهم الضوء الأخضر لاقترافها، مع أنّه يذمّهم في مورد الأسرى ويقول: (مَا كَانَ لِنَبِيّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) الأنفال:٦٧ـ٦٨. ؟

فإنّ الآية الأُولى خطاب لمن هو دون النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) من المؤمنين الذين رغبوا في أخذ الفداء من الأسرى قبل أن تضع الحرب أوزارها، رغبوا في الحرب لأجل الغنيمة قبل أن يثخنوا في الأرض، حيث إنّ أخذ الفداء قبل الإثخان في الأرض وقبل تمكّن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ومن معه من التسلّط التام على الخصم، أمر مرغوب عنه على نحو أنّه لولا (كتاب من الله سبق) لعمّهم العذاب.

فلو كان البدريون مرفوعة عنهم التكاليف، فما معنى هذا التنديد بهم؟!

وأمّا على ضوء السنّة الشريفة، فإنّ مِسْطَح بن أثاثة كان بدرياً، وقد جلده النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في قصة الإفك، يقول الجزري: «شهد مسطح بدراً وكان ممّن خاض في الإفك على عائشة فجلده النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)فيمن جلد، وكان أبو بكر ينفق عليه فأقسم أن لا ينفق عليه، فأنزل الله تعالى:(وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ)(النور: ٢٢ .) فعاد أبو بكر ينفق عليه.(أُسد الغابة في معرفة الصحابة:٤/٣٥٥.)

فلو كان البدريون ـ ومنهم مسطح ـ مخاطبين بقوله:اعملوا ما شئتم، لأصبحوا أحراراً في قولهم وعملهم، فلماذا جلد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) مسطحاً فيمن جلد في ذلك؟!

وأمّا العقل الحصيف، فإنّ لازم ذلك عدم قبول رواية أي بدري منهم، لأنّه سبحانه تبارك وتعالى أباح لهم اقتراف الكبائر ومنها الكذب، والمفروض أنّهم ليسوا بمعصومين فإذا حدّثوا بحديث وتطرّق احتمال الكذب إليه، فلا يمكن الأخذ به.

وما ربما يقال: «إنّ الله سبحانه يحفظ هؤلاء عن اقتراف المعاصي والذنوب، وإن كان غفر له لو اقترف» غير صحيح، فمن أين يقال: إنّه سبحانه يحفظهم من هذه المعاصي، وهذا هو مسطح لم يحفظه من الإفك الذي هو من أكبر المعاصي؟ وهذا هو حاطب بن

أبي بلتعة قد تجسّس لصالح الكفّار ولم يحفظه الله سبحانه؟

وبذلك ظهر أنّ الحديث مهما صحّت أسانيده لا يمكن الأخذ بمضمونه، لأنّه يغاير المعايير الثلاثة.

الآيتان ٨- ٩. (لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ.... فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ):

٨ و ٩. (لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ):

أمر الله سبحانه المؤمنين، في الآيات السابقة، أن لا يتّخذوا الكافرين أولياء للأسباب التي تقدّم ذكرها، ثم خاطبهم في هذه الآيات ليرشدهم إلى النهج الذي عليهم أن يسلكوه في تعاملهم معهم، والذي يتحدّد ـ كما قلنا ـ على أساس موقفهم، أي موقف الكافرين من الإسلام وأهله، ولذا ميّز هنا بين فريقين منهم: فريق ناصبهم العداء ومارس ضدهم سياسة القتل والقمع والتضييق ليصدُّوهم عن عقيدتهم، وفريق تجنّب الدخول معهم في صراع ونزاع دموي، ولم يتسبّب في إبعادهم عن ديارهم، فقال عزّ من قائل:

(لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ)أي لأجل إيمانكم بالله ورسوله، و(لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ)بإيجاد التضييق لمغادرة الديار، ولذلك صاروا مستحقّين لأمرين:

١. (أَنْ تَبَرُّوهُمْ) بحسن المعاملة معهم.

٢. (وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ) أي أن تتحرّوا العدل في علاقاتكم معهم تعاملوهم بمثل ما يعاملونكم، حيث (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)من غير فرق في إجرائه على المسلم والكافر.

وتسأل: هل الآية تعمّ الكافر الذميّ والمشرك المعاهد والمشرك غير المعاهد إذا لم ينصبوا العداء للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) والمؤمنين ولم يقاتلوهم، ولم يضيّقوا عليهم حتى يضطروهم إلى مغادرة ديارهم؟

أو أنّ الآية تختص بالقسمين، الذميّ والمشرك المعاهد، ولا تعمّ غيرهما؟

الظاهر هو الأوّل؟ واختار السيد الطباطبائي (رحمه الله) القول الثاني، وتظهر الثمرة في منسوخية الآية في غير المُعاهد، حيث أمر سبحانه بقتل المشرك غير المعاهد في قوله: (فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَد). التوبة:٥. إلى أن قال: (إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ)(التوبة: ٧ .).

فلو قلنا بعموم الآية وشمولها للمشرك غير المعاهد، للزم القول بنسخ العموم بما في سورة التوبة، ولو قلنا بعدم الشمول لم يلزم النسخ. لكن النتيجة على كلا القولين واحد.

وحصيلة الكلام: أنّ الآية تقسّم الكفّار إلى قسمين: بين مَن يرخّص الإحسان إليهم وحسن المعاشرة والمعاملة بإجراء القسط والعدل الذي هو من مظاهر الحب والودّ غير المضرّ بالدين، وبين مَنْ لا يجوز تولّيهم وحبهم ووِدادهم على نحو لو تولاهم يكون هو الظالم، حيث يعتدي على حقوق الله وحقوق المسلمين.

هذا هو المفهوم من الآيتين عندنا، والعلم عند الله.

هذا وقد دُعيت لإلقاء محاضرة حول التشيع والأُصول المشتركة بين الفريقين خلال زيارتنا إلى المملكة الأُردنية، وكان الحضور واسعاً، وبعد نهاية المحاضرة بدأت المناقشة، فقام أحد الحاضرين وقال: ما رأيكم في الصلح مع إسرائيل؟

فأجبت: بأنّ الله سبحانه قد بيّن لنا مَن يجوز لنا الصلح معه في آيتين من سورة الممتحنة ثم قرأت الآيتين، ومن المعلوم أنّ العدو الصهيوني من أوضح مصاديق الآية الثانية حيث أخرجوا المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً من ديارهم وقاتلوهم، فهم أحق بأن

يقاتلوا حتى يتركوا الديار لأهلها، ولأنّهم لا يؤمنون إلاّ بمنطق القوة، ولا يقابل هذا المنطق إلاّ بمثله.

تلك الديار المقدسة أُخذت بالنار والحديد والحرب، فلا تعود إلاّ بالنار والحديد والحرب، ففكرة الصلح إضاعة للوقت وإعطاء فرصة للخصم، ليفرض سيطرته أكثر على الأرض، ويمدّ جذوره إلى كل مكان. وحتى لو أقدم هذا العدو على توقيع معاهدة مع الآخرين، فإنّها كفّ يهودية لم تلبث أن تغدر وتنقض العهد ما إن تعلو وتشعر بالقوة، كما يشهد لذلك تاريخهم الأسود.

لا شكّ أنّ القرآن الكريم حثّ على الصلح وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً) البقرة:٢٠٨. ، كما حثّ على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وقال: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)(النحل:١٢٥.)، لكن كلّ ذلك مع من يؤمن بالسلام الحقيقي وبالتعايش السلمي بين الناس، ومع مَن يحترم العهود والمواثيق لا مع من يعاهد عهداً في يوم وينبذه في يوم آخر.

وهنا كلام للأُستاذ خالد محمد خالد نقله صديقنا الشيخ محمّد جواد مغنية (رحمه الله) في تفسيره الكاشف، نقتبس منه ما يلي:

قال: والآن فلنسأل أنفسنا وسكان الأرض جميعاً: مَن من الدول يقاتلنا في ديننا، ويخرجنا من ديارنا، ويظاهر على إخراجنا؟ مَن الذين شرّدوا عرب فلسطين، وانتهبوا منهم أموالهم وأرضهم وعرضهم وديارهم...، مَن الذين مكّنوا إسرائيل وزوّدوها بالمال والعتاد، وقالوا لها كوني شوكة الجنب للعرب...؟ مَن الذين قتلوا ولا يزالون يقتلون الكهول والولدان والنساء؟ مَن الذين حبسوا عنّا السلاح وسرقوا أقواتنا؟... مَن الذين يقفون في المحافل الدولية ضد حقوقنا، ويناصرون علينا أعداءنا.(التفسير الكاشف:٣٠٤/٢٨.)

الآيتان ١٠ ـ ١١ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَات.. وَاتَّقُوا اللهَ الذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ):

الآيتان: العاشرة والحادية عشرة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَات فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَات فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَ لِيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ):

المفردات

العصمة في اللغة: المنع، قال تعالى:(لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ)والعِصَم جمع العصمة وهو ما يعتصم به من عقد وسبب، والمعنى لا تتمسّكوا بنكاح الكافرات، وسمّي النكاح عصمةً لأنّ المرأة بالنكاح ممنوعة من غير زوجها. مجمع البحرين: مادة «عصم».

(الْكَوَافِرِ): جمع الكافرة.

(مُهَاجِرَات): حال من قوله: (الْمُؤْمِنَاتُ).

(مُؤْمِنَات): مفعول ثان لـ(عَلِمْتُمُوهُنَّ).

قوله: «فلا ترجعوهن»بمعنى لا تردّوهنّ، بشهادة تعدّيه بـ «إلى».

التفسير

١٠. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَات فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَات فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَ لِيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

قبل البدء في تفسير الآية نذكر شأن نزولها حيث إنّها نزلت بعد صلح الحديبية، فقد عقد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)مع المشركين صلحاً يشتمل على مواد وبنود نذكر منها ما يلي:

١. وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض.
٢. أنّه مَن أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممّن مع محمد لم يردّوه عليه.
٣. أنّه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

وعلى ضوء الفقرة الثالثة، دخلت خزاعة في عقد رسول الله وعهده، ودخل بنو بكر في عهد قريش وعهدهم.

ولما تمّت المعاهدة رأى سهيل بن عمرو(وهو المفاوض عن جانب قريش لعقد المعاهدة) ابنه أبا جندل يرسُف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)فقام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ثم قال: يا محمد لقد لجّت القضية (أي تمّت) بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت، فأخذ يجرّه ليردّه إلى قريش. انظر: السيرة النبوية:٢/٣١٨.

ثم إنّ هذه المعاهدة صارت سبباً لهجرة المؤمنات من نساء المشركين إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، يقول ابن هشام: وهاجرت إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أُم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فخرج أخواها عُمارة والوليد ابنا عقبة حتى قدما على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يسألانه أن يردّها عليهما بالعهد الذي بينه وبين قريش في الحديبية، فلم يفعل، أبى الله ذلك. السيرة النبوية:٢/٣٢٥ـ٣٢٦.

ويظهر من غير واحد ممّن ذكر القصة أنّ المهاجرات كنّ أكثر من واحدة، فقد ذكر الطبرسي أنّه: جاءت سُبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمةً بعد الفراغ من الكتاب والنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)بالحديبية، فأقبل زوجها (مسافر بن مخزوم) في طلبها وكان كافراً، فقال: يا محمد أُردد عليّ امرأتي، فإنّك قد شرطت لنا أن تردّ علينا، وهذه طينة الكتاب لم تجف، فنزلت الآية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ ...).

وممن فررنَ من مكّة (أميمة بنت بشر) كانت عند (ثابت بن الدحداحة) وهو يومئذ كافر، فجاءت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فزوّجها من (سهل بن حنيف) إلى غير ذلك من النساء.

والظاهر من صلح الحديبية هو ردّ الرجال دون النساء، وقد نُقل أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «الشرط بيننا في الرجال لا في النساء» و يشهد على ذلك أنّ المرأة إن أسلمت لم تحلّ لزوجها الكافر فكيف تُردّ عليه. مجمع البيان:٩ـ١٠/٤١١.

وبعد بيان سبب النزول نعود إلى تفسير الآية فنقول: لمّا نهى سبحانه عن موادّة الكفّار الذين وصفهم بكونهم أعداءً لله وللمؤمنين، بيّن في هذه الآية والآية اللاحقة حُكم النساء اللاّئي يفارقن أزواجهنّ ويخرجن إلى بلد العدوَ، وهنّ على قسمين:

فتارة تهاجر المرأة من دار الشرك إلى دار الإسلام وتفارق زوجها المشرك لأجل إسلامها، وأُخرى ترتدّ المسلمة وتفارق زوجها المسلم وتلحق بدار الشرك، فالآية تتضمن حكم كلا القسمين، من غير فرق بين من هاجرت إلى الإسلام أو ارتدّت عنه، كما تتضمن أحكاماً كلّها تكشف عن تبنّي العدالة في الموارد كلّها، وأن التبرّي من الشرك لم يدفع الحاكم إلى الخروج عن حدّ العدالة. ويظهر ذلك من دراسة الأحكام الواردة في الآية واحداً بعد الآخر.

١. امتحان المهاجرات من مكة

يقول سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَات فَامْتَحِنُوهُنَّ) حتى يتبين أنّهن معتقدات بالإسلام، والامتحان دليل على كونهن مسلمات في الظاهر، وأمّا الواقع فـ(اللهُ أَعْلَمُ بِإِيَمَانِهِنَّ)وحقيقة الأمر.

والآية دليل على أنّ من أظهر الإسلام ولم تدل القرائن على نفاقه فهو محكوم بالإسلام، ونحن مكلّفون بالظاهر دون الواقع.

وأمّا كيفية امتحانهن، فهو ما روي عن ابن عباس: أنّ امتحانهن أن يحلفن ما خرجن إلاّ للدين والرغبة في الإسلام ولم يخرجن لبغض أزواجهن ولا لالتماس دنيا.

وربما قيل في وجه الامتحان قولان آخران غير ظاهرين. مجمع البيان:٩ـ٤١١/١٠.

٢. حرمة ردّهن إلى أزواجهنّ

إذا ثبت إيمانهنّ فلا يحلّ ردّهنّ إلى أزواجهنّ الكفّار، وقد سبق أنّ ما تعهّد به النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)من ردّ مَنْ جاء من دار الشرك إلى دار الإسلام لا يشمل النساء، ولذا قال: (فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَات فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ)وعبّر عن الأزواج بالكفّار تعليلاً للحكم وأنّ كفر الأزواج هو المانع من ردّهنّ.

ثم علّله بوجه آخر وقال: (لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ) فإسلام المرأة يقطع صلتها مع زوجها، والفقرة الثانية كأنّها لتأكيد الفقرة الأُولى؛ وذلك لأنّه إذا لم تحلّ النساء المؤمنات لأزواجهنّ المشركين، لم يحلّ أزواجهنّ الكفّار لهنّ؛ لأنّ حرمة أحد الطرفين يلازم حرمة الطرف الآخر، ولهذا النوع من الكلام الظاهر في التأكيد نظير في الكتاب العزيز، كقوله سبحانه: (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) البقرة:١٨٧، وقوله:(أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى). القيامة:٣٤.

٣. ردّ ما أخذ من المهور إلى أزواجهنّ

إنّ المرأة المسلمة إذا تركت زوجها المشرك والتحقت بالإسلام والمسلمين، وانقطعت الصلة بينهما يتوجه ضرر إلى زوجها المشرك، لأنّه نكحها بمهر تمّ تسليمه لها.

فلأجل ذلك أمر سبحانه بردّ المهر الذي بذله لها(وآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا). والقائم بهذا الأمر هو الحاكم الإسلامي فيدفع من بيت المال ما يساوي مهرها. وفي التعبير عن المهر بـ(مَا أَنْفَقُوا)دلالة على انقطاع الصلة بينهما، فلم يسمّه«مهراً» بخلاف الفقرة اللاحقة حيث سمّاه فيها«أجراً».

٤. جواز نكاحهنّ مع المهر

فإذا أسلمت الزوجة المشركة والتحقت بدار الإسلام فهي بحاجة إلى مَن يحميها بنكاح وإنفاق، والله سبحانه يسوّغ للمسلمين تزويج هؤلاء بشرط جعل المهر لها حتى لا تتصوّر المرأة بخلو نكاحها عن المهر فقال: (وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)فلا يتصوّر أنّ ما دفع للزوج السابق مُسقط لاستحقاق المرأة المهر من الزوج الثاني، أو أنّ ما أخذته المرأة من زوجها السابق مسقط لأخذ المهر من الزوج الثاني. نعم يجوز نكاحهنّ مع جعل المهر بعد الاستبراء وانقضاء العدة من المشرك إذا كان قد دخل بها.

٥. حرمة بقاء الكوافر في عصمة المسلمين

لمّا نهى سبحانه عن إبقاء الصلة بين المسلمة والكافر، كان ثمة رجال قد أسلموا وهاجروا إلى المدينة، بينما بقيت نساؤهم على الكفر في قلة، فجاءت الآية لبيان تكليف هؤلاء الأزواج، فقال سبحانه: (وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ)أي لا تمسكوا بنكاح الكافرات من غير فرق بين كونها كافرة أو ذمّية، وإن كان نزول الآية في مورد المشركات لكن المعيار إطلاق الآية.

قال الشريف الرضي (رحمه الله): وهذه استعارة والمراد بها: لا تقيموا على نكاح المشركات وخلاط الكافرات، فكنّى سبحانه عن العُلق التي بين النساء والأزواج بالعصم، وهي هاهنا بمعنى الحبال لأنّها تصل بعضهم ببعض وتربط بعضهم إلى بعض، وإنّما سُمّيت الحبال عصماً لأنّها تعصم المتعلّق والمتمسّك بقوتها. تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٢٨٧ .

وعلى أي تقدير فالآية تنهى عن إبقاء النكاح إذا كانت الزوجة مشركة كما هو مفاد قوله:(ولا تمسكو بعصم الكوافر)، وأمّا العكس ـ أعني: إذا أسلمت الزوجة وكان الزوج مشركاً ـ فحكمه يُعلم من قوله: (ما هُنَّ حلٌّ لَهُمْ ولا هُمْ يحلّون لهنّ)، ويترتب على ذلك أنّه لو كان الزوجان مشركين وأسلم هو من دونها حرمت عليه لانقطاع العصمة بينهما، وكذلك العكس إذا أسلمت هي من

دونه، وهكذا في صورة ثالثة أعني: إذا كان مسلمين وارتدّ أحدهما عن الإسلام، ففي هذه الصور الثلاث يصدق قوله سبحانه: (وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ).

٦. إعطاء ما عليه وأخذ ما له

قوله: (وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَ لِيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا)تتميم لقوله: (وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)؛ وذلك لأنّ المرأة إذا أسلمت والتحقت بدار الإسلام، يكون ذلك ضرراً للزوج المشرك، حيث إنّه دفع مهرها عند زواجه منها. وهكذا العكس فإذا أسلم الزوج والتحقت الزوجة بدار الكفر يتضرر الزوج المسلم، وذلك لأنّه تزوجها بمهر مسلّم إليها.

ففي هذه الفقرة يأمر سبحانه كل زوج أن يسأل عمّا أنفق، وقدّم حكم الصورة الثانية ـ أعني: إذا التحقت الزوجة المسلمة بدار الكفر ـ وقال: (وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ) كما بيّن حكم الصورة الأُولى وقال: (وَ لِيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا)، ومعنى الفقرتين أنّهم إذا أعطوا ما عليهم، أعطُوهم ما عليكم.

ثمّ إنّه سبحانه يشير إلى أنّ هذه الأحكام هي مقتضى العدل بين الفريقين ويقول: (ذَلِكُمْ)أي: ذا، إشارة إلى الأحكام الماضية والضمير المتصل«كم» خطاب للمؤمنين، أي ما ذكر أيها المؤمنون (حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ)وحكمه ناشئ عن علم وحكمة، ولذلك قال: (وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

١١. (وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ):

الآية تتحدّث عن الزوجات المسلمات اللاتي ارتددن والتحقن بدار الكفر، ويعبّر عن تلك الحالة (فرار الزوجة إلى الكفّار) يعبر بلفظ (الفوت) فقوله: (وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ)كناية عن أنّ فرارها من قبيل الفوت فلا ينتفع بها، والفوت هنا كناية عن الفرار بقرينة تعدّيه بلفظ «إلى»، وحاصله أنّه لو فات شيء من المؤمنين بفرار زوجاتهم، فعلى المؤمنين أن يعطوا لأخوانهم ما يماثل مهور زوجاتهم، والمخاطب عموم المسلمين قال سبحانه: (فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ)والقائم بذلك هو الحاكم؛ ومعنى (شيء) أحد، أي إن فرّ أحد من أزواجكم إلى الكفّار فغزوتم وأصبتم من الكفار عُقبى (أي إذا غنمتم)، فأعطوا الزوج الذي فاتته امرأته من رأس الغنيمة، ما أنفقه من مهرها، وهذا هو المشهور من معنى الآية، ولا يخفى أنّ صدر الآية مشتمل على إيجاز وحذف شديد، يعلم مفاده من ملاحظة الآية مع ما سبقها.

نقل الطبرسي عن الزهري أنّه قال: فكان جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين، راجعات عن الإسلام ست نسوة: ١. أُم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شدّاد الفهري،٢. فاطمة بنت أبي أُميّة بن المغيرة أخت أُم سلمة، كانت تحت عمر بن الخطاب فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدّت، ٣. بروع بنت عقبة، كانت تحت شماس بن عثمان، ٤. عبدة بنت عبد العزى بن فضلة، وزوجها عمرو بن عبدود، ٥. هند بنت أبي جهل بن هشام، كانت تحت هشام بن العاص بن وائل، ٦. كلثوم بنت جرول، كانت تحت عمر، فأعطاهم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)مهور نسائهم من الغنيمة. مجمع البيان:٩ـ١٠/٤١٣.

الآية ١٢ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ.... إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ):

الآية الثانية عشرة:

١٢. (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوف فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ):

هل هذه الآية تكملة لامتحان النساء الذي تقدّم ذكره في قوله سبحانه:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَات

فَامْتَحِنُوهُنَّ)، أو أنّها آية مستقلة لا صلة لها بالنساء المهاجرات إلى المدينة، بل نزلت في مكة المكرمة عند فتحها في مورد النساء المشركات اللائي أردن الدخول في حظيرة الإسلام؟

ظاهر الروايات هو الثاني، ويؤيده أنّ النساء المهاجرات كنّ غنيّات عن البيعة بعد امتحانهنّ، كما أنّ الرجال أيضاً كانوا أغنياء عن البيعة عندما أسلموا، وإنّما يبايعون في الظروف الحرجة، كما في غزوة الحديبية أو في العقبة، حيث بايعوا النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) تحت الشجرة أو في العقبة.

وأمّا النساء المتظاهرات بالإسلام بعد فتح مكة، فبما أنّهنّ أظهرن الإسلام دون أن يُمتحنّ فصار اللازم أخذ البيعة منهن لتحلّ البيعة مكان الامتحان.

وعلى كلّ تقدير، فقد بايعت النساء النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) على أُمور بعضها مشترك بين الرجال والنساء والبعض الآخر يختصّ بهن، وإليك تفسيرها:

قوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ) فالجملة قضية شرطية جوابها ما يأتي بعد بيان شروط البيعة، أعني قوله: (فَبَايِعْهُنَّ).

وعلى هذا فجملة: (يُبَايِعْنَكَ) جملة حاليّة، أي إذا جاءتك المؤمنات وهن مستعدّات للبيعة، فبايعهنّ على الأُمور التالية:

١.(عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللّهِ شَيْئًا) من عبادة الأصنام والأوثان وغيرها.

٢. (وَلاَ يَسْرِقْنَ) لا من أزواجهنّ ولا من غيرهم، وخاصة في الحالة الثانية.

٣. (وَلاَ يَزْنِينَ) ولعلّه كناية عن اتخاذ الأخدان والزنا سرّاً.

٤. (وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ) على وجه من الوجوه لا بالوأد، ولا بالإسقاط.

٥. (وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَان يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ)، ولعلّه كناية عن اقترافهنّ الزنا، وبالتالي حصول الحمل في أرحامهنّ ونسبته إلى الزوج.

ويؤيد هذا المعنى أنّ الولد إذا وضعته أُمه سقط بين يديها ورجليها، وهذا الشرط غير الشرط المتقدّم، أعني:(وَلاَ يَزْنِينَ)، فهو يؤكد على التجنب عن الزنا، من دون نظر إلى ما يتولّد منه، بخلاف هذا الشرط فإنّه ناظر إلى ما يحصل من هذا الأمر الشنيع من الولد، وربما يفسّر بالتقاط المولود وإلحاقه بزوجها، وذلك بعيد إذ ليس ذلك بهتاناً مفترى بين أيديهن وأرجلهن.

٦.(وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوف) أي جميع ما يوصف بالمعروف عند العقل والشرع، ولكن نسبة العصيان إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يكون قرينة على خصوص ما ورد في الكتاب والسنة من المعروف كالصلاة والزكاة، فلا يعمّ ما هو المعروف عقلاً.

قوله سبحانه: (فَبَايِعْهُنَّ) أي على الشروط المذكورة.

قوله سبحانه:(وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، أمر رسوله(صلى الله عليه وآله وسلم) بالاستغفار لهنّ لِما اقترفن من المعاصي أيام الجاهلية فاستحققنّ العقاب بعد إتمام الحجة ببعثة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وبلوغ دعوته إليهن. وأتمّ سبحانه الآية بقوله: (إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وكأنّه تعليل لاستجابة دعائه وشمول مغفرته سبحانه لهنّ.

هذا ما يستفاد من الآية، وفي الروايات بيان لكيفية المبايعة، نذكر منها ما يلي:

روى البخاري عن ابن عباس قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)فنزل فأقبل حتى أتى النساء فقال: (يَا أَيُّهَا النَّبِي إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللّهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ)حتى فرغ من الآية كلّها، ثم قال حين فرغ: أنتنّ على ذلك؟ قالت امرأة: نعم. لاحظ : صحيح البخاري برقم ٧٢١٣، باب بيعة النساء. ولاحظ : الدر المنثور:١٣٩/٨.

وروى السيوطي في «الدر المنثور» عن الشعبي قال: كان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)يبايع النساء، ووضع على يده ثوباً، فلمّا كان بعد، كان يخبر النساء فيقرأ عليهنّ هذه الآية: (يَا أَيُّهَا النَّبِي إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ)فإذا أقررن قال: قد بايعتكن، حتى جاءت هند امرأة أبي سفيان، فلما قال:(وَلاَ يَزْنِينَ)قالت: أوَ تزني الحرّة؟ لقد كنّا نستحي من ذلك في الجاهلية فكيف بالإسلام؟ فقال: (وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ)قالت: أنت قتلت آباءهم وتوصينا بأبنائهم، فضحك رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: (وَلاَ يَسْرِقْنَ)فقالت: يا رسول الله إنّي أصبت من مال أبي سفيان، فرخّص لها. الدر المنثور:٨/١٤٠.

وقال الصدوق: وفي رواية ربعي بن عبدالله (أنّه لما بايع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)النساء وأخذ عليهنّ، دعا بإناء فملأه ثم غمس يده في الإناء، ثم أخرجها، فأمرهنّ أن يدخلن أيديهنّ فيغمسن فيه). من لا يحضره الفقيه:٣/٤٦٩، كتاب النكاح، باب النوادر(٤٥٦)، الحديث ٤٦٣٧.

وروي عن عائشة أنّها قالت: كان النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يبايع النساء بالكلام وبهذه الآية: (أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً...) و ما مسّت يد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)يد امرأة قط إلاّ امرأة يملكها. تفسير نورالثقلين: ٨/٣٠٩، وقال: رواه البخاري في الصحيح.

الآية ١٣ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا.... مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ):

الآية الثالثة عشرة:

١٣. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ):

بعد أن نهى الله سبحانه المؤمنين عن إلقاء المودة إلى المشركين، واستقصى كيفية التعامل معهم وهم بين مُعاد ومعاهد، عاد مرّة ثانية لبيان حكم قسم من الكفار غير المشركين وهم اليهود وقد وصفهم في الآية بقوله: (غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ).

وقد تكرر هذا الوصف في كلامه سبحانه بالنسبة إليهم، قال سبحانه: (وَ بَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ). البقرة:٦١.

فنهى عن تولّيهم، وما هذا إلاّ لأجل الصلة والاتفاق بينهم وبين المشركين على عداء النبي(صلى الله عليه وآله وسلم).

فقد كان اليهود يحرّضون المشركين على قتال المسلمين، وربما يموّلونهم، حتى أنّ كعب الأشرف(رأس اليهود في بني النضير) ذهب إلى مكة المكرمة واتّفق معهم على القتال مرّت عليك قصّته في تفسير سورة الحشر، وعلى هذا فالآية تنهى عن موادّة المشركين، وعن موالاة اليهود، وكأنّ هاتين الطائفتين وجهان لعملة واحدة، ولذلك قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ). ثم إنّه سبحانه وصفهم بقوله: (قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ)، وبما أنّ اليهود غير منكرين للبعث فالمراد عدم اهتمامهم بالآخرة، فإعراضهم عن العمل بها بمنزلة كونهم آيسين منها.

ثمّ إنّه سبحانه شبّه اليهود بالكفّار وقال: (كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) يريد من الكفّار المشركين، فيأسهم بمعنى عدم الاعتقاد به.

وهنا سؤال يطرح نفسه: وهو وجود الاختلاف بين اليأسين، فاليهود كانوا معتقدين بالآخرة لكن غير مهتمين بها، لتوغّلهم في الماديات والدنيا، بخلاف المشركين فقد كانوا غير معتقدين بالحياة الأُخروية، فيأسهم من أصحاب القبور عبارة عن إنكار البعث بعد الموت، فكيف يصح التشبيه؟

والجواب: أنّ اليأس عبارة عن عدم توقع الشيء، فتارة ينطبق على عدم الاهتمام به كما هو الحال في يأس اليهود، فصاروا كأنّهم غير معتقدين بوجود الآخرة، وأُخرى بعدم الاعتقاد به كما هو الحال عند المشركين فصحّ تشبيه أحد اليأسين بالآخر لجامع بينهما، وهو اليأس من أصحاب القبور.

تمّ تفسير سورة الممتحنة

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين

٦١- سورة الصف

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)

خصائص السورة

سمّيت هذه السورة باسم سورة الصف لقوله تعالى فيها: (إنّ اللهَ يُحِبُّ الّذِينَ يُقاتِلُونَ في سَبيلِهِ صَفّاً).

وربّما تسمّى بـ (سورة عيسى) لقوله تعالى فيها: (وَإذْ قالَ عيسى ابنُ مَرْيَمَ)، وثالثة تسمّى بـ (سورة الحواريين) لقوله تعالى: (يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللهِ كَما قالَ عِيسى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ).

فلو كانت تسمية السور توقيفية، فيجب أن لا تسمّى السورة إلاّ باسم يتّصل بزمان النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وإلاّ فيجوز تسميتها بالأسماء الثلاثة.

عدد آياتها ومحل نزولها

آياتها أربعة عشرة آية بلا خلاف، وهي مدنية يشهد على ذلك صياغة آياتها ومضامينها.

أغراض السورة

السورة ترغب المؤمنين وتحرّضهم على الجهاد في سبيل وقتال الأعداء، ثم يبشرهم بسطوع هذا الدين وانتشاره في أرجاء الدنيا، وأنّ من يريد إطفاء نوره فهو خائب.

ثم إنّ السورة ترشد المؤمنين إلى تجارة تنجيهم من عذاب أليم ألا وهي الجهاد في سبيل الله بالأنفس والأعمال وليقتدوا بذلك بحواريي عيسى بن مريم (عليه السلام).

الآيات ١ ـ ٤ (سَبّحَ للّهِ ما في السّمواتِ وَما في الأرْضِ.... كأنّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ):

الآيات: الأربع الأُولى

(سَبّحَ للّهِ ما في السّمواتِ وَما في الأرْضِ وَهُوَ العَزيزُ الحَكيمُ * يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ * إنّ اللهَ يُحِبُّ الّذينَ يُقاتِلُونَ في سَبيلِهِ صَفّاً كأنّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ):

المفردات

الصفّ: عدد من أشياء متجانسة منتظمة الأماكن، كصف المصلّين، وصفّ الجيش في ميدان القتال، وهو هنا كناية عن الانتظام وكونهم كيد واحدة.

المرصوص: من رصّ يرصُّ رصّاً، الشيء: ألصق بعضه ببعض وضمّه فهو مرصوص، يقال: تراصّ القوم: تضامّوا وتلاصقوا.

التفسير

١. (سَبَّحَ للّهِ ما فِي السَّمواتِ وَما فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

بدأ سبحانه هذه السورة بذكر تسبيح ما في السماوات وما في الأرض له تعالى، ثم وصف نفسه بوصفين هما: العزيز والحكيم، وفي هذين الوصفين إشارة إلى أنّه سبحانه هو ولي المسلمين القادر على نصرهم على الأعداء في معترك الجهاد، وأنّ الأمر بالجهاد إنّما صدر عن حكمة، وليست الغاية تغليب قوم على قوم، بل الغاية نشر التوحيد ورفض الثنوية. وبما أنّا استوفينا الكلام في تسبيح الكائنات للّه سبحانه خلال تفسيرنا لسورة الحشر، فلا حاجة لإعادة الكلام فيه.

٢ و ٣. (يا أَيُّها الّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ):

ندّد اللّه سبحانه في هاتين الآيتين بمن يقول ويَعِد بأمر، ثم تضعف إرادته وتقعد به همّته عن الوفاء بذلك، ومثل هذا الشخص ممقوت عند الله إذ يقول ما لا يفعل، وينكص عمّا وعد، و«المقت» هنا هو البغض الشديد، وقد ذكر المفسّرون في شأن نزول الآية أنّها نزلت في قوم كانوا يقولون: إذا لقينا العدو لم نفرّ ولم نرجع عنهم، ثم لم يفوا بما قالوا: وانفلّوا يوم أُحد حتى شُجّ وجه رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) وكُسرت رَباعيَتُه. وقيل في شأن نزول الآية غير ذلك.

وفي هذا المعنى، يأتي قول الإمام عليّ، مخاطباً المتثاقلين والمتخلّفين عن القتال معه:

«أيّها الناس، المجتمعةُ أبدانُهم، المختلفةُ أهواؤهم، كلامُكم يوهي الصُمّ الصِّلاب، وفِعلُكُم يُطمِعُ فيكمُ الأعداءَ.

تقولون في المجالس: كَيْتَ وَكَيْتَ، فإذا جاء القتالُ قلتم: حِيدي حَيادِ!» نهج البلاغة: الخطبة٢٩ .

يخاطبهم(عليه السلام) فيقول لهم: متكلّمون بما هو في الشدّة والقوة يُضعف (يُوهي) الجبال الصُمّ الصُّلبة، وعند الحرب يظهر أنّ ذلك الكلام لم تكن له ثمرة.

تقولون في المجالس: سنفعل ونفعل (كيتَ وكيتَ)، فإذا جاء القتال فررتم وقلتم الفِرار الفِرار(حِيدي حَيادِ).(شرح نهج البلاغة :١١٢/٢).

لا شكّ في أنّ العالم غير العامل بعلمه أكبر ممقوت عند الله، ذلك أنّ دعوة الناس إلى الجهاد والإنفاق ومواساة الناس، وإلى التحرّز عن الغيبة والكذب وغير ذلك من رذائل الأعمال، توجِد عند الناس رغبة في الإقدام على صالح الأعمال والتحلّي بمكارم الأخلاق، لكن تخلّفه عن العمل بما يأمر به الناس، قد يولّد في نفوس الناس تأثيراً سلبياً، وتزلزلاً في الإيمان والعقيدة.

ولأجل أنّ لتخلّف القول عن العمل أثراً سلبياً في نظر الناس، عدّ الإمام علي(عليه السلام)العالم المتهتك من قواصم الظهر، وقال: «قصم ظهري اثنان: جاهل متنسّك، وعالم مُتهتّك؛ فالجاهل يغشّ الناس بتنسّكه، والعالم يغرّهم بتهتّكه». بحارالأنوار:١١١/٢.

ويلاحظ : شرح نهج البلاغة: ٢٠ / ٢٨٣ .

وقد نُسب إلى السيد المسيح(عليه السلام) أنّه قال:«أشقى الناس من هو معروف عند الناس بعلمه، مجهول بعمله». بحارالأنوار:٢٧٨/٢.

وبهذا يظهر سرّ قوله سبحانه: (كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ).

وليست هذه الآية فريدة في موضوعها، بل قد ورد النهي عن القول بلا عمل في آيات عديدة نشير إليها، يقول سبحانه: (أَتَأْمُرُونَ النّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ). البقرة:٤٤.

وقد ذمّ الله سبحانه الشعراء لأنّ أكثرهم يقولون مالا يفعلون، قال سبحانه: (وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الغاوُونَ* أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ في كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ* وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ). الشعراء:٢٢٤ـ ٢٢٦.

فالشعر بما هو شعر موهبة إلهية فلو استخدمها الإنسان في الدعوة إلى المثل والقيم وجهاد الأعداء لكان استخداماً للموهبة (النعمة) في محلّها، وأمّا لو استعملها في المجون والفساد والتشبيب، لكان استخداماً للموهبة في غير محلّها ويعد عمله كفراً بالنعمة. وهذه الآية تذمّ الشعراء من حيث إنّهم يتّبعون الهوى، فيمدحون ويذمّون بالباطل، ومن حيث إنّهم يقولون ويحثّون على أشياء لا يفعلونها هم، وينهون عن أشياء يرتكبونها انظر: التبيان في تفسير القرآن:٨/٧٠ـ٧١. ولذا استثنى سبحانه منهم المؤمنين المجاهدين، وقال: (إلاّ الّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللّهَ كَثيراً وَانْتَصَروا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا...). الشعراء:٢٢٧.

وفي آية ثالثة يخاطب الله سبحانه علماء اليهود بأنّهم لا يرتقون إلى درجة الرّبّانية إلاّ إذا عملوا بالكتاب وبما يدرسون به الناس، قال سبحانه: (وَلـكِنْ كُونُوا رَبّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكتابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ). آل عمران:٧٩.

وأخيراً، فإنّ الموصوفين بالهداية وأنّهم أصحاب العقول على الحقيقة، هم الذين يستمعون قول الله تعالى ويستجيبون له بالعمل والاتّباع، قال سبحانه: (فَبَشِّرْ عِبادِ* الّذينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنه* أُولئِكَ الّذِينَ هَداهُمُ اللّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبابِ). الزمر:١٧ـ ١٨.

وأوضح دليل على أنّ القول المجرد عن العمل لا يؤثر في مسير الإنسان أنّه سبحانه قرن الإيمان في كثير من الآيات بالعمل، وقال: (إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ) وقال: (إنّ الّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ)...

إنّ تخلّف المرشد عن العمل يعرب عن عدم اعتقاده الراسخ، كما يقول سبحانه: (إنَّما يَخْشى اللّهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ). فاطر:٢٨.

فكأنّه سبحانه يقول: إنّما يخشى الله من عباده العلماء العاملون بعلمهم؛ وذلك لأنّ الخشية التي هي خضوع قلبي للمولى سبحانه لا تنفكّ عن العمل، فتكون النتيجة هي أنّ من لم يعمل بعلمه فليس بعالم، وإلى ذلك يشير الإمام الصادق(عليه السلام) بقوله: «العالم من صدّق قوله فعله، ومن لم يُصدِّق قوله فعله فليس بعالم».

الدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال واجتناب الرذائل ومساوئ الأخلاق

الدعوة العملية أكثر تأثيراً

الدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال واجتناب الرذائل ومساوئ الأخلاق، تقوم على دعامتين:

١. البيان الواضح والخطاب المفهوم لدى المخاطبين.

٢. الالتزام العملي بما يدعو إليه الناس.

فإنّ لكلّ منهما تأثيراً، لكن الثاني أعظم تأثيراً، حيث إنّ العمل يحكي عن الاعتقاد الراسخ والثبات عليه لدى الداعي بما يدعو إليه.

وأفضل وسيلة لنشر الفضائل والقيم والأخلاق الحسنة، هي دعوة الناس بغير اللسان، ولذا ورد عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) قوله: «كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع». أُصول الكافي:٢/١٠٥، الحديث١١. فإذا لم يكن الفعل موافقاً للقول، فإنّ أثره في النفوس يضعف، بل تبدّد في الهواء، وإلى هذا يشير الإمام الصادق(عليه السلام) بقوله: «إنّ العالم الذي لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزلّ المطر عن الصفا». أُصول الكافي:١/٤٤، الحديث٣.

النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) هو الأُسوة

القرآن الكريم يعدّ نبي الإسلام أُسوة في كافّة المجالات، قال سبحانه: (لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا

اللّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللّهَ كَثِيراً). الأحزاب:٢١.

فكان(صلى الله عليه وآله وسلم) يعمل بما يأمر قبل كلّ مسلم، ويطبّق ما يأمر به بأحسن وجه وأتمّه، فإذا خاطب الناس بقوله: (إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ) كان هو الباسل المقدام في المعارك إلى حدّ وصفه الإمام علي(عليه السلام) بقوله: «كنّا إذا احمرّ البأس اتّقينا برسول الله، فلم يكن أحد منّا أقرب إلى العدو منه». نهج البلاغة، الكلمات القصار، برقم ٩.

وفي رسالته إلى معاوية قال(عليه السلام): «وكان رسول الله إذا احمرّ البأس وأحجم الناس قدّم أهل بيته فوقى بهم أصحابه حرّ السيوف والأسنّة، فقُتل عبيدة بن الحارث يوم بدر، وقُتل حمزة يوم أُحد، وقُتل جعفر يوم مؤتة».(نهج البلاغة، الرسالة رقم ٩.)

وبما أنّ للعمل تأثيراً بالغاً في نفوس الناس يقول الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام): «من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه». نهج البلاغة، قسم الحكم، برقم ٧٣.

قلنا: بأنّ التبليغ عملاً آكد من التبليغ لفظاً،وهذا ما نراه في كيفية تعامل الإمام(عليه السلام) مع الذميّ الذي أدّى بالأخير إلى اعتناقه الإسلام.

روى مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله(عليه السلام) عن آبائه(عليهم السلام): «أنّ أمير المؤمنين(عليه السلام)صاحب رجلاً ذمّياً، فقال له الذمّيُّ: أين تريد يا عبد الله؟ فقال: أُريد الكوفة، فلمّا عدل الطريق بالذميّ عدل معه أمير المؤمنين(عليه السلام) فقال له الذمّي: ألست زعمت أنّك تريد الكوفة؟ فقال له: بلى، فقال له الذمّيّ: فقد تركت الطريق؟ فقال له: قد علمتُ، قال: فلم عدلتَ معي وقد علمت ذلك؟

فقال له أمير المؤمنين(عليه السلام): «هذا من تمام حسن الصحبة أن يشيّع الرجل صاحبه هنيئة إذا فارقه، وكذلك أمرنا نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم)» فقال له الذمّي: هكذا قال؟ قال: نعم، قال الذميّ: لا جرم إنّما تبعه من تبعه لأفعاله الكريمة، فأنا أُشهدك أنّي على دينك. ورجع الذمّيّ مع أمير المؤمنين(عليه السلام) فلمّا عرفه أسلم». أُصول الكافي:٢/٦٧٠، كتاب العشرة.

٤ . (إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ):

إنّ جهاد العدو ـ المانع من نشر الإسلام ـ يُعدّ من التكاليف الإلهية التي حثّت عليها الشريعة الإسلامية، وتسأل: ما هي فلسفة الجهاد؟ وهل النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)إلاّ مصلح كسائر المصلحين وفلاسفة العالم، ما عليه إلاّ أن يطرح فكرته وتعاليمه على الناس، والناس مختارون في قبولها أو رفضها؟ ولذلك نرى أنّ المصلحين في مشارق الأرض ومغاربها طرحوا مبادئ الصلح والصفاء والتعايش والسلام ولم يتوسّلوا لأجل تطبيق فكرتهم بالقوة وقد تركوا الناس أحراراً في الأخذ بها أو الرفض.

هذا السؤال هو الذي يكرره كثير من شباب أُمّتنا ملتقطين تلك الشبهة من المستشرقين ومقلّديهم، من الذين قالوا بأنّ الإسلام انتشر بالسيف.

ولكن الحق هو وجود الفرق بين المصلح (الأرضي) والمصلح (السماوي)، فالأوّل تنبع فكرة الإصلاح من ذهنه دون أن يكون مأموراً من الله سبحانه بتطبيق فكرته على صعيد الحياة.

وأمّا النبي فهو ملهم من الله سبحانه ومأمور من قبله بدعوة الناس إلى العمل بما بُعث به من التشريعات السماوية، فليس له أن يقتصر على نشر الفكرة دون أن يعمل على إيصالها إلى البشر ونشرها بينهم جميعاً، وأن يستخدم القوة ـ إذا اقتضى الأمر ـ لرفع الموانع والحواجز التي تحول دون نشر رسالته ودعوته، ودون تمكينها من بسط العدل، ونشر الخير والصلاح.

إذ لا شك في أنّ دعوة الأنبياء تتعارض مع مصالح الجبابرة والطواغيت الذين أخذوا برقاب الناس واستعبدوهم، فيغلقون الأبواب أمام إشاعة الدعوة ويمنعون من وصولها إلى الناس في البلاد التي يحكمونها ويستبدّون بمقدّراتها. ولذلك كانت حياة الأنبياء

مقرونة دائماً بمعارضة المستكبرين لهم، إلى حدّ ترى أنّ قتل الأنبياء هو من صفات بعض الأقوام، قال سبحانه واصفاً بني إسرائيل بقتلهم الأنبياء: (لَقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ فَقيرٌ وَنَحْنُ أَغْنياءُ سَنَكْتُبُ ما قالُوا وَقَتْلَهُمُ الأنْبياءَ بِغَيْرِ حَق وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ). آل عمران:١٨١.

وفي آية أُخرى قال سبحانه: (فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآياتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبياءَ بِغَيْرِ حَقّ). النساء:١٥٥.

حتى أنّ الكتاب المقدّس عندهم ينصّ على قتل الأنبياء، فقد جاء في سفر نحميا، الإصحاح ٩ الآية ٢٦ ما نصّه: وعصوا وتمردوا عليك ـ أي على الله ـ وطرحوا شريعتك وراء ظهورهم وقتلوا أنبياءك الذين أشهدوا عليهم ليردوهم إليك، وعملوا إهانة عظيمة». الكتاب المقدّس: العهد القديم:٧٦٩.

وعلى ضوء هذا، فهل يجوز لنبي مبعوث من الله سبحانه لأجل تطبيق رسالته بين الناس أن ينعزل جانباً ويجلس في بيته ويترك العدو على حاله ولا يؤسّس قوة تحميه من أذى الأعداء وتساعده على إزاحة الموانع عن طريق تبليغ الرسالة؟!

العقيدة القلبية لا تخضع للإكراه

ويشهد على ما ذكرنا من أنّ الجهاد لم يُفرض لإكراه الناس على اعتناق دين الإسلام، بل لرفع الحواجز عن نشر الدعوة وتوفير الأمن للمؤمنين وحمايتهم من العدوان، أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)وبأمر من الله سبحانه ترك أتباع الديانات السماوية على دينهم فمن شاء يبقى على دينه ومن شاء يدخل في الإسلام، قال سبحانه: (لا إِكراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لا انْفِصامَ لَها). البقرة:٢٥٦. وما هذا إلاّ لأنّ الدين عبارة عن الالتزام القلبي وهذا غير خاضع للإكراه، وما هو خاضع للإكراه، هو تطبيق الجوارح على وفق الشريعة وهو لا ينفع دون أن يكون هناك التزام قلبي.

وحصيلة الكلام: إنّ لدعوة الأنبياء حساباً آخر يفارق دعوة المصلحين من الفلاسفة وغيرهم، فالطبقة الثانية غير ملزمين بالنشر والدعوة بخلاف الأنبياء فهم مكلّفون بذلك، فلمّا قاموا بتبليغ الشريعة ودعوة الناس إلى دين الله حالت بينهم وبين الناس قوى الكفر والطغيان فصاروا يصدّون الناس عن سبيل الله ويقتلون المؤمنين ودعاة الإصلاح، فلا محيص في تلك الحالة من مواجهة الأعداء بقوّة قادرة على إزالة ما يضعونه من حواجز وموانع، لكي تمهّد الأرض أمام مسيرة التبليغ، وعندئذ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

فلسفة الجهاد الابتدائي

وهنا سؤال آخر وهو أنّ ما ذُكر من البيان إنّما يكفي لتصحيح الجهاد الدفاعي، وأمّا الجهاد الابتدائي الذي أقرّه الإسلام فلا يمكن تبريره بذلك البيان، فإنّ المسلمين في حياة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)وبعدها قد قاموا بالجهاد الابتدائي وفتحوا البلدان، من دون أن تكون هناك معارضة من قبل قوى الشر والكفر، فما هو المبرر لذلك؟

والجواب: إنّ الأصل الأساسي في الشريعة الإسلامية هو دعوة الناس إلى عبادة الله سبحانه ومنعهم من عبادة المخلوق، وكان شعار المجاهدين (ما لَكُمْ مِنْ إِله غَيْرُهُ) الأعراف:٥٩، أو قوله سبحانه: (وَهُوَ الّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفي الأَرْضِ إِلهٌ). الزخرف:٨٤.

وعلى ضوء ذلك فلم يكن بدّ من مواجهة الوثنية والوثنيين، فإنّ الشريعة السماوية لم تعترف بهذا النوع من التفكير. أضف إلى ذلك: أنّ الوثنيين بعبادتهم الأوثان قد خسروا أنفسهم وضلّوا حتى خضعوا للجماد والحيوان، فدفْعُهم عن عبادة الأوثان دفاع عن حقوق الله سبحانه أوّلاً، وإخراج لهم من حياة ذميمة إلى حياة عزيزة، فلا يُعدّ مثل هذا النوع من الجهاد ـ وإن كان على خلاف ذوق الكافرين ومصالحهم ـ إضراراً بهم بل هو تكريم وإعزاز لهم، وها نحن نوضح ذلك بمثال:

لو انتشر مرض الطاعون في أحد البلدان بحيث أصبح يهدّد الصحة العامة، ففي تلك الحال تقوم الحكومة بإجبار المواطنين على أخذ اللقاح المضادّ لهذا المرض، فلو امتنع شخص عن ذلك لأُجبر عليه، لكي لا يصبح مصدراً لنشر العدوى، وهذا النوع من العمل من قبل الحكومة يُعتبر خدمة لحياة المجتمع وبالتالي لحياة الفرد، وإن كان مرّاً أو مؤذياً للأفراد.

ويشير إلى ما ذكرنا ـ من أنّ نشر التوحيد والمنع من عبادة غيرالله هو الأصل الأساسي بين الشرائع السماوية ـ أنّ الله تعالى أمر نبيّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يخاطب قساوسة النصارى الذين وفدوا على المدينة للاحتجاج والمناظرة، أمره أن يخاطبهم بأصل متفق عليه بين أصحاب الشرائع السماوية وقال: (قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوا إلى كَلِمَةٍ سَواء بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إلاّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنّا مُسْلِمُونَ). آل عمران:٦٤.

وبما ذكرنا ظهر سرّ كلا النوعين من الجهاد، الدفاعي والابتدائي، أمّا الأوّل فلإزالة العقبات التي تحول دون تبليغ المبلغين ونشر الدعوة السماوية، وأمّا الثاني فإنّما هو لأجل إنقاذ الناس من الوثنية وعبادة غير الله وهذا هو الركن الأساسي في كافّة الشرائع السماوية. ولذلك نرى أنّ رستم قائد جيش الدولة الفارسية، حينما سأل رسول قائد الجيش الإسلامي عن السبب الذي جاء بهم إلى هنا قد أُجيب بقوله: لإخراج عباد الله من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. الكامل في التاريخ:٢/٣٤١.

مضافاً إلى ما عرفت من أنّ في هذا النوع من الجهاد إخراجاً لهم من حياة ذميمة إلى حياة عزيزة.

إنّ من يعتقد بأنّ مجرد البيان والخطابة كاف لنشر الدعوة الإلهية وأنّ من سلمت فطرته يستقبل الدعوة ولا يواجه الداعي في مسير دعوته أي نزاع وعراك، فمن زعم ذلك لم يقرأ تاريخ الأُمم ولا تاريخ الدعوة الإسلامية، وها نحن نذكر هنا بعض ما قام به المشركون من أعمال عدائية ضدّ الدعاة الذين أرسلهم رسول الله لتبليغ رسالته:

قال ابن هشام: قدم على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بعد أُحد رهط من عَضَل والقارة فقالوا: يا رسول الله إنّ فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقّهوننا في الدين، ويُقرئوننا القرآن، ويعلّموننا شرائع الإسلام. فبعث رسول الله نفراً ستة من أصحابه وأمّر على القوم مرثد الغنوي. فخرج مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع، تبيّن أنّ هناك مؤامرة فأحاط المشركون بالدعاة يريدون أسرهم فقام المبلغون بالدفاع عن أنفسهم، وانتهى الأمر بقتل أربعة منهم وأسر اثنين.(انظر: السيرة النبوية لابن هشام:٢/١٦٨ـ ١٧١.)

ولم تقف خدع المشركين عند هذا الحدّ فقد كانت لهم خدعةٌ أُخرى هي أمرّ وأقسى من الأُولى، وهي حادثة بئر معونة حيث إنّه في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة قدم أبو براء العامري المدينة فدعاه رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)إلى الإسلام فلم يسلم، ولكنّه قال للنبيّ: يا محمّد إنّي أرى أمرك حسناً، فلو بعثتَ رجالاً من أصحابك إلى أهل «نجد» فدعوهم إلى أمرك رجوتُ أن يستجيبوا لك، فإن هم اتّبعوك فما أعزّ أمرك.

فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): إنّي أخشى عليهم أهل نجد.

قال أبو براء: لا تخف، أنا لهم جارٌ، فابْعَثْهُمْ فليَدعو الناس إلى أمرك.

فبعث رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أربعين رجلاً من خيار المسلمين من أصحابه ممّن حفظوا القرآن وعرفوا أحكام الإسلام، وأمّر عليهم «المنذر بن عمرو»، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم، وهم يحملون من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كتاباً إلى عامر بن الطفيل أحد زعماء«نجد»، وكلّف أحد المسلمين بإيصال ذلك الكتاب إلى عامر، فلمّا أتاه الكتاب لم ينظر فيه حتى عدا على الرجل(حامل الكتاب) فقتله، ثم استصرخ بني عامر على المبلّغين، فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن ننقض عهد أبي براء، وقد عقد لهم عقداً وجواراً.

فاستصرخ عليهم قبائل بني سُليم، فأجابوه إلى ذلك فخرجوا حتى نزلوا حيث نزل جماعة الدعاة، فأحاطوا بهم في رحالهم، فلمّا رأوهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم بعد أن أبدوا مقاومة كبرى، وبسالة عظيمة، ولم يكن يتوقّع منهم غير ذلك.

فإنّ مبعوثي النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكونوا مجرد رجال فكر وعلم فقط، بل كانوا رجال حروب، وأبطال معارك، ولذا رفضوا الاستسلام للمعتدين، واعتبروا ذلك عاراً لا يليق بالمسلم الحرّ الأبيّ، فقاتلوهم حتى استشهدوا جميعاً إلاّ كعب بن زيد، فإنّه جرح فعاد بجراحه إلى المدينة، وأخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)بما جرى لأصحابه على أيدي قبائل بني سليم المشركة الغَدَرة.

فحزن رسول الله والمسلمون جميعاً لهاتين الحادثتين، المفجعتين أشد الحزن، بل ولم يجد على قتلى مثل ما وجد عليهم، وبقي رسول الله يذكر شهداء بئر معونة ردحاً من الزمان. انظر: السيرة النبوية:٢/١٨٣ـ١٨٧؛ إمتاع الأسماع: ١/١٧٠ـ١٧٣.

ما هو قضاء القرآن في جهاد الكفار؟ والآيات الآمرة بالجهاد على أصناف:

ما هو قضاء القرآن في جهاد الكفار؟

ما ذكرناه من التحليل ليس أمراً بدعيّاً، بل له جذور في القرآن الكريم، فإذا أمعنا النظر في آيات الجهاد وما فيها من العلل للأمر بالقتال، يظهر أنّ ما ذكرناه من التحليل مطابق للذكر الحكيم.

إنّ الآيات الآمرة بالجهاد على أصناف:

الأوّل: قتال الكفّار والمشركين بلا قيد ولا شرط

إنّ قسماً من الآيات يأمر بقتال هذين الصنفين اللّذين لا يعترف بهما الذكر الحكيم ماداما في شرك ونفاق، ولا يتحمّلهما المجتمع الإسلامي، يقول سبحانه: (يا أَيُّها النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُم جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصيرُ).(التوبة:٧٣.)

والمراد من الكفّار هم المشركون الثنويون اللذين لا تعترف بهم الشرائع السماوية.

والمنافقون هم المشركون واقعاً المتظاهرون بالإسلام، وقد سبق أنّ الأصل الأساسي للشرائع السماوية هو رفض الثنوية بلا هوادة.

الثاني: قتال أهل الكتاب إلى حدّ خاص

هناك آيات تضع حدّاً لقتال أهل الكتاب ألا وهو دفع الجزية والعمل بشرائطها والخضوع للحكومة الإسلامية، يقول سبحانه: (قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَد وَهُمْ صاغِرُونَ). التوبة:٢٩.

وهذه الآية تتضمّن بيان سبب قتالهم وهو:

١. أنّهم (لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ) مع أنّهم يدّعون أنّهم من أتباع الشرائع السماوية، ولكن إيمانهم ليس إيماناً خالصاً.

ففي مجال التوحيد، يعتقدون بوجود الابن لله سبحانه كعُزير عند اليهود، والمسيح عند النصارى.

كما أنّ اعتقادهم بالمعاد مشوب بالخرافات كقولهم: (لَنْ تَمَسَّنَا النّارُ إِلاّ أَيّاماً مَعْدُودَةً)، أو كون المعاد غير جسماني، كلّ ذلك على خلاف ما نزلت عليه الشرائع السماوية.

٢. (وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ)، فقد حلّلوا الخمر والربا إلى غير ذلك من المحرّمات.

٣. (وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ) الذي هو الإسلام.

فلأجل هذه الأُمور حدّد الإسلام جهادهم إلى أن يخضعوا لأحكام الذمّة حيث قال: (حَتّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَد وَهُمْ صاغِرُونَ)

بشرط عدم التظاهر بالمحرّمات.

الثالث: قتال مَن يقاتل المسلمين

يدلّ قسم من آيات الذكر الحكيم على وجوب قتال من يقاتل المسلمين، ومن المعلوم أنّ قتال هؤلاء دفاع عن النفس والنفيس وهو ممّا يستحسنه العقل، قال سبحانه:(وَقاتِلُوا في سَبيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ). البقرة:١٩٠.

فقوله في ذيل الآية: (ولا تعتدوا) أوضح دليل على أنّ الجهاد في الإسلام مبني على رعاية العدل وعدم تجاوزه بالإسراف في القتل، قال سبحانه: (فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً). الإسراء:٣٣.

الرابع: قتال الناكثين

أمر قسم من الآيات بقتال قوم أعطوا النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) العهد على السلم والسلام وعدم التعرّض للمسلمين ولمن له ميثاق معهم، ومع ذلك نكثوا أيمانهم في مواضع خاصة، قال سبحانه: (فَإِذا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَد ...)إلى أن قال:(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْواهِهِمْ وَتأبى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ...)إلى أن قال: (لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِن إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ). التوبة:٥، ٨ و١٠.

والذي يشهد على احترام الإسلام للعهود والمواثيق، قوله سبحانه: (إِلاّ الَّذين عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)(التوبة:٤.)، وقوله سبحانه: (إِلاّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَما اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ). التوبة: ٧.

الخامس: القتال لتحرير المستضعفين

وهناك قسم من الآيات يأمر بقتال المستكبرين لتحرير المضطهدين وإنقاذهم من سطوتهم، وهذا هو بيت القصيد في الجهاد الإسلامي، فالإسلام ربما يقاتل قوماً لم يتعرّضوا له بالسوء، ولكنّهم يضطهدون أُمة ضعيفة أو مستضعفة ويصادرون حرّية أبنائها وينتهكون حقوقهم، فالقتال مع هؤلاء ليس إلاّ لأجل الدفاع عن حقوق الإنسان، ورفع الظلم عنه، فلو كان هناك مصداق واضح لصيانة حقوقه، فهذا هو المصداق الواضح طوال تاريخ الإنسان، قال سبحانه: (وَمَا لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظّالِمِ أَهْلُها وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً). النساء:٧٥.ترى أنّه سبحانه يحثُّ على القتال في سبيل الله وفي سبيل تحرير المستضعفين من الرجال والنساء الذين اضطهدوا وعذّبوا على أيدي المستكبرين، فلم يكن لهؤلاء من مخلّص إلاّ دعاء الله سبحانه حتى يخرجهم سبحانه من ظلم أهل ذلك البلد الذي يعيشون فيه (الظالم أهلها)، ويدعونه سبحانه أن يجعل لهم من لدنه ولياً ونصيراً.

فالجهاد الابتدائي ـ الذي اتّخذه المستشرقون ذريعة لنقد الإسلام وأنّه استولى على البلاد بقوة السيف ـ لم يكن إلاّ دفاعاً عن حقوق الإنسان غير القادر على مواجهة الظالمين، فكان الجهاد لغاية تحريرهم من أذى المستكبرين، وما اشتهر بين السياسيين أنّ لكلّ بلد وقوم حدّاً وسياسة لا يجوز لقوم آخرين التدخّل في أُمورهم أشبه بالمهزلة، إذ لم يدلّ دليل مقنع على هذه الضابطة لولا أنّ العقل الحصيف يوجب على الإنسان القوي صب قوّته في تعزيز الإنسان وتكريمه وإخراجه من ذلّ المستكبرين.

صفحة مشرقة من الجهاد العلمي

إذا كان الجهاد من أُصول الإسلام بألوانه المختلفة، إلاّ أنّه ليس أصلاً وحيداً ولا أصلاً يُبدأ به قبل غيره. بل يتقدّم عليه الجهاد العلمي ونشر الدعوة بالدليل والبرهان، قال سبحانه:(ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ

رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ). النحل:١٢٥.

فلا يقاتل الإسلام قوماً قبل أن يُتمّ الحجّة ويبيّن معالم دينه، ويتّضح الحق ويتحقّق قوله سبحانه: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ) الكهف:٢٩. على أنّ الإسلام كما دعا إلى الجهاد والقتال دعا إلى الصلح والسلم فقال سبحانه (وإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها) الأنفال:٦١.، وقال أيضاً: (فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً). النساء:٩٠.

ما ذكرناه إلمامة عابرة حول الجهاد، ومن المعلوم أنّ ما ذكرناه نزر يسير، ومن أراد التوسّع فعليه دراسة آيات الجهاد في القرآن الكريم بأجمعه، وما ورد حولها من السنن والأحاديث التي تتضمّن حدوده وخصوصياته.

الآيتان ٥ و ٦ (وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَومِهِ يا قَومِ لِمَ تُؤْذُونَني..... قالُوا هذا سِحْرٌ مُبينٌ).

(وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَومِهِ يا قَومِ لِمَ تُؤْذُونَني وقَدْ تَعْلَمُونَ أَنّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهم وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفاسِقِينَ * وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَني إِسْرائيلَ إِنّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُول يأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمّا جاءَهُمْ بِالبَيِّنات قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ).

التفسير

٥. (وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَومِهِ يا قَومِ لِمَ تُؤْذُونَني وقَدْ تَعْلَمُونَ أَنّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهم وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفاسِقِينَ):

تركّز هذه الآية على أمرين:

أ. إيذاء بني إسرائيل نبيهم موسى(عليه السلام).

ب. أنّ إضلاله سبحانه رهن وجود أرضية لدى الإنسان.

وإليك شرح الأمرين:

أمّا الأوّل فيقول سبحانه: (وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَني وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ).

ولعلّ وجه المناسبة بين هذه الآية وما تقدّمها من الآيات أنّه سبحانه أنكر على من فارق قوله عمله، ولم يعمل بعلمه، فناسب الحال أن يأتي بمثال له، وهذا المثال هم بنو إسرائيل الذين كانوا على علم بأنّ موسى(عليه السلام) هو نبي الله ورسوله إليهم، وقد رأوا معاجز الله وآياته بأُمّ أعينهم تجري على يده، ومع هذه الدلائل والبيّنات كانوا يَعرضون عن الحقّ ويخالفون عن أمره(عليه السلام)منذ أن جاوزوا البحر، وقد كان لإيذائهم موسى صور كثيرة نذكر منها ما يلي:

١. أنّ الفطرة الإنسانية تقتضي، وقد عبر بهم البحر، تكريمَ موسى واتّباعَ شريعته المبنيّة على توحيد العبادة لله سبحانه، ولكنّهم خالفوا وقالوا: (اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ). الأعراف:١٣٨.

٢. لمّا أمرهم الكليم بقتال المستكبرين في الأراضي المقدّسة، وقال: (يا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ).(المائدة:٢١.) فكان اللازم قتال المستكبرين وإخراجهم عن أراضيهم، ولكن كان جوابهم هو قولهم: (قالُوا يا مُوسَى إِنّا لَنْ نَدْخُلَها أَبداً مادامُوا فِيها فاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنّا هاهنا قاعِدُونَ). المائدة:٢٤.

٣. أنّ الله سبحانه قد أطعم بني إسرائيل المنّ والسلوى، ولكنّهم اعترضوا على موسى(وَقالُوا لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعام واحد فَادْعُوا لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمّا تُنْبِتُ الأَرْض مِنْ بَقْلِها وَقِثّائِها وفُومِها وَعَدَسِها وَبَصَلِها) فأجابهم موسى بقوله: (أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ).(البقرة:٦١.)

٤. وأخيراً اتّهموه بعلاقة له مع امرأة فاسقة، وما ذلك إلاّ لمخطط وضعه قارون للتهرّب من إعطاء الزكاة، ولكن الله سبحانه برّأه ممّا اتّهموه به، قال تعالى: (يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَكُونُوا كالَّذينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمّا قالُوا وكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً)، الأحزاب:٦٩.

إلى غير ذلك من المحن والكوارث التي واجهها موسى في رسالته، من عبادة العجل وغير ذلك.

ويظهر من بعض الآيات أنّ كثيراً من الأنبياء قد تعرّضوا لمحن وابتلاءات من قبل أقوامهم قال تعالى: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذوا حَتى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللهِ وَلَقَدْ جاءَكُمْ مِنْ نَبَأ الْمُرْسَلينَ). الأنعام:٣٤.

والتاريخ الصحيح يشهد على أنّ المصلحين ـ من غير الأنبياء ـ قد مشوا على هذا الخط، غير أنّهم كانوا يقابلون المؤذين لهم بالصفح عنهم أو بذل النصيحة لهم، ومن أعظم الشواهد على أنّ المصلحين ـ غير الأنبياء ـ من الأوصياء والعلماء الواعين كانوا مبتلين بالجماعات المؤذية، كلمة للإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) ألقاها عند ما وصل إليه الخبر بأنّ جيش معاوية قد أغار على حدود العراق، فخطب في أهل الكوفة وقال: «أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصمّ الصّلاب، وفعلكم يُطمع فيكم الأعداء، تقولون في المجالس كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلتم: حيدي حياد». نهج البلاغة:١/٧٣، الخطبة ٢٩.

ثم إنّ في قوله تعالى:(وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم)، دلالة على أنّ العلم يدعو إلى العمل وأنّ طبيعته هو الجرّ إليه إلاّ أنّه قد تكون الدواعي الصارفة أقوى من الدواعي إلى العمل، قال الإمام الصادق(عليه السلام):«العلم مقرون إلى العمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلاّ ارتحل عنه». الكافي:١/٤٤، كتاب فضل العلم، باب استعمال العلم، الحديث٢.

تمّ الكلام حول الأمر الأوّل.

الأمر الثاني: إضلال الله سبحانه للمكلّف رهن وجود أرضية للضلال لديه، قال سبحانه: (فَلَمّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ).

الزّيغ: هو الميل عن الحق إلى الباطل، والآية صريحة في أنّه سبحانه لا يزيغ (لا يُضلّ) أحداً إلاّ إذا زاغ هو بسوء اختياره، فما لم يكن في نفس العبد ميل إلى الباطل، فلا يصدر منه سبحانه أي عمل سلبي بالنسبة إلى العبد، وبذلك تقيّد الآية الدالة على نسبة الإضلال إلى الله بمشيئته سبحانه. قال تعالى:(كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ) المدثر:٣١، والآية وإن كانت مطلقة ولكن الآيات الأُخرى تفسّرها بأنّ مشيئته إنّما تتعلّق بهداية من أناب، قال سبحانه:(إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاء وَيَهْدِي إِلَيهِ مَنْ أَنابَ) الرعد:٢٧، وبإضلال من أسرف وارتاب قال سبحانه: (وَكَذلِكَ يُضِلُ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ). غافر:٣٤.

ونظير الآية الواردة في المقام قوله سبحانه:(ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم). التوبة:١٢٧.

هذا وفي الآيات الأُخرى دلالة واضحة على أنّ هداية الله وإضلاله لا يأتيان بلا سبب، وإنّما يوجدان بمن أحدث سبباً لأحد الأمرين، وإليك قسماً من الآيات التي تركّز على ذلك:

قال سبحانه: (إِنّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْم حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ). فالآية ضابطة كلّية في مجالي الضلالة والهداية، أمّا في مجال الضلالة فمن اقترف المعاصي وتوغّل في الذنوب، فقد أوجد أرضية مناسبة لإضلال الله سبحانه.

كما أنّ من تاب من المعاصي وأناب إلى الله سبحانه تصل إليه أنوار الهداية، ولذلك يقول سبحانه: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً)، البقرة:١٠.ويقول أيضاً: (كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّر جَبّار) غافر:٣٥..

وأمّا في مجال الهداية فالله سبحانه يهدي إليه من أراد الهداية وسعى لها، قال سبحانه عن أصحاب الكهف:(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً) الكهف:١٣، فكأنّ إيمانهم بربّهم أوجد أرضية صالحة في نفوسهم لزيادة الهدى من الله سبحانه إضافة إلى الهداية الأُولى التي يدلّ عليها الإيمان. ويقول سبحانه: (وَالَّذِينَ اهْتَدُوا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ)، محمد:١٧. فصارت الهداية الأُولى نواة لهداية أُخرى، يصل بها الإنسان إلى الكمال المطلوب.

ثمّ إنّه سبحانه جعل مركز الزيغ هو القلب، فقال: (فَلَمّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُم)والمراد منه هو النفس والروح الإنسانية، وبعبارة أُخرى العقل والفكر، وذلك لوجهين:

١. قال سبحانه: (إِنَّ فِي ذلكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقى السَّمْعَ وَهُوَ شَهيدٌ) سورة ق:٣٧، فإنّ تقييد القلب بقوله: (لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ) لا ينطبق على القلب المادي، إذ كلّ إنسان له ذلك العضو، والآية تصنّف الإنسان إلى مَن لهم قلب ومَن ليس لهم قلب، فلا محيص من أنّ المراد به العقل والوعي.

٢. أنّ القلب ربّما يستعمل في معنى العقل. المنجد:٦٤٨، مادة «قلب».

٣. وهنا وجه ثالث لنسبة الأُمور الروحية إلى القلب الصنوبري في كثير من الآيات، وهو أنّ القلب مركز علامات الحياة والموت، فإذا كان خفاقاً فهو حيّ ولولا ذلك لحكم عليه بالموت، حتى أنّ أثر السرور والحزن والخوف يظهر في القلب الصنوبري قبل سائر الأعضاء فيجد في نفسه انبساطاً عند السرور وانقباضاً عند الحزن، حتى شاع بين الناس نسبة الآثار النفسانية للقلب، فيقول الإنسان ضاق قلبي حين يحزن.

وفي نهاية المطاف ننقل ما ذكره السيد الشريف الرضي (رحمه الله) في تفسير قوله تعالى: (رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا) آل عمران: ٨ . ـ الذي هو نظير قوله تعالى في هذه السورة: (فَلَمَّا زاغُوا أزاغَ)ـ قال: فزيغ القلوب ميلها عن الطاعة والعدول عن طريق المرضاة . تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٢٩١ .

٦. (وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَني إِسْرائيلَ إِنّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُول يأتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمّا جاءَهُمْ بِالبَيِّنات قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ):

هذه الآية عطف على الآية المتقدّمة يجمعهما أن المرسل إليهم قد آذوا رسولهم، أمّا في مورد الكليم(عليه السلام) فقد علمتَه، وأمّا في مورد المسيح(عليه السلام)فيكفي أنّهم قد وصفوا كتابه بأنّه سحر مبين.

والآيتان كلاهما أوضح شيء لمن يعلم ولا يعمل، والذي ورد في قوله سبحانه: (لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ).

وأمّا المحتوى، فالآية تهدف أوّلاً إلى أنّ عيسى بن مريم من رسل الله سبحانه إلى بني إسرائيل.

وثانياً: أنّه كان مصدّقاً لما نزل قبله من التوراة وقد قال ذلك في بدء دعوته.

وثالثاً: إنّه المبشِّر برسول يأتي من بعده، وإليك دراسة الجميع.

أمّا الأوّل، فقال سبحانه: (وَإِذْ قالَ عيسى ابنُ مَرْيَمَ يا بَني إِسْرائيلَ إِنّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ). فالآية ظاهرة في اختصاص نبوته ببني إسرائيل، كما أنّ الآية المتقدّمة ظاهرة في أنّ الكليم قد أُرسل إلى بني إسرائيل وأنّ مناظرته مع الفراعنة لتحرير بني إسرائيل ولم يكن نبيّاً مرسلاً لهدايتهم، وهذا هو أحد القولين في نبوّتهما.

إنّ المسيح بعث مثل موسى بخصوص بني إسرائيل غير أنّه أُمر بتحليل بعض المحرمات، كما يقول سبحانه: (وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوراةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآية مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ). آل عمران:٥٠.

وهناك قول آخر بأنّ الكليم والمسيح هما من أُولي العزم من الأنبياء، وفُسّر أُولو العزم بمن كانت شريعته عالمية، وهذا القول هو المشهور بين العلماء، وقد أوضحنا الحال في كتابنا «مفاهيم القرآن» مفاهيم القرآن:٣/٧٨ـ١٠١. عند البحث عن أُولي العزم من الرسل.

وأمّا الثاني ـ أي كونه مصدّقاً لما بين يديه من التوراة ـ : فيذكره بقوله: (مُصدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ)، وكلامه هذا لا ينافي ما سبق من قوله:(وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ)؛ لأنّ التصديق تصديق جملي أي لا أُغيّر أركان العقيدة والشريعة، فأنتم باقون على ما كنتم عليه، ولكن تختلفون مع السابقين في بعض الفروق، وهذا دليل على جواز النسخ الذي تأباه اليهود، حيث

إنّهم يتمسّكون بشريعتهم بحجة بطلان النسخ عقلاً وشرعاً، والتحقيق في محلّه.

وبذلك يُعلم جواب السؤال الذي ربّما تواجهه الآية ونظائرها وهو: كيف أنّ المسيح يقول: (وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ)، مع أنّ الموجود بين يديه منها كان محرّفاً غير مقبول؟

وقد أُجيب بوجهين:

١. أنّ المراد من قوله: (بَيْنَ يَدَيَّ)أي ما تقدّم من كتاب، فلا يشمل إلاّ التوراة الصحيحة التي نزلت على الكليم بلا تحريف. الرحلة المدرسية للبلاغي:٢٣٩.

٢. أنّ المراد هو تصديق التوراة تصديقاً إجمالياً ـ أعني: الأُصول والكلّيات الواردة فيه غير المحرَّفة ـ وتصديق الكتاب بإجماله لا ينافي تطرق التحريف إلى بعض موارده.

وبذلك يُعلم الجواب عن تصديق النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لما بين يديه من التوراة والإنجيل، قال سبحانه: (وَالّذي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ...). فاطر:٣١.

فإنّ المراد هو تصديق الكتب بإجمالها وأنّ كل نبي لم يُبعث لتبديل ما أُوحي إلى النبي السابق من جذوره.

وأمّا الثالث ـ أي التبشير بالرسول الموعود ـ : فقد جاء في كلامه: (وَمُبَشِّراً بِرَسُول يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَد).

وحاصله: أنّ الرسول المنتظر(صلى الله عليه وآله وسلم) يأتي من بعدي ولست هو أنا، ولعظمة هذا الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) ذكر سبحانه علائمه ودلائله في الكتب السماوية على نحو يعرفون هذا النبي كما يعرفون أبناءهم، قال سبحانه: (اَلَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).(البقرة:١٤٦.)

وقد صارت دلائل وجوده وشريعته وصلته بالله واضحة لا يشك فيها هؤلاء كما لا يشكّون في معرفة أولادهم، ومع ذلك كلّه فقد عرفوه وأنكروه.

ثمّ إنّه سبحانه ختم الآية بقوله:(فَلَمّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ)، فهل الضمير في قوله:(جاءَهُمْ) يرجع إلى «عيسى»، لقوله سبحانه: (وإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسرائيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ). المائدة:١١٠. أو يرجع إلى النبي المبشر به وقد وصف بالسحر كثيراً في لسان المشركين. وجهان ولعلّ الثاني أظهر.

التبشير بأحمد لا بمحمد

بقي هنا أمران:

١. أنّ المعروف أنّ اسم النبي الخاتم(صلى الله عليه وآله وسلم) هو محمد، فهل كان له اسمان، محمد وأحمد؟

٢. التبشير برسول اسمه أحمد ووجود اسمه في الأناجيل.

وإليك دراسة الأمرين:

الأمر الأوّل: التبشير بأحمد لا بمحمد

ربّما يطرح في بعض الأندية السؤال التالي: إنّ المسيح بشّر بمجيء رسول اسمه أحمد، مع أنّ اسم نبينا محمد، فكيف تنطبق هذه البشارة على نبينا(صلى الله عليه وآله وسلم)؟

والجواب من جهات: الأُولى: روى الحلبي في سيرته أنّ عبد المطلب أسمى نبينا بـ«محمد» ولكن أُمّه سمّته «أحمد».(السيرة الحلبية:١/٩٣ـ ١٠٠.) كما أنّ عمّه أبا طالب الذي تكفّل برعايته بعد وفاة جدّه وهو في عمر ثمان سنين، أسماه في بعض قصائده (أحمد)، وإليك ما قاله في هذا المجال:

إن يكن ما أتى أحمد اليوم *** سناء وفي الحشر دينا

وقال:

وقوله لأحمد أنت امرؤ *** خلوف الحديث ضعيف النسب(*)

(*) ديوان أبي طالب:١٩، ٢٥.

وقال:

وإن كان أحمد قد جاءهم به *** حقّ ولم يأتهم بالكذب[1]

[1]ديوان أبي طالب:٢٩.

وروى الآخرون عنه الأبيات التالية:

أرادوا قتل أحمد ظالموه *** وليس بقتلهم فيهم زعيم(*)

(*)نفس المصدر.

وقال:

لقد أكرم الله النبي محمداً *** فأكرم خلق الله في الناس أحمدُ[2]

[2]تاريخ ابن عساكر:١/٢٧٥؛ تاريخ الخميس:١/٢٥٤.

وقال:

لعمري لقد كلّفت وجداً بأحمد *** وأحببته حبّ الحبيب المواصلِ(*)

(*)سيرة ابن هشام:١/٢٧٩.

وقال:

فأصبح فينا أحمد في أرومة *** تقصّر عنه سورة المتطاولِ[3]

٣ . سيرة ابن هشام:١/٢٨٠.

وأمّا شاعر صدر الإسلام حسّان بن ثابت، فقد أنشد قائلاً:

مفجّعة قد شقّها فقدُ أحمد *** فظلّت لآلاء الرسول تعدِّدُ

أطالت وقوفاً تذرف الدمع جهدَها *** على طلل القبر الذي فيه أحمدُ[4]

٤ . ديوان حسان بن ثابت:٥٩، طبع بيروت، تحقيق عزت نصرت الله.

وقال أيضاً:

فمن كان أو من يكون كأحمد *** نظام لحق أو نكال لملحد[1]

ديوان حسان بن ثابت:٥٦.

هذه نماذج من الأشعار التي ذكر فيها اسم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بـ«أحمد»، والمتتبع يجد أكثر ممّا ذكرناه. لاحظ المصادر التالية:

مجمع البيان:٣/٣٨٧، بحارالأنوار:٢/٢٥٩؛ بلوغ الإرب:٢/٢٨٤؛ مفاهيم القرآن:٣/٥٠٩ـ٥١٦.

الثانية: أنّ بعض البطارقة أو القساوسة، قد زاروا النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) في المدينة المنورة، خصوصاً في أمر المباهلة ولم يعترضوا عليه بأنّ ما بشر به الإنجيل هو أحمد، وهذا يدل على أنّ النبي كان كبعض الأنبياء ذا اسمين، وليس هذا أمراً بديعاً، إذ يوجد من الأنبياء من لهم اسمان، كيعقوب، والمسيح، ويونس، فلكلّ اسم آخر(على الترتيب): إسرائيل، وعيسى، وذو النون.

الثالثة: روى الشيخ الطوسي في التبيان: عن الإمام علي(عليه السلام): سمّى الله تعالى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في القرآن بسبعة

أسماء. التبيان:٢/٤٧٥.

وروى الصدوق في خصاله الخصال:٢/٤٨.أنّ لرسول الله عشرة أسماء: خمسة منها في القرآن، وخمسة ليست في القرآن. فأمّا التي في القرآن: محمد، أحمد، عبد الله، يس، ن؛ وأمّا التي ليست في القرآن: فالفاتح، الخاتم، الكاف، المقفّي، الحاشر.

روى الصفّار بسنده عن الكلبيّ بصائر الدرجات:٢/٤٧٠، الحديث١٨٢٨، طبعة دار جواد الأئمة، ١٤٢٨هـ.

عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: قال لي: كم لمحمد اسم في القرآن؟ قال: قلت: اسمان أو ثلاثة، فقال:«يا كلبيّ له عشرة أسماء (وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ)، و(مُبَشِّرًا بِرَسُول يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)، و(لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)، و(طَهَ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)، و(يَس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاط مُسْتَقِيم)، و(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُون)، و(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ)، و(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ)، و(قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ)، فالذكر اسم من أسماء محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، ونحن أهل الذكر، فسل يا كلبيّ عمّا بدا لك».

ومفهوم الحديثين واضح فإنّ المراد من الاسم فيها أعمّ من الصريح والمؤوّل ومن العلَم والوصف، فإنّ بعض ما عدّ اسماً له(صلى الله عليه وآله وسلم) لا يعدو عن كونه وصفاً له، كالمدّثّر والمزّمّل، كما أنّ عدّ الحروف المقطّعة علَماً له، إنّما هو بالتأويل المخصوص علمه لهم(عليهم السلام). فلاحظ.

وجود البشارة بمجيء أحمد في الإنجيل

الأمر الثاني: وجود البشارة بمجيء أحمد في الإنجيل

الآية الكريمة تدلّ بصراحة على أنّ المسيح بشّر بمجيء نبيٍّ اسمه «أحمد»، وعندئذ يُطرح هذا السؤال: هل هذه البشارة موجودة في الأناجيل الرائجة؟

الجواب: إنّ البشارة موجودة في إنجيل يوحنّا، ونحن ننقل ما جاء في الترجمة العربية:

ففي الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنّا، جاء ما يلي:

١٥. إن كنتم تحبّونني فاحفظوا وصاياي.

١٦. وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد.

١٧. روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله، لأنّه ليس يراه ولا يعرفه، وأنتم تعرفونه لأنّه مقيم عندكم وهو ثابت فيكم.

٢٦. وفارقليط روح القدس الذي يرسله الأب باسمي، هو يعلمكم كل شيء وهو يذكّركم كلّ ما قلته لكم.

٢٩. لقد أنبأتكم قبل الآن بالأمر قبل حدوثه حتّى إذا حدث تؤمنون.

وفي الباب الخامس عشر من إنجيل يوحنّا، ورد ما يلي:

٢٦. إذا جاء فارقليط الذي أرسله إليكم من لدن أب روح الحق المنبثق من الأب فهو يشهد لي.

٢٧. وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء.

وفي الباب السادس عشر من إنجيل يوحنّا، ورد ما يلي:

٧. لكنّي أقول لكم الحق أنّه خير لكم أن أنطلق، لأنّي إن لم أنطلق لم يأتكم فارقليط، فأمّا إن انطلقت أرسلته إليكم.

٨. فإذا جاء ذاك فهو يوبخ العالم على خطيئة والبرّ والدينونة .

٩. أمّا على الخطيئة فلأنّهم لم يؤمنوا بي.

١٠. وأمّا على البرّ فلأني منطلق إلى الأب ولستم ترونني بعد.

١١. وأمّا على الدينونة فإن سيد وفي ترجمة أُخرى: اركون هذا العالم. هذا العالم قد دين.

١٢. وإن لي كلاماً كثيراً أقوله لكم، ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن.

١٣. وإذا جاء روح القدس ذاك فهو يعلمكم جميع الحق، لأنّه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتي.

١٤. وهو يمجّدني لأنّه يأخذ ممّا هو لي ويخبركم.

١٥. جميع ما هو للأب فهو لي، فمن أجل هذا قلت: إنّ جميع ما هو للأب فهو لي، ولذلك قلت لكم: إنّه يأخذ مما لي ويخبركم به.

هذه الجمل مأخوذة عن الإنجيل المترجم باللغة العربية المطبوع سنة ١٨٢١م وسنة ١٨٣١م وسنة١٨٤٤م، ولما كانت بعض المواضع غير واضحة صحّحنا الترجمة بما ورد في الكتاب المقدس المطبوع في دار المشرق ببيروت ١٩٨٨م.

كيفية الدلالة

قد أثارت هذه الآيات مناظرات بين المسلمين والمسيحيين، وقد قام غير واحد من محقّقي المسلمين بدراسة هذه الجمل وإثبات دلالتها على البشارة بأحمد، وعلى رأسهم المحقق (رحمة الله بن خليل الهندي)مؤلف «إظهار الحق»، وهو من الكتب الممتعة و«فخر الإسلام» في كتابه: «أنيس الأعلام» ونحن نقتبس مما ذكره الهندي.

قال: وجه الاستدلال بهذه العبارات ببيان أمرين:

الأوّل: أهل الكتاب وترجمة الأسماء

إنّ أهل الكتاب سلفاً وخلفاً عادتهم أن يترجموا الأسماء غالباً، (مع أنّ حق الترجمة حفظ الأسماء بأُصولها)، ثم إنّ عيسى(عليه السلام) كان يتكلم باللغة العبرية لا باليونانية، فعلى هذا فقد قام المترجمون بترجمة اسم المبشَّر به (أحمد) باليوناني بحسب عادتهم، وسيوافيك ما هو الأصل في اللغة اليونانية. ثم مترجمو العربية عرّبوا اللفظ اليوناني بـ(فارقليط)، وعندئذ يقع الكلام ما هو الأصل للفظ فارقليط في اللغة اليونانية.

إنّ في اللغة اليونانية لفظين متقاربين في الكتابة والقراءة هما:

١. باراكلتوس.

٢. پيركلتوس.

فيطلق الأوّل ويراد به الشخص الممتدح ويعادل لفظ محمد وأحمد.

ويطلق الثاني ويراد به المسلّي.

فعندئذ يقع الكلام في أنّ فارقليط هل هو معرّب اللفظ الأوّل أو معرب اللفظ الثاني؟ والقرائن الآتية تدل على أنّه معرَّب اللفظ الأوّل . إظهار الحق:٢/٢٨٧ـ٢٨٠.

وقبل بيان القرائن المعيّنة، نذكر ما جاء في دائرة المعارف الفرنسية المترجمة: محمد مؤسس الإسلام ورسول الله وخاتم الأنبياء، إنّ معنى كلمة (محمد) تعني المحمود كثيراً وهي مشتقة من (الحمد) والتي هي بمعنى التجليل والتمجيد، وتشاء الصدفة العجيبة أن يذكر له اسم آخر من نفس الأصل (الحمد) ترادف لفظ (محمد) يعني(أحمد) ويحتمل احتمالاً قوياً أنّ مسيحي الحجاز كانوا يطلقون لفظ (أحمد) بدلاً عن (فارقليطا). دائرة المعارف الكبيرة الفرنسية:٢٣/٤١٧٦.

وعلى كلّ تقدير فقد فسّر غير واحد من علماء اللاهوت فارقليط بمعنى الروح النازل على تلاميذ عيسى(عليه السلام) يوم الدار الذي جاء ذكره في الباب الثاني من كتاب الأعمال. جاء في كتاب أعمال الرسل تحت عنوان نزول روح القدس على الرسل:

ولما أتى اليوم الخمسون كانوا مجتمعين كلهم في مكان واحد فانطلق من السماء بغتة دويّ كريح عاصفة فملأ جوانب البيت الذي كانوا فيه وظهرت لهم ألسنة كأنّها من نار قد انقسمت فوقف على كل منهم لساناً فامتلأوا جميعاً من الروح القدس وأخذوا يتكلمون بلغات غيرلغتهم على ما ذهب لهم الروح القدس أن يتكلم. لاحظ الكتاب المقدس، أعمال الرسل،الباب الثاني، ص٣٧٦، وهذا هو المراد من ترجمته بالمسلّي أو المعزّي، ولكن القرائن القاطعة تدل على أنّ المراد النبيّ المبشَّر به، وإليك تلك القرائن.

الثاني: القرائن الدالّة على أنّ المراد به هو الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)

وهذه القرائن، هي:

١. أنّ هذا الروح متّحد بالأب مطلقاً، وبالابن اتّحاداً حقيقياً فلا يصدق في حقّه (فارقليط آخر) الذي ورد ذكره في الباب الرابع عشر.(الآية ١٦) بخلاف النبي المبشر به فإنّه يصدق في حقّه هذا القول بلا تكلّف.

٢. إنّ عيسى(عليه السلام) قال: «هو يذكّركم كل ما قلت لكم » الباب الرابع عشر، الآية ٢٦.ولم يثبت من أنّ الحواريين قد نسوا ما قاله عيسى(عليه السلام) وهذا الروح النازل يوم الدار ذكرهم إيّاه.

٣. أنّ عيسى(عليه السلام) قال: هو يشهد لي. الباب الخامس عشر، الآية ٢٦.

ومن المعلوم أنّ تلاميذه كانوا مستغنين عن أن يشهد روح القدس لصالح عيسى، إذ لم تكن أي فائدة في شهادته لهم، بخلاف ما إذا أُريد به النبي المبشَّر به، فإنّه يشهد لأجل المسيح وصدقه وبراءته من ادّعاء الألوهية وغير ذلك ممّا يشهد له.

٤. أنّ عيسى(عليه السلام) قال: إن لم أنطلق لم يأتكم فارقليط، فأمّا إن انطلقت أرسلته إليكم. الباب السادس عشر: الآية ٧.

فقد علّق مجيء المبشَّر به بذهابه مع أنّ الروح عندهم نزل على الحواريين قبل صعود المسيح لما أرسلهم إلى البلاد الإسرائيلية، فلم يكن نزوله مشروطاً بذهابه، بخلاف ما إذا أُريد به النبي المبشَّر به، فإنّ مجيئه مشروط بذهاب المسيح لأنّ وجود رسولين ذوي شريعتين مستقلتين في زمان واحد غير جائز.

٥. أنّ عيسى(عليه السلام) قال: يوبخ العالم الباب السادس عشر، الآية ٨ . فهذا القول بمنزلة النص الجلي على أنّ المبشر به نبي من الأنبياء وليس إلاّ رسول الإسلام لأنّه وبخ العالم لا سيّما اليهود على عدم إيمانهم بعيسى توبيخاً لا يشك فيه أحد، بخلاف الروح النازل يوم الدار، فإنّه لم يوبخ أحداً لأنّه نزل على الحواريين وهو رسل عيسى إلى الدعوة بلسان الترغيب والوعظ.

٦. قال عيسى(عليه السلام): أمّا على الخطيئة فلأنّهم لم يؤمنوا بي. الباب السادس عشر، الآية ٩. وهذا يدلّ على أنّ فارقليط يظهر على منكري عيسى موبّخاً لهم على عدم الإيمان به، والروح النازل يوم الدار لم يظهر على الناس.

٧. أنّ عيسى(عليه السلام) قال: ليس ينطق من عنده بل يتكلّم بكلّ ما يسمع. الباب السادس عشر، الآية ١٣.وهذا يدلّ على أنّ فارقليط يكذبه بنو إسرائيل ولذلك قام المسيح يقرر صدقه، ولا مجال لمظنة التكذيب في حق الروح النازل يوم الدار، وكأنّ تلك الجملة تشير إلى ما قاله سبحانه في حق النبي(صلى الله عليه وآله وسلم):(وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى* إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحى). النجم:٣ـ٤.

ونقل مؤلف «إظهار الحق» ما يلي: قال الفاضل حيدر علي القرشي في كتابه المسمّى بـ «خلاصة سيف المسلمين» الذي هو بلسان أردو في الصفحة ٦٣ و ٦٤:(إنّ القسيس أوسكان الأرمني ترجم كتاب أشعيا باللسان الأرمني في سنة ألف وستمائة وست وستين، وطبعت هذه الترجمة في سنة ألف وسبعمائة وثلاث وثلاثين في مطبع انتوني پورتولي ويوجد في هذه الترجمة في الباب الثاني والأربعين هذه الفقرة: (سبّحوا الله تسبيحاً جديداً وأثر سلطنة الظاهر سلطنته أي أثر النبوة. على ظهره واسمه أحمد) انتهت وهذه الترجمة موجودة عن الأرامن فانظروا فيها). انتهى كلامه. إظهار الحق:٢/٢٩٥.

قد صدرنا في بيان هذه القرائن عن كتاب «إظهار الحق» بتلخيص وتصرّف يسير، وقد ذكر المؤلف قرائن أُخرى لم نذكرها لأجل

الإيجاز في الكلام.

ثمّ إنّ مؤلف«أنيس الأعلام» أعني فخر الإسلام الذي كان من القساوسة ثم تشرّف بالإسلام قد ذكر وجه رجوعه عن المسيحية إلى الإسلام وقال: بعد بحث طويل وعناء كبير وتجوال في المدن عثرت على قسيس كبير متميز في زهده وتقواه، كان يرجع إليه الكاثوليك بما فيهم سلاطينهم، تعلمت عليه زمناً مذاهب النصارى، وكان له طلاب كثيرون، ولكنّه كان ينظر إليّ من بينهم نظرة خاصة، وكانت كل مفاتيح البيت بيدي، إلاّ مفتاحاً واحداً لغرفة صغيرة، احتفظ به عنده....

وفي يوم اعتلّت صحة القسيس، فقال لي: قل للطلاب إنّي لا أستطيع التدريس اليوم. حينما جئت الطلاب وجدتهم منهمكين في نقاش حول معنى «فارقليطا» في السريانية، و «پريكلتوس» في اليونانية.. واستمر بينهم النقاش، وكل كان يدلي برأيه.

بعد أن عدت إلى الأُستاذ سألني عمّا كان يدور بين الطلاب، فأخبرته، فقال لي: وما رأيك؟

قلت: اخترت الرأي الفلاني.

قال القسيس: ما قصّرت في عملك، ولكن الحقّ غير ذلك؛ لأنّ حقيقة هذا الأمر لا يعلمها إلاّ الراسخون في العلم، وقليل ما هم. أكثرت في الإلحاح عليه أن يوضّح لي معنى الكلمة. فبكى بكاءً مرّاً وقال: لم أخفِ عليك شيئاً..

إنّ لفهم معنى هذه الكلمة أثراً كبيراً، ولكنّه إن انتشر فسنتعرض للقتل! فإن عاهدتني أن لا تفشيه فسأُخبرك... فأقسمت بكلّ المقدّسات أن لا أذكر ذلك لأحد، فقال: إنّه اسم من أسماء نبي المسلمين، ويعني «أحمد» و «محمد».

ثم أعطاني مفتاح الغرفة وقال: افتح الصندوق الفلاني، وهاتِ الكتابين اللّذين فيه، جئت إليه بالكتابين، وكانا مكتوبين باليونانية والسريانية على جلد، ويعودان إلى عصر ما قبل الإسلام.

الكتابان ترجما «فارقليطا» بمعنى أحمد ومحمّد، ثم أضاف الأُستاذ: علماء النصارى كانوا مجمعين قبل ظهوره أنّ «فارقليطا» بمعنى «أحمد ومحمّد»، ولكن بعد ظهور محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، غيّروا هذا المعنى، حفظاً لمكانتهم ورئاستهم وأوّلوه، واخترعوا له معنى آخر لم يكن على الإطلاق هدف صاحب الإنجيل.

سألته عما يقوله بشأن دين النصارى؟ قال: لقد نسخ بمجيء الإسلام، وكرر ذلك ثلاثاً، ثم قلت:

ما هي طريقة النجاة والصراط المستقيم في زماننا هذا؟ قال: إنّما هي باتّباع محمد(صلى الله عليه وآله وسلم).

قلت: وهل التابعون له ناجون؟

قال: أي والله، وكرر ذلك ثلاثاً.

ثم بكى الأُستاذ وبكيت كثيراً ثم قال: إذا أردت الآخرة والنجاة فعليك بدين الحق... وأنا أدعو لك دائماً، شرط أن تكون شاهداً لي يوم القيامة أنّي كنت في الباطن مسلماً، ومن أتباع محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)... وما من شك أنّ الإسلام هو دين الله اليوم على ظهر الأرض». نقلاً باختصار عن «الهداية الثانية» مقدمة كتاب «أنيس الأعلام»:١٦١/٢.

وكما يلاحظ فإنّ هذه الوثيقة الهامة تصرّح بما فعله علماء أهل الكتاب بعد ظهور نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) من تحريف لتفسير اسم النبي وعلاماته، تحقيقاً لمصالحهم الشخصية.

لما قدّم الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام)على المأمون أمر الفضل بن سهل أن يجمع له أصحاب المقالات، مثل: الجاثليق، ورأس الجالوت ورؤساء الصابئين والهربذ الأكبر وأصحاب زردشت ونساطس الرومي والمتكلّمين، ليسمع كلامه وكلامهم، فجمعهم الفضل بن سهل ثم أعلم المأمون باجتماعهم، فقال: ادخلهم عليّ، ففعل فرحبّ بهم المأمون ثم قال لهم:

إنّما جمعتكم لخير وأحببت أن تناظروا ابن عمي هذا المدني القادم عليَّ، فإذا كان بكرة فأغدوا عليَّ ولا يتخلّف منكم أحد.

فقالوا: السمع والطاعة يا أمير المؤمنين نحن مبكرون إن شاء الله.

ثم ذكر صاحب الاحتجاج احتجاج الرضا (عليه السلام)مع هؤلاء، ومن العجب أنّ الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) احتجّ على نبوة نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّ المسيح (عليه السلام)بشّر به، فقال ما هذا نصّه: ثم قال (عليه السلام)للجاثليق: يا نصراني! كيف علمك بكتاب شعيا؟ قال: أعرفه حرفاً حرفاً.

قال لهما: أتعرفان هذا من كلامه؟ يا قوم إنّي رأيت صورة راكب الحمار لابساً جلابيب النور، ورأيت راكب البعير ضوؤه مثل ضوء القمر؟

فقال: قد قال ذلك شعيا.

قال الرضا (عليه السلام): يا نصراني! أهل تعرف في الإنجيل قول عيسى: إنّي ذاهب إلى ربكم وربي، و(البارقليط) خ ل: في التوحيد: الفارقليطا .جائي هو الذي يشهد لي بالحق كما شهدت له، وهو الذي يفسّر لكم كل شيء، وهو الذي يبدي فضائح الأُمم، وهو الذي يكسر عمود الكفر؟

فقال الجاثليق: ما ذكرت شيئاً من الإنجيل إلاّ ونحن مقرّون به.

فقال (عليه السلام): أتجد هذا في الإنجيل ثابتاً؟ قال: نعم . الاحتجاج: ٢ / ٤١١ .

الآيات ٧ ـ ٩ (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرى عَلَى اللهِ الكَذِبَ.... وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ).

الآيات: السابعة إلى التاسعة

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرى عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُوَ يُدْعى إلى الإسلامِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَومَ الظّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ * هُوَ الّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ).

التفسير

تقدّم في الآية السادسة أنّ أهل الكتاب وصفوا دلائل نبوة نبينا(صلى الله عليه وآله وسلم)وبيّناته بالسحر المبين، كما قال: (فَلَمّا جاءَهُم بالبيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبينٌ)كذباً وعناداً للفرق الواضح بين السحر والمعجزة.

ومن المعلوم أنّ اتّهام الأنبياء بالسحر أسهل ذريعة للمعاند لتبرير كفره وتكذيبه، ولذلك جاءت الآية السابعة تندّد بهؤلاء وتوبّخهم وأنّهم بتكذيب نبي الإسلام يفترون على الله الكذب، قال سبحانه:

٧. (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعى إِلى الإِسْلامِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَومَ الظّالِمِينَ):

وأمّا أنّهم أظلم الناس، فلأجل أنّهم ظلموا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أوّلاً، والله سبحانه ثانياً، والناس ثالثاً.

أمّا ظلمهم لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) حيث وصفوا عمله بالسحر ونعتوا النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)ذاته بالساحر، ولم ينظروا إلى معجزاته وبيّناته حتى يستضيئوا بنورها.

وأمّا ظلمهم لله سبحانه، فلأنّه تعالى هو الذي أعطاه الحجج والبيّنات، وهؤلاء نسبوها إلى غيره، كما هو مقتضى كونه ساحراً.

وأمّا ظلمهم الناس، فلأنّهم بإخفاء البشارات الواردة في العهدين حالوا بينها وبين الناس، وبذلك صاروا مستحقين للحرمان من هداية الله سبحانه، كما يقول سبحانه عنهم: (وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ).

نعم الآية لا تختصّ بأهل الكتاب الذين بقوا على ديانتهم ولم يؤمنوا بالإسلام بل تعمّ المشركين، فإنّهم أيضاً افتروا على الله افتراءات كثيرة، حيث قال سبحانه:(وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى بَشَر مِنْ شَيْء) الأنعام:٩١..

ثم إنّ قوله سبحانه: (وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ) واضح لأنّهم هم السبب لعدم الاستضاءة من إضاءة الله سبحانه، فما لم

يكن في الإنسان استعداد ورغبة نفسية إلى الاستضاءة ولم يضع نفسه في مهب رياح الرحمة والهداية لا يستضيء من نورها ولا يتمتع بهداية الله سبحانه.

وحاصل الكلام: أنّ هؤلاء المكذّبين ـ مضافاً إلى أنّهم لا يستضيئون بنور النبوة ـ كانوا سبباً لمنع الناس عن طريق الحق، بتكذيب الآيات الإلهية، وهذا هو الظلم الكبير، فهو يظلم نفسه وفي الوقت ذاته يمنع الناس عن الاستضاءة واعتناق الدين الصحيح.

٨ . (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ):

قد ورد مضمون هذه الآية في مورد آخر، هو قوله سبحانه: (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرونَ).(التوبة:٣٢) والفرق بين الآيتين هو تعلّق إرادة الكافرين بنفس الإطفاء في سورة التوبة، كما قال:(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا)، أي يريدون الإطفاء، بينما في المقام تعلّقت إرادة الكافرين بشيء ينتهي إلى الإطفاء وإن شئت قلت بمقدماته، بشهادة قوله: (يريدون ليطفئوا) فالإطفاء غاية للإرادة المتعلّقة بشيء، وإلى ما ذكرنا يُنظَر قول الراغب: والفرق بين الموضعين أنّهم في قوله: (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا)يقصدون إطفاء نور الله، وفي قوله: (ليطفئوا نور الله) السبب الموصل إلى الإطفاء، وهو النفخ بالأفواه والإطفاء غرض وغاية. وكأنّهم زعموا أنّ نور الله سبحانه كشمعة تُطفأ بأدنى نفخة، ولذلك رموه بالسحر وانقطاع صلته بالله ولكنّهم أخطأوا، فنور الله لا يُطفأ، فعملهم، نظير عمل من يريد إطفاء نور الشمس بنفخة في الهواء، وهذا يكشف عن حمقهم.

أمّا لفظ النور فقد أُضيف إلى الله سبحانه، فقال: (اللهُ نُوْرُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ). النور:٣٥.

وأمّا في غير هذا المورد، فتارة يُطلق ويراد به الإيمان والإسلام، ويُراد من الظلمة الكفر، يقول سبحانه: (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَولياؤُهُمُ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ).(البقرة:٢٥٧.)

وأُخرى يُطلق ويراد به القرآن الكريم، قال سبحانه: (وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبيناً). النساء:١٧٤.

وثالثاً يطلق ويراد به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال سبحانه: (قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ). المائدة:١٥.

وعلى هذا فيمكن أن يريد سبحانه من قوله: (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ)الدعوة النبوية للإسلام، ويُحتمل أن يراد به القرآن، بشهادة أنّه أُشير إليه في الآية المتقدّمة: (قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ) فإنّ المُشار اليه هو القرآن... ويحتمل أيضاً أن يراد به النبي الأكرم بشهادة الآية التاسعة حيث قال سبحانه: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ).

فكلّ من الإسلام والإيمان والقرآن والذكر الحكيم نور والنبي الأعظم نور، وهذه الأنوار الإلهية تبقى مدى الدهر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثمّ إن لفظ النور موضوع للنور الحسّي وإطلاقه على الموارد الثلاثة من باب الاستعارة لوجود أثر النور الحسّي فيها، أوضحها هو أنّ الإنسان بفضل الأنوار المادية يستطيع السير بسلامة في طرقه، ولولا هذه الأنوار لسقط في الهاوية وهلك، وهكذا نور الله المتجلّي في دينه وكتابه ونبيه، يُري نهجَ السعادة في الحياة الدنيا والآخرة للإنسان ويجعله يسير عليه، فلا يسقط الإنسان في مهاوي الشقاء.

وهناك وجه آخر وهو أنّ قُطّاع الطريق يخرجون من أوكارهم في ظُلَم الليل، دون نور النهار وهكذا شياطين الجن والإنس يستغلون البيئات التي ليس فيها أثر من الدين والكتاب وأخبار النبوة، فينشرون أفكارهم السامة بين الناس وبالأخصّ بين الشباب، إلى غير ذلك من الآثار المادية للنور الحسّي المتجلّية في الموارد الثلاثة بصور أُخرى. ومع هذه العراقيل الواقعة أمام نور الله، فإنّ (اللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ).

والكافر وإن كان يعمّ المشرك وأهل الكتاب ولكن المراد به في المقام أهل الكتاب بقرينة قوله في الآية التالية:(وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

تخصيصهم بالذكر يدلّ على المراد من الكافرين في المقام أهل الكتاب وتكون النتيجة أنّ الكفار بعامّة فرقهم كارهين لإتمام النور وظهور الدين الإلهي.

وهذه الفقرة، من الأخبار الغيبية في القرآن الكريم حيث يخبر سبحانه أنّه سيتم نوره، ولعل المراد انتشار دينه في البلدان عامّة (وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ)وأقاموا السدود أمام انتشار النور. فكراهتهم لا تؤثر أمام إرادته النافذة.

٩. (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ):

لمّا ذكر سبحانه في الآية المتقدمة أنّه سيتم نوره عاد إلى تأكيد مضمونه بقوله: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ) ردّاً لزعم الكافرين أنّه ليس مرسلاً من الله سبحانه، أرسله (بِالْهُدى وَدِينِ الحَقِّ)لا بالسحر والكهانة والإضافة في (دِينِ الحَقِّ)بيانية أي: الدين الحق.(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) الظاهر أنّ المراد من الدين كل سبيل مسلوك غير سبيل الله الذي هو الإسلام، والغاية من إرسال النبي الخاتم هو ذاك: (وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) من عبدة الأوثان.

وبما ذكرنا تظهر أُمور:

١. أنّه سبحانه مع أنّه حصر الدين في الإسلام ونفى عن تسمية غيره ديناً وقال : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلام) آل عمران:١٩. ، إلاّ أنّ قوله: (عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)تضمّن الإقرار بوجود دين غيره، وعندئذ يكون المراد بالدين فيه كلّ سبيل مسلوك غير سبيل الله، وإنّما أُطلق عليه لفظ الدين من باب المجاز، فالنازل من الله سبحانه دين واحد وهو دين الإسلام.

ولا يطلق على غيره لفظ الدين إلاّ مجازاً، فليس له سهم من الدين إلاّ اللفظ؛ كما قال سبحانه في حق الآلهة المزعومة: (أَتُجادِلُونَني في أَسْماء سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطان) الأعراف:٧١. ، وقال سبحانه: (إِنْ هِيَ إِلاّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطان) النجم:٢٣. ، فليس لهم من الألوهية إلاّ الاسم.

نعم المراد بالإسلام هو التسليم أمام الله سبحانه الذي هو الأصل المشترك بين عامّة الشرائع السماوية فالدين بمعنى التسليم أمام الله سبحانه أمر مشترك لا يختلف فيه أحد من أصحاب الشرائع، ولو كان هناك اختلاف فإنّما هو في الشريعة، فالدين مطلقاً واحد والشرائع مختلفة، ويظهر ذلك من التأمّل في قوله سبحانه:(لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً)(المائدة:٤٨ .). فالأنبياء كلّهم ينهلون من منهل واحد، وإنّما الاختلاف في الشريعة والطريقة.

٢. قوله: (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) وفيه احتمالات:

أ. الظهور هو الغلبة بالدليل والبرهان الذي يقلع كلّ شبهة عن ذهن الإنسان ويثبت أنّ الدعوة المحمدية دعوة إلهية.

ب. الظهور هو انتشار الدين في الجزيرة العربية وغلبته على الوثنية، وهذا قد صار محقّقاً قبل رحلة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم).

ج. الظهور هو انتشاره في أرجاء العالم من غير أن يختصّ بالجزيرة العربية.

والظاهر هو الثالث لقوله:(عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)، أي لا يبقى دين إلاّ ويخفت نوره وينطفئ بنور دين الإسلام، وهذا ما لم يتحقّق بعد.

فإذا كان المراد غلبة دين الإسلام على كافّة الأديان فالظاهر من الروايات أنّه يتحقّق عند ظهور الإمام المهدي(عليه السلام).

روى علي بن إبراهيم في تفسيره قال: حتى إذا خرج يظهره الله على الدين كلّه حتى لا يُعبَد غير الله، وهو قوله: «يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً». تفسير نور الثقلين:٥/٣١٧.

ثمّ إنّ سيطرة الإسلام بعد ظهور الإمام المهدي(عليه السلام) لا تتمّ بمنطق القوة والإكراه والسيف ـ وإن كان لها دور في بعض الموارد ـ وإنّما السبب الأساسي لإيمان الناس هو تسرُّب اليأس إلى نفوسهم من الأنظمة الوضعية التي لا تخدم إلاّ الشيطان وأذنابه من الظلمة.

وفي تلك الظروف التي يغلب فيها على الأُمم اليأسُ من كلّ نظام غير سماوي، تتحفّز النفوس لاستقبال الدعوة التي يطلقها الإمام المهدي(عليه السلام) بجدّ وحماسة، ولن يقف في وجهها إلاّ القليل من الذين لا يقيمهم إلاّ السيف.

وبتعبير السيد الشهيد محمد باقر الصدر (قدس سره): أنّ ظهور المهدي(عليه السلام)

يُفترض أن يكون في أعقاب فراغ كبير، يحدث نتيجة نكسة وأزمة حضارية خانقة. وذلك الفراغ يتيح المجال للرسالة الجديدة أن تمتد، وهذه النكسة تُهيِّئ الجو النفسي لقبولها، وليست هذه النكسة مجرد حادثة تقع صدفة في تاريخ الحضارة الإنسانية، وإنّما هي نتيجة طبيعية لتناقضات التاريخ المنقطع عن الله سبحانه وتعالى، التي لا تجد لها في نهاية المطاف حلاًّ حاسماً، فتشعل النار التي لا تُبقي ولا تذر، ويبرز النور في تلك اللحظة ليطفئ النار، ويقيم على الأرض عدل السماء. بحث حول المهدي:٦٤، المجموعة الكاملة لمؤلفات السيد محمد باقر الصدر، ج١١.

٣. ثم إنّه سبحانه خصّ المشركين بالكراهة وقال:(وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون)لأنّهم أكثر الناس كراهة، وهذا دليل على أنّ المراد بالكافرين في الآية المتقدّمة هم أهل الكتاب كما مرّ.

الآيات ١٠ ـ ١٣ (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَة تُنْجِيكُمْ .... وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنينَ) .

(يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَة تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذاب أَليم * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ في سَبيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنّات تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً في جَنّاتِ عَدْن ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظيم * وأُخرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَريبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنينَ) .

التفسير

١٠. (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَة تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذاب أَليم):

الآية بمنزلة الإجابة لسؤال ربما يثار وهو: ما الأمر الذي يُنجي الإنسان من عذاب الله يوم القيامة، فوافاه الجواب بقوله(يا أيها الذين آمنوا) الخ.

التجارة: هي التصرف في رأس المال طلباً للربح، ولا يوجد في كلام العرب، تاءٌ بعده جيم إلاّ هذه اللفظة. المفردات للراغب، مادة «تجر».

والآية تحثّ على الجهاد الذي هو الهدف الرئيسي في تلك السورة كما مرّ، فقال: (إنّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ في سَبيلِهِ صَفّاً كأنّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ).(الصف:٤.)

والفرق بين الآيتين هو أنّ التحريض والترغيب إلى الجهاد في هذه الآية أكثر من الآية المتقدّمة. ثمّ إنّ قوله: (تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذاب أَليم) يدلّ على أنّ تارك الجهاد يشمله العذاب ولا نجاة له إلاّ بسلوك هذا الطريق.

١١. (تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ):

وبما أنّ التجارة كما مرّ تقوم بالتصرف في رأس المال، فرأس المال الذي يتّجر به المؤمنون عبارة عن أمرين:

١. (تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ)، أي إيماناً خالصاً يعبدون الله وحده ويطيعون رسوله. والإيمان بالله يوجد أرضية صالحة للاتّجار بالنفس والنفيس.

٢. (وَتُجاهِدُونَ فِي سَبيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ). نعم ربما يتّجر بالنفس دون النفيس لفقره، أو بالمال، لعدم تمكّنه من المشاركة في الجهاد البدني، وفي الآية إشارة إلى ذينك الأمرين ولا نجاة له إلاّ ببذلهما.

وعلى كلّ تقدير فالآية تصوّر لنا عرضاً رائعاً، وهو أنّ قوام التجارة بأُمور أربعة: البائع، والمشتري، والبضاعة، والثمن؛ فالبائع هو المؤمن، والمشتري هو الله سبحانه، والبضاعة هي النفس والمال، والثمن هو المغفرة ودخول الجنة؛ إلى غير ذلك ممّا يأتي في الآية

السابعة، فأيّة تجارة أربح من ذلك. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

(ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُم)

فيه اسم إشارة ـ أعني : ذا ـ وضمير ـ أعني: كم ـ فاسم الإشارة يشير إلى العمل الذي يقوم به الإنسان المؤمن، وفي الضمير(كم) التفات إلى المخاطبين، أي إنّ هذا ـ أيّها المؤمنون ـ خير لكم، إن كنتم تعلمون.

و ١٣. (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنّات تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنّاتِ عَدْن ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وأُخرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) :

إنّ التجارة قائمة على أمرين:المبيع، والثمن.

فالبائع يقوم بعرض مبيعه ودفعه إلى المشتري وتمليكه له، والمشتري يقوم بتقييم المبيع ودفع ثمنه إلى البائع.

فالله سبحانه يشبِّه عمل المؤمن المجاهد بالبائع الذي يعرض نفسه ونفيسه في سبيل الله ويشتريه الله سبحانه بثمن مؤلَّف من أُمور أربعة:

١.(يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) والفعل مجزوم لشرط مقدّر مفهوم من الآية السابقة، وهي: إن آمنتم وجاهدتم في سبيل الله: (يَغْفِرْ لَكُم...). ولولا المغفرة لما أمكن دخول الجنة التي هي الجزء الثاني للثمن.

٢. (وَيُدْخِلْكُمْ جَنّات تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ)، وقد وعد به سبحانه المؤمنين في غير واحدة من الآيات.

٣. (وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنّاتِ عَدْن)، والمراد بالمساكن: القصور، وإنّما خصّ المساكن بالذكر لأنّ المجاهدين سيفارقون مساكنهم، فوعدهم الله سبحانه أنّ لهم مساكن في الجنة، يقول سبحانه: (قُلْ إِنْ كانَ آباؤكُم وَأَبْناؤكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُم...) إلى قوله: (وَمَساكِنَ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهاد فِي سَبِيلِهِ). التوبة:٢٤.

ثمّ إنّه يصف هذه الأجزاء الثلاثة بقوله: (ذلكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)، فإنّ السعادة الأُخروية سعادة عظيمة لا يعادلها شيء، ولكنّ الإنسان الدنيوي ربّما لا ترضى نفسه بهذه الوعود؛ لأنّه غارق في الدنيا لا يرى ما وراءها من الأثمان الثلاثة المتقدّمة، ولذلك ضمّ إليها سبحانه جزاءً(ثمناً) رابعاً.

٤. (وأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ).

فقوله: (وأُخرى) صفة حُذف موصوفها، أي ولكم نعمة أُخرى تحبّونها وما هي إلاّ (نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ) عاجل.

ووجه الحب أنّها نعمة عاجلة، والثلاثة الأُولى نَعَم آجلة.

وطبيعة البشر هي الرغبة في العاجلة أكثر من الآجلة، إلاّ من فتح الله عينه على الأُمور الأُخروية فهم لا يقدّرون النعم الدنيوية بشيء مثلما يقدّرون النعم الأُخروية.

والظاهر أنّ المراد من الفتح هو فتح مكة الذي قرّت به عيون المهاجرين والأنصار.

والآية تتضمّن معجزة غيبية، وهي أنّ أمام المسلمين فتح قريب إلى حدّ أمر سبحانه نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم)بقوله: (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ).

وهل المبشّر به هو الجزاء المؤلّف من الأُمور الأربعة، أو أنّه فقط الأمر الرابع؟

يمكن القول بالأوّل، لقوله سبحانه: (وَبَشِّرِ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ أنّ لَهُمْ جَنّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهارُ كُلّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرة رِزْقاً قالُوا هذا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُوتُوا بِهِ مُتَشابِهاً...). البقرة:٢٥.

وقوله في سورة التوبة: (إِنّ اللهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...) إلى أن قال:(فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ). التوبة:١١١.

ومع ذلك يحتمل أن يكون المبشَّر به الفتح العاجل، لوجود الرغبة الشديدة في العاجل من النّعم.

الآية ١٤ (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللهِ.... فأيّدنا الّذينَ آمَنُوا على عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ):

الآية: الرابعة عشرة

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللهِ كَما قالَ عِيسى ابنُ مَرْيَمَ لِلْحوارِيِّين مَنْ أَنْصاري إلى اللهِ قالَ الحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ فأيّدنا الّذينَ آمَنُوا على عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ):

المفردات

الحَواريّون: جمع حواري ـ بفتح الحاء وتخفيف الواو ـ و هي كلمة معرّبة عن الحبشية (حواري) وهو الصاحب الصفي، وليست عربية الأصل ولا مشتقة من مادّة عربية، وقد عدّها الضحاك في جملة الألفاظ المعرّبة، لكنّه قال:إنّها نبطية، ومعنى الحواري: الغسّال. الإتقان للسيوطي:٤٣٤/١، دار ابن كثير، طبع عام (١٤٠٧هـ).

وفي «المقاييس»: حور: ثلاثة أُصول: أحدها لون، والآخر الرجوع، وفي الثالث أن يدور الشيء دوراً؛ فأمّا الأوّل فالحور شدّة بياض العين في شدّة سوادها، وأمّا الثاني قال تعالى:(إِنَّهُ ظَنَّ أنْ لَنْ يَحُورَ)، وأمّا الثالث: المحور: الخشبة التي تدور فيها المحالة.(المقاييس:١١٥/٢ـ١١٧).

وعلى ما ذكره فاللفظ عربي.

وفي «مجمع البيان» سمّي حواري عيسى لبياض ثيابهم، وقيل: لأنّهم كانوا قصّارين. مجمع البيان:٤٢٣/١٠.

وعلى كلّ تقدير فالحواريون اسم أطلقه القرآن على أصحاب المسيح الاثني عشر. وهؤلاء كانوا من تلامذة المسيح(عليه السلام) الذين آمنوا به من أعماقهم وكانوا اثني عشر رجلاً، وهؤلاء هم: سمعان بطرس، واندراوس، ويعقوب بن زبدي، ويوحنا أخوه، وفيلبس، وبرثولماوس، وتوما،ومتى العشار، ويعقوب بن حلفي، ولباوس الملقّب تداوس (ويسمى أيضاً يهوذا ابن حلفي)، وسمعان القانوي(وهو الغيور)،ويهوذا الاسخريوطي. قاموس الكتاب المقدّس: ٤٠٣، مادة «رسول».

الحواريون في الإنجيل

إنّ الذكر الحكيم يصف حواري المسيح بأوصاف جليلة ويمدحهم ـ كما سيوافيك ـ بخلاف إنجيل متى، فإنّه يذكر بعضهم بالذم، وإليك مواضع الذم:

أحد الحواريين يأخذ الرشوة ليسلّم المسيح إلى أعدائه

١. ذهب أحد الاثني عشر، ذاك الذي يقال له«يهوذا الاسخريوطي» إلى عظماء الكهنة وقال لهم: ماذا تعطوني وأنا أُسلّمه إليكم فجعلوا له ثلاثين من الفضة، وأخذ من ذلك الحين يطلب فرصة ليسلّمه.

٢. وفي موضع آخر:

ولمّا كان الفجر عقد جميع عظماء الكهنة وشيوخ الشعب مجلس شورى في أمر (يسوع) ليحكموا عليه بالموت، ثم أوثقوه وسلّموه إلى الحاكم بيلاطس، ولما رأى يهوذا، الذي أسلمه قد حكم عليه، ندم وردّ الثلاثين من الفضة إلى عظماء الكهنة والشيوخ، وقال: أخطأت إذ أسلمت دماً بريئاً، فقالوا له: وما لنا ولهذا الأمر أنت وشأنك فيه، فألقى الفضة عند المقدس وانصرف، ثم ذهب فشنق نفسه. الكتاب المقدس انجيل متى، الباب٢٦، الجملة١٤.

فهذا النصّ يدلّ على أنّ يهوذا ـ من حواري المسيح ـ هو الذي سلّم المسيح في مقابل (٣٠) درهم فضة.

أحد الحواريين كان سارقاً
٣. ويظهر من إنجيل يوحنا أنّه كان سارقاً، قال: وقبل الفصح بستة أيام جاء يسوع إلى بيت عنيا، حيث كان لَعازر الذي أقامه من بين الأموات. فأُقيم له عشاء هناك، وكانت مَرْتا تخدم، وكان لعازَر في جملة الذين معه على الطعام. فتناولت مريم حُقَّة طيب من الناردين الخالص الغالي الثمن، ودهنتْ قدمي يسوع ثم مسحتهما بشعرها. فعبق البيت بالطيب. فقال يهوذا الاسخريوطي أحد تلاميذه وهو الذي أوشك أن يسلّمه: لماذا لم يُبع هذا الطيب بثلاثمائة دينار، فتُعطى للفقراء، ولم يقل هذا لاهتمامه بالفقراء، بل لأنّه كان سارقاً وكان صُندوق الدراهم عنده، فيختلس ما يُلقى فيه. الكتاب المقدس، انجيل يوحنا، الباب٢٧، الجمل ١ـ ٦.

نوم الحواريين ليلة الهجوم على المسيح
٤. فقال لهم يسوع: «سأكون لكم جميعاً حجر عثرة في هذه الليلة ـ إلى أن قال: ـ ثم جاء يسوع معهم إلى ضيعة فقال للتلاميذ امكثوا هنا، ريثما أمضي وأُصلّي هناك... امكثوا هنا واسهروا معي ـ إلى أن قال:ـ ثم رجع إلى التلاميذ فوجدهم نائمين فقال لبطرس: أهكذا لم تقووا على السهر معي ساعة واحدة؟ اسهروا وصلّوا لئلا تقعوا في التجربة، الروح مندفع وأمّا الجسم فضعيف ـ إلى أن قال: ـ ثم رجع فوجدهم نائمين لأنّ النعاس أثقل أعينهم فتركهم ومضى مرة أُخرى وصلّى ثالثة فردّد الكلام نفسه، ثم رجع إلى التلاميذ وقال لهم: ناموا الآن واستريحوا قد اقتربت الساعة التي يسلم فيها ابن الإنسان إلى أيدي الخاطئين قوموا ننطلق! ها قد اقترب الذي يسلمني. الكتاب المقدس، انجيل متى، الباب٢٦، الجمل ٣٦ـ ٤٦، بتلخيص. ما ذكرناه شيء من شمائل الحواريين كما وردت في الإنجيل، فلنرجع إلى القرآن الكريم لنرى أنّه يصفهم بأنّهم أنصار الله وأنّه سبحانه قد أنزل عليهم مائدة من السماء بدعاء المسيح(عليه السلام)، وهذا ما ورد في الآيات التالية: قال سبحانه: (فَلَمّا أَحَسَّ عيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ آمَنّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنّا مُسْلِمُونَ* رَبَّنا آمَنّا بِما أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشّاهِدِينَ). آل عمران:٥٢ـ٥٣. وقال سبحانه: (وَإِذْ أَوحَيْتُ إِلى الحَوارِيّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولي قالُوا آمَنّا وَاشْهَدْ بِأَنّا مُسْلِمُونَ* إِذْ قالَ الحَوارِيُّونَ يا عِيسى ابنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائدةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنها وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَنَكُونَ عَلَيها مِنَ الشّاهِدِينَ* قالَ عِيسى ابنُ مَرْيَمَ اللّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لأَوّلِنا وَآخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرّازِقِينَ* قالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحداً مِنَ الْعالَمِينَ). المائدة:١١١ـ ١١٥. ترى أنّ الذكر الحكيم يحكي عن الحواريين أنّهم قالوا بأنّهم هم أنصار الله،(آمَنّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنّا مُسْلِمُونَ) وقد بلغوا من الكمال مرتبة نزلت عليهم المائدة السماوية. فقد عرّف المسيح ذلك اليوم التي تنزل فيه المائدة عيداً للنصارى، وما هذا إلاّ لأنّ نزول المائدة تعبير عن نزول الرحمة والبركة فيناسب أن يتّخذه ذلك الشعب عيداً لإظهار الفرح والسرور. وأمّا قوله تعالى:(اتَّقُوا اللهَ) فليس توبيخاً لهم، بل الأمر بالتقوى كناية عن تقويمها في القلوب، كما أنّ تقييد الأمر بالتقوى بالإيمان، أعني قوله: (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) لأجل الدعوة إلى ترسيخ الإيمان في القلب. هذا وقد ورد في الروايات نظير ما ورد في الذكر الحكيم، حيث إنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال للنفر الذين بايعوه من الأنصار في العقبة: «أخرجوا إليّ اثني عشر رجلاً منكم يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم».(كنز العمال:١/١٠٣ برقم ٤٦٥؛ الدر المنثور:٢١٤/٦.) وروي أيضاً أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال للنقباء:«أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا

كفيل قومي»، قالوا: نعم. كنز العمال:١٢/٢٠ برقم ٣٣٧٧٩؛ الدر المنثور:٦/٢١٤.

التفسير

قوله سبحانه في هذه السورة: (يا أيُّها الذينَ آمَنوا كُونوا أنْصارَ اللهِ كَما قال عِيسى ابنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصاري إلى اللهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ) أدلّ دليل على تنزيههم واستعدادهم للتضحية في طريق الدين. ثمّ إنّه سبحانه قسّم بني إسرائيل إلى قسمين فقال: (فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إسرائيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ) فالمؤمنون هم الحواريّون ومن كان على خطّهم، والكفّار أكثرهم.

ثم إنّه سبحانه يقول: (فَأَيَّدْنا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ) فهل المراد بالظهور هو الظهور بالبرهان كما عليه بعض المفسرين حيث يقول: المراد بظاهرين، الغالبون بالحجّة والبرهان، والمعنى أنّ بني إسرائيل اختلفوا في عيسى، وهو منهم؛ فمنهم من قال: هو عبد الله ورسوله، وقال آخرون: هو إله، وقال اليهود: ساحر وابن زنا، فأيّد الله سبحانه بالحجة والبرهان القائلين هو رسول الله على الجاحدين والمؤلّهين. وفي رسائل يوحنا: أنّ ضد المسيح هو من أنكر التجسّد واتّحاد لاهوت المسيح بناسوته. أمّا القرآن فيقول: إنّ أعداء المسيح هم الغالون فيه والقالون له.(التفسير الكاشف:٧:٣١٩ـ٣٢٠.)

والظاهر أنّ المراد وراء الظهور بالحجة والبرهان هو الانتصار في نشر الدين وتلبية الناس لشريعة المسيح، فأصبحت الأقلية المسيحية بعد ما كانوا مستخفين مضطهدين أصبحوا ظاهرين منتصرين وحكاماً على البلاد، وفي الآية تلويح إلى أنّ أُمّة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يجري فيهم ما جرى في أُمّة عيسى(عليه السلام)تؤمن منهم طائفة وتكفر طائفة، فإن أجاب المؤمنون استنصاره ـ و قد قام هو تعالى مقامه في الاستنصار إعظاماً لأمره وإعزازاً له ـ أيّدهم الله على عدوهم فيصبحون ظاهرين كما ظهر أنصار عيسى والمؤمنون به.

بقي الكلام في كيفية التشبيه في قوله تعالى: (يا أيُّها الذينَ آمَنوا كُونُوا أنْصارَ اللهِ كَما قال عِيسى ابنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصاري إلى اللهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ). ففي الآية تشبيه، فالمشبه قوله: كونوا أنصار الله، وبطبع الحال يجب أن يكون المشبه به هو كما قال عيسى ابن مريم (عليه السلام) للحواريين: مَنْ أَنْصاري إلى اللهِ، وعندئذ كيف يصح التشبيه؟

ولكن الواقع هو أنّ الآية تحثّ المسلمين على أن يلبّوا دعوة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)وينصروه، كما أنّ الحواريين لبّوا دعوة عيسى ونصروه، وعلى هذا فيكون طرفي التشبيه بالشكل التالي:

يا أيها الذين آمنوا لبّوا دعوة النبي عند دعوته كما لبّى الحواريون دعوة عيسى، عندما قال: مَنْ أَنْصاري إلى اللهِ.

فالفرض هو تشبيه دعوة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بدعوة المسيح، واستجابة المسلمين باستجابة الحواريين...

***

تمّ تفسير سورة الصف

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين

٦٢- سورة الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت هذه السورة بـ(الجمعة) لورود هذا اللفظ فيها، وهو قد يطلق على اليوم السابع من أيام الأُسبوع، كما يطلق على نفس الصلاة المشروعة فيها بحذف المضاف، أي صلاة.

عدد آياتها ومحل نزولها

وآياتها إحدى عشرة آية بالإجماع، وهي مدنيّة بالاتفاق لقضية ورود العير من الشام وترك المصلّين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتوجّههم إلى البيع.

أغراض السورة

تتلخّص أهداف السورة في الأُمور التالية:

١. وصفه سبحانه ـ بعد ذكر تسبيح ما في السماوات وما في الأرض له ـ بأوصاف أربعة: الملك، القدّوس، العزيز، الحكيم.
٢. التنبيه على بعث الرسول من بين الأُميّين، ولكن رسالته عالمية فهو رسول إليهم وإلى غيرهم.
٣. ذمّ اليهود والتنديد بهم حيث تركوا التوراة وراء ظهورهم، وأكبّوا على الدنيا ووصفوا أنفسهم بأنّهم أولياء الله كذباً.
٤. الدعوة إلى إقامة صلاة الجمعة والسعي إليها عند النداء.

الآيات: ١-٤ (يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّماوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ.... وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ العَظِيمِ).

الآيات: الأربع الأُولى

(يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّماوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * هُوَ الّذي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلال مُبين * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ العَظيمِ).

المفردات

الأُميّين: قال ابن فارس: الأُميّ في اللغة المنسوب إلى ما عليه جِبِلّة الناس لا يكتب، فهو في أنّه لا يكتب على ما وُلد عليه.

المقاييس: ١/٢٨، مادة «أُمّ».

يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى:(وَمِنْهُمْ أُمِّيّونَ لا يَعْلَمُونَ الكِتابَ إلاّ أمانيَّ وَإنْ هُمْ إلاّ يَظُنُّونَ) البقرة:٧٨. بأنّهم لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحقّقوا ما فيها . تفسير الكشاف:١/٢٩١.

وقال الطبرسي: ذكروا للأُميّ معان:

أوّلها: أنّه الذي لا يكتب ولا يقرأ.
ثانيها: أنّه منسوب للأُمّة والمعنى أنّه على جبلّة الأُمّة قبل استفادة الكتابة.
ثالثها: أنّه منسوب إلى الأُمّ والمعنى: أنّه على ما ولدته أُمّه قبل تعلّم الكتابة. مجمع البيان:٣٧٣/٤. وعلى هذا فمعنى الأُميّين هو الجماعة الذين غلبت عليهم الأُميّة والبقاء على ما خلقوا من عدم التعرف على القراءة والكتابة.
وربما يقال بأنّ الأُمّيّ منسوب إلى أُمّ القرى، أعني: مكّة. ذكره غير واحد من المفسّرين، ولكنّه غير صحيح إذ الصحيح عند النسبة إلى أُمّ القرى هو القروي لا الأُميّ، يقول ابن مالك:

وانسُب لصدر جملة وصدر ما *** رُكِّب مزجاً، ولِثان تمّما
إضافةً مبدوّة بابن وأبْ *** أو ما له التعريف بالثاني وجبْ
فيما سوى هذا انسبَنْ للأوّلِ *** ما لم يُخَفْ لُبسٌ كعبد الأشهلِ

قال ابن عقيل في شرحه: إذا نسب إلى الاسم المركب فإن كان مركّباً تركيب جملة أو تركيب مزج، حذف عجزه وأُلحق صدره ياء النسب، فتقول في تأبط شرّاً: تأبطي، وفي بعلبك: بعلي؛ وإن كان مركّب إضافة فإن كان صدره ابناً أو أباً أو كان معروفاً بعجزه، حذف صدره وأُلحق عجزه ياء النسبة، فتقول في ابن الزبير: زبيري، وفي أبي بكر: بكري، و في غلام زيد: زيدي. شرح ابن عقيل:٣٩١/٢.
والاقتصار على الابن والأب من باب المثال، وإلاّ فإنّ هذا الحكم يعمّ الأُم والأخ والابنة والأُخت، لاشتراك الجميع معهما في المناط والملاك وهو كونها مركبة تركيب إضافة وحصول الالتباس لو أُلحقت بصدرها.
و«إن» في قوله:(وإِنْ كانُوا من قَبْلُ لَفي...) مخفّفة من الثقيلة وليست شرطية، ولهذا لزمها حرف اللام في خبر «كان» لئلاّ تلتبس بـ :«إن» النافية، والمراد كانوا من قبل بعثة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في ضلال مبين.

التفسير

١. (يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ):
قد مرّ ما هو المراد من تسبيح ما في السماوات وما في الأرض لله في السور السابقة، بقي الكلام في أوصافه الأربعة. فقد وصف نفسه تعالى بـ (الْمَلِكِ) حتى يكون دليلاً على جواز تصرّفه بالتكوين والتشريع، فتكون الدعوة إلى صلاة الجمعة والتأكيد على إقامتها ناشئاً عن كونه ملكاً بيده التشريع.
ثمّ إنّه وصف نفسه تعالى بـ(الْقُدُّوسِ)، أي المنزّه عمّا لا يليق، حتى لا يُتصوَّر أنّه ملك كسائر الملوك الذين (إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا) النمل: ٣٤، ويأخذون كلّ سفينة غصباً.
ثمّ إنّه وصف نفسه بـ(العزيز) الذي لا يُقهر، والغالب الذي لا يُغلَب .
وأخيراً وصف نفسه بـ(الحكيم)وأنّ تصرفاته في كلا الحقلين (التكوين والتشريع) مبنيّة على الحكمة.
٢. (هُوَ الّذي بَعَثَ فِي الأُمّيّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلال مُبين):
قوله سبحانه: (هُوَ الّذي بَعَثَ فِي الأُمّيّينَ رَسولاً مِنْهم)، أي رسولاً من العرب الأُمّيّين.
قوله:(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِه)، أي يقرأ عليهم القرآن الكريم وبالتلاوة يبلغهم رسالات ربّه.
قوله: (وَيُزَكّيهِم)، أي يطهّر نفوسهم من الشرك وعقولهم من الجهل وأعمالهم من القبائح والآثام.

قوله: (وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ) والمراد بالكتاب هو القرآن الكريم، وبالحكمة كلّ ما يهدي الإنسان إلى الخير في العقيدة والسلوك.ويتجلّ ذلك في سنّته(صلى الله عليه وآله وسلم) قولاً وفعلاً وتقريراً.

قوله سبحانه: (وإنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلال مُبين)، أي غارقين في الشرك ورذائل الأخلاق، من وأد البنات والإغارة على الأموال.

بقي هنا كلام وهو أنّه سبحانه أنزل حول بعثة النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) آيات ثلاث:

إحداها: ما في هذه السورة التي وقفتَ على لفظها وتفسيرها.

والثانية: في سورة آل عمران حيث قال: (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلى الْمُؤْمِنينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلال مُبين). آل عمران:١٦٤.

والثالثة: في سورة البقرة حاكياً دعاء إبراهيم(عليه السلام) حيث قال: (رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). البقرة:١٢٩.

وظاهر الآية أنّ الخليل(عليه السلام) طلب من الله سبحانه أن يبعث من ذرّيته رسولاً يعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم، والشاهد على ذلك قوله: (وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ)، وليس هذا إلاّ الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)، فإنّه الرسول الوحيد الذي بُعث من ذرية إبراهيم وإسماعيل كليهما، وأمّا غيره من الرسل فإمّا أنّهم ليسوا من ذرية إسماعيل ـ وإن كانوا من ذرية إبراهيم ـ كأنبياء بني إسرائيل، أو ليسوا من ذريتهما كهود وصالح، فعلى هذا فالآيات الثلاث تشير إلى بعثة نبي الإسلام(صلى الله عليه وآله وسلم)، وعندئذ يُطرح هذا السؤال: ما هو سبب تقديم التزكية على التعليم في الآيتين الأُولتين وتقديم التعليم على التزكية في الثالثة، فما هو الوجه في ذلك؟

والذي يمكن أن يجاب به على هذا السؤال هو أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يتّبع في دعوته الأُسلوب المؤثر والناجح، فإنّ المجتمعات مختلفة، فتارة تكمن المصلحة في تقديم التزكية على تعليم الكتاب والحكمة وذلك عن طريق مناظرة المدعوّين ومحاجتهم، فإذا خلصت النفوس من إدران الشرك وظلم المعاصي يقوم بتعليم الكتاب والحكمة بكلماته الجامعة التامّة، وفي ذلك تكون التخلية متقدّمة على التحلية.

وتارة أُخرى تكمن المصلحة في تقديم التعليم على التزكية، فيقوم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)بمهمّة التزكية عن طريق تعليم الكتاب، ومن هنا كان النبي الخاتم يقوم بعملين مختلفين:

فتارة يدعو المشركين وينصحهم ويحاججهم حتى يخلي نفوسهم، ثم يقوم بتعليمهم الكتاب والحكمة. ويظهر ذلك في مناظرته مع مشركي قريش وغيرهم. الاحتجاج:١/٢٤ـ ٤٣، احتجاجه(صلى الله عليه وآله وسلم) على جماعة من المشركين. وأُخرى يبتدئ بتلاوة الكتاب وتعليم الحكمة.

كلّ ذلك مشاهد في حياة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كما في كيفية دعوة النبي لأسعد بن زرارة حيث دعاه إلى الإسلام بتلاوة آيات ثلاث من سورة الأنعام، أعني قوله سبحانه: (قُلْ تَعالَوا أَتْلُ ما حَرَّمَ اللهُ رَبّكُمْ...). الأنعام:١٥١ـ١٥٣، اقرأ قصتها في كتاب «سيد المرسلين». سيدالمرسلين:١/٥٠ـ٥٢ .

٣ . (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ):

قوله:(وَآخَرِينَ مِنْهُمْ)، ففي مرجع الضمير وجوه:

١. الضمير في(مِنْهُمْ) يرجع إلى الأُمّيين فيكون (آخَرينَ)معطوفاً على (الأُمّيِّين)، ويكون الاختلاف في اللحوق بالزمان، فيكون دليلاً على أنّ رسالته تشمل عامّة الأُميين، سواء أكانوا موجودين في عصر البعثة أو اللاحقين لهم في عمود الزمان، وعلى هذا

تكون «من» تبعيضية، فيكون المعنى: بعث رسوله في الأُميين وفي آخرين منهم يلونَهم في المستقبل.

٢. أن يعود الضمير في(مِنْهُمْ) إلى المؤمنين المفهوم من الآية، وعلى هذا يكون (آخَرِينَ)معطوفاً على (الأُمّيِّين)أيضاً، وعندئذ يكون معنى الآية: بعث في الآخرين من المؤمنين أعم من أن يكونوا أُميّين أو غيرهم، ويكون ذلك دليلاً على سعة شريعته وكونها عالمية، من غير فرق بين العرب وغيرهم.

وهذا الوجهان على القول بأنّ «آخرين» معطوف على قوله: (فِي الأُمّيِّينَ) .

٣. أنّ (آخَرِينَ)معطوف على الضمير في (يُعَلِّمُهُمُ) أي يعلّمهم الكتاب كما يعلم آخرين منهم. وعلى ذلك فلو أُريد من الضمير في قوله: (مِنْهُمْ)الأُميّين يتّحد هذا الوجه مع الوجه الأوّل في المعنى، وإن أُريد به المؤمنون يتّحد مع الوجه الثاني.

وعلى ما ذكرنا يكون معنى قوله: (لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ)، أي لم يلحقوا بهم في الزمان وسوف يلحقون. واحتمال أنّ المراد من عدم الإلحاق في الفضل والفضيلة، خلاف ظاهر الآية.

قوله سبحانه: (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) جيء بهما لرفع التعجب من بعث النبي الأُمي من بين الأُميين وانتشار دعوته، فهو سبحانه عزيز لا يُغلَب، وحكيم لا يفعل إلاّ عن حكمة مطلقة.

ويؤيد الوجه الثاني ـ أي عود الضمير (في) إلى المؤمنين ـ ما رواه السيوطي في «الدرّ المنثور» عن كثير من المحدّثين عن أبي هريرة، قال: كنّا جلوساً عند النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) حين أُنزلت سورة الجمعة فتلاها،فلمّا بلغ (وآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمّا يَلْحَقُوا بِهِمْ) قال له رجل: يا رسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فوضع يده على رأس سلمان الفارسي وقال:«والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء». الدر المنثور:٨/١٥٣. وانظر: روح المعاني للآلوسي:٢٨/٩٤.

٤. (ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ العَظِيمِ):

الظاهر أنّ المشار إليه في (ذلك) جميع ما تقدّم في الآيتين: الثانية والثالثة، وهو أنّ إرسال رسوله للتزكية والتعليم والهداية من الضلال ثم لحوق آخرين بهم من الأُميّين أو من غيرهم ـ على اختلاف في مرجع الضمير ـ كلّ ذلك من فضل الله (يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ) وبذلك إرغام للأنوف المتكبّرة وهي أُنوف اليهود، حيث كانوا يردّون بعثة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) بين الأُميّين ويقولون، كما ذكر سبحانه: (وَلا تُؤْمِنُوا إلاّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ) (هذا مقال اليهود) فردّ عليهم سبحانه بقوله:(قُلْ إنّ الهُدى هُدى اللهِ أَنْ يُؤتى أحدٌ مِثْلَ ما أُوتيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسعٌ عَليمٌ). آل عمران:٧٣.

فله أن يبعث رسلاً من بني إسرائيل أو يبعث رسولاً من الأُميين، وكأنّ هذه الآية مقدمة لما سيوافيك من الحديث عن اليهود في الآيات التالية.

الآيات ٥ ـ ٨ (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التّوراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها.... فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

الآيات: الخامسة إلى الثامنة

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التّوراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ * قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ للهِ مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ * وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمِينَ * قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

المفردات

«المَثَل»: بمعنى الوصف والحال.

التحميل: بمعنى التكليف والأمر بالشيء يقال: حمّلت فلاناً أمراً كذا فاحتمله، وربما يؤمر ولا يحتمل، قال سبحانه: (إِنّا عَرَضْنا الأَمانَةَ عَلَى السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَالجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها). الأحزاب:٧٢.

الكاف في قوله: (كمثل) للتأكيد.

الأسفار: مفرده السفر، وهو بالفتح والسكون بمعنى كشف الغطاء، يقال: أسفر عن وجهه أي كشف الغطاء عنه، وبالكسر والسكون بمعنى الكتاب] الكبير[، أُطلق عليه لأنّه يُسفر عن الحقيقة.(المفردات للراغب:٢٣٣، مادة «سفر».)

(هادوا) يقال: هاد يهود هوداً، إذا تاب ورجع إلى الحق، ومنه قول بعضهم: يا صاحب الذنب هُدْ هُدْ، وقيل: هدنا إليك أي سكنّا إلى أمرك، ومنه قوله سبحانه: (وَاكْتُبْ لَنا في هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً إِنّا هُدْنا إِلَيْكَ)ثم صار الفعل مستعملاً في خصوص اليهود، فمعنى (ياأَيُّها الَّذينَ هادُوا)بمنزلة يا أيها اليهود، ويا أيها الذين تهوّدوا . مجمع البحرين، مادة «هود».

الزعم: هو القول عن ظن أو علم، والمراد هنا الاعتقاد.

الأولياء: جمع الولي والمراد به هنا المحبوب، حيث ادّعى اليهود أنّهم أبناء الله وأحبّاؤه، قال سبحانه: (وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وَأَحِبّاؤُهُ). المائدة:١٨.

الغيب: ما غاب عن الحسّ، ويقابله الشهادة، وهما أمران نسبيان إلينا، وإلاّ فالجميع بالنسبة إلى الله شهود.

التفسير

٥. (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ):

شبّه تبارك وتعالى اليهود ـ الذين كُلِّفوا بالعمل بالتوراة ولكنّهم نبذوها وراء ظهورهم ولم يستضيئوا بنورها قال: (وأنزلنا التوراة فيها نور وهدى). المائدة:٤٤. ـ بالحمار الذي يحمل أسفاراً ولا ينتفع بما فيها من الحكم والعلوم. والآية من مقولة تشبيه المعقول بالمحسوس، حيث إنّ حمل الحمار أسفاراً أمر محسوس وحمل اليهود التوراة أمر معقول.

وفي الآية تحذير للمسلمين من أن يكونوا مثل اليهود، بأن يقتنعوا بتلاوة القرآن دون العمل به أو بدون التفكّر بما فيه من المعارف والقيم وأسرار الخلقة.

وأمّا صلة الآية بما قبلها فواضحة لما تقدّم من أنّه سبحانه أنزل مع النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) كتاباً ليخرجهم من الضلال إلى الهداية، ثم ذكر هذا المثل تحذيراً لهم من أن يكون مَثَلهم في النهاية مثل اليهود.

ويؤيد ذلك أنّه سبحانه أشار في آخر السورة إلى الحالة التي أصابت المسلمين الذين كانوا جلوساً يستمعون إلى خطبة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قبل صلاة الجمعة، فعندما دخلت القافلة التجارية المدينة وسمعوا أجراس العير غادروا المسجد وتركوا النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قائماً، واستهانوا بأعظم المناسك الدينية ولم يقدّروها حق قدرها، فصار عملهم هذا منبئاً عن مستقبل مظلم، فحذّرهم الله سبحانه بهذا المثل.

قوله سبحانه: (بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ).

(بئس): من أفعال الذم، والمذموم هو حال القوم لما عرف من أنّ «مَثَل» بمعنى الحال والوصف، فيكون معنى الآية: بئس حال القوم الذين كذّبوا بآيات الله، فيكون المخصوص بالذم هو نفس مثل الذين كذّبوا وهم اليهود لأنّهم كذبوا بالقرآن، بل حتى بالتوراة، لأنّهم لم يؤمنوا بالبشارات التي وردت فيها، والتي بلغت حدّاً يقول عنه سبحانه: (الّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ). البقرة:١٤٦.

قوله: (وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ) وذلك لظلمهم أنفسهم سدّوا طريق الهداية، فلا يستضيئون بنورها، وإنّما يستضيء بنور الهداية من يعشو إليه ويستشفي به.

***

٦. (قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ للهِ مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ):

كان اليهود يتبجّحون ويفتخرون بأنّهم أولياء الله وأحباؤه وأنّهم شعب الله المختار، وأنّ الجنة خالصة لهم ولا تمسّهم النار إلاّ أياماً معدودة، فجاءت هذه الآيات ردّاً عليهم بأنّهم كاذبون في هذا الزعم والاعتقاد، والشاهد على ذلك أنّ الحبيب يحب لقاء حبيبه، في حين أنّهم يكرهون الموت ويفرّون منه، وهذا دليل على كذبهم في هذا القول.

٧. (وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمِينَ):

يبيّن سبحانه سبب كراهتهم للموت وفرارهم منه، بقوله: (وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) إشارة إلى الجرائم والمظالم التي ارتكبوها.

يقول الشريف الرضي: والمراد لا يتمنون الموت أبداً خوفاً ممّا فرط منهم من الأعمال السيّئة والقبائح المجترمة، ونسب تعالى تلك الأفعال إلى الأيدي لغلبة الأيدي على الأعمال وإن كان فيها ما يعمل بالقلب واللسان تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٢٩١ ..

وقوله(قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) كناية عن كلّ ما صدر عنهم من الجرائم سواء أكانت باليد أو بغير اليد، غير أنّهم ربما يزعمون أنّه تخفى أعمالهم عن الله سبحانه، فيقول: (وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمِينَ)، ثمّ إنّه سبحانه يذكّرهم بأنّ الموت سنّة قطعية على الأُمم جمعاء وبعده الحساب والجزاء، حسب الأعمال ولذلك لا فائدة في فرارهم، فإنّ الموت سيلاقيهم ثم يُجزون الجزاء الأوفى كما في الآية التالية:

٨ . (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أي تعملون في الدنيا من المعاصي والجرائم والموبقات، ومن الدسائس والمكائد والمؤمرات، التي تستهدف إثارة الفتن ونشر الفساد بين الأُمم، لا سيما بين أبناء الأُمّة الإسلامية .

والمراد من تمنّي الموت هو التمنّي الحقيقي الذي يكشف عنه عمل الإنسان وإلاّ فالتمنّي اللفظي العاري عن الحقيقة ربما يصدر من أكثرهم ولكنّهم يتمنون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

وعلى ذلك فقوله: (فَتَمَنَّوا الْمَوْتَ) أمر تعجيزي، كما في قوله: (فَأْتُوْا بِسُورَة مِنْ مِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ). البقرة:٢٣.

الآيات:٩-١١(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ.... وَاللهُ خَيْرُ الرّازِقِينَ):

الآيات: التاسعة إلى الحادية عشرة

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوا إِلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرّازِقِينَ):

المفردات

«الجُمُعة»: والجُمْعة لغتان وجمعها جُمَع وجُمْعات.

وضم الميم لغة جمهور العرب، وسكونها لغة عُقيل، والمراد من ذكر الله صلاة الجمعة بقرينة أنّ النداء في ظهرها لإقامتها.

واختلفت كلمتهم في تسمية اليوم السابع من الأُسبوع بالجمعة، فربما يقال: إنّ الأنصار جمّعوا الجمعة قبل أن يقدم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) المدينة، فقالوا لليهود يوم يجتمعون فيه كلّ سبعة أيام، وللنصارى يوم أيضاً مثل ذلك، فلنجعل يوماً نجتمع فيه،

فنذكر الله عزّ وجل ونشكره فاجعلوه يوم العَروبة فاجتمعوا إلى أسعد بن زُرارة، الذي أسلم قبل ورود النبي المدينة فصلّى بهم يومئذ وذكرهم، فسمّوه يوم الجمعة. مجمع البيان:٩/٤٣١.

ولكن الظاهر أنّه كان للعرب قبل البعثة ـ كسائر الأمم ـ يوم خاص للاجتماع، إذ من البعيد أن لا يكون لأُمّة عريقة يوم كيوم الجمعة يجتمعون فيه ويستريحون.

قُضيت: بمعنى فرغتم من الصلاة.

فضل الله: هو ابتغاء أسباب المعاش بقرينة النهي في الآية السابقة عن البيع، والأمر ليس للإيجاب بل لرفع الحظر المستفاد من قوله:(وَذَرُوا الْبَيْعَ)وقد ثبت في الأُصول أنّ الأمر بعد الحظر أو بعد توهُّمه لا يدلّ على الوجوب.

الانفضاض: من باب الانفعال مطاوع فضّه، إذا فرّقه فتفرّق، نظير قولهم: كسرته فانكسر.

اللَّهو: في الآية هنا بمعنى ضرب الطبل، والضمير في إليها يرجع إلى التجارة.

وبما أنّهم ينفضّون إلى كلا الأمرين: التجارة واللهو، في الآية تقدير: فإذا رأوا تجارة انفضّوا إليها، وإذا رأوا لهواً انفضّوا إليه.

التفسير

٩. (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوا إِلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ):

تحثّ الآية على أداء هذه الفريضة بأفضل وجهها وتؤكّد عليها، ولذلك يقول: (فَاسْعَوا إِلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ)، أي امشوا إليها مشياً سريعاً وذروا كلّ ما يلهيكم عن ذكر الله، وذكر البيع من باب المثال الغالب.

ثم أشار إلى ما في تلك الفريضة من الخير والبركة بقوله: (ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

فقوله: (نُودِي) بصيغة المجهول كناية عن عدم اختصاص النداء بمناد خاص أو نيابة عنه، بل في كلّ زمان قام إنسان بالنداء مع اجتماع سائر شرائطه يجب السعي إليها.

ثمّ إنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أقام صلاة الجمعة لأوّل مرّة في مسيره من قبا إلى المدينة، قال ابن هشام: فأدرك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاّها في المسجد الذي في بطن الوادي، فكانت أوّل جمعة صلاّها بالمدينة. السيرة النبوية لابن هشام:١/٤٩٩.

والمراد بالمدينة أي حواليها. وقد نقل في «مجمع البيان» الخطبة التي خطبها رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)فيها، فقال: «الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأؤمن به ولا أكفره، وأُعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور...». مجمع البيان:٩/٤٣٢.

روي في «الوسائل» أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قال في إحدى خطبه في يوم الجمعة ونقلها المخالف والمؤالف: «إنّ الله تبارك وتعالى فرض عليكم الجمعة فمن تركها في حياتي أو بعد موتي استخفافاً بها أو جحوداً لها، فلا جمع الله شمله ولا بارك له في أمره، ألا ولا صلاة له، ألا ولا زكاة له، ألا ولا حجّ له، ألا ولا صوم له، ألا ولا برّ له حتّى يتوب». وسائل الشيعة:٥، الباب١ من أبواب صلاة الجمعة، الحديث٢٨.

وقال الإمام الصادق(عليه السلام): «من ترك الجمعة ثلاثاً من غير علّة طبع الله على قلبه». وسائل الشيعة:٥، الباب١ من أبواب صلاة الجمعة، الحديث٢٠.

وهذه النصوص وغيرها التي وردت في المجاميع الحديثية تكشف عن أنّ صلاة الجمعة ليست عبادة عادية، بل لها المكانة الخاصة في صميم التشريع:

إنّها عبادة جماعية تهذّب النفوس وتصقلها، وتدفع الإنسان إلى التقوى وتجنّبِ المحرّمات وتدعوه إلى الانقطاع عن الدنيا

والتشبّث بالآخرة .

إنّها مظهر الإخاء والتماسك والوحدة والتآلف؛ إذ تجسّد ترابط المسلمين وانشدادهم بعرى الإيمان وإن كانوا من قوميات شتّى.

إنّها مظهر من مظاهر السياسة الإسلامية العامّة، حيث يقف فيها المسلمون على أهمّ الأحداث والمواقف والقضايا التي تهمّهم وتتصل بحاضرهم ومستقبلهم حتّى يكونوا على بصيرة من أمر دنياهم كما هم على بصيرة من أمر دينهم.

ومن هنا، يفترض بخطيب الجمعة أن يكون ذا وعي ومعرفة بما يمتُّ إلى المسلمين من أُمور سياسية واقتصادية مختلفة وما يحوكه الأعداء ضدهم من مؤامرات.

ففريضة هذه مكانتها في الكتاب، ومنزلتها في السنّة وأحاديث العترة؛ وهذه آثارها البنّاءة، ونتائجها المشرقة، لهي جديرة بالسعي إليها وأدائها كما فرض الله تعالى.

وقد ورد في أحاديث العترة(عليهم السلام) ما يشير إلى هذه الآثار والمنافع الكثيرة لصلاة الجمعة.

يقول الإمام الرضا(عليه السلام):

«إنّما جعلت الخطبة يوم الجمعة، لأنّ الجمعة مشهد عام، فأراد أن يكون للأمير سبب إلى موعظتهم وترغيبهم في الطاعة وترهيبهم من المعصية، وتوقيفهم على ما أراد من مصلحة دينهم ودنياهم؛ ويخبرهم بما ورد عليهم من الآفاق(و) من الأهوال التي لهم فيها المضرّة والمنفعة...». وسائل الشيعة: ٥، الباب٢٥ من أبواب صلاة الجمعة، الحديث٦.

إنّ صلاة الجمعة عبادة سياسية، أمّا كونها عبادة فواضح إذ مضافاً إلى أنّ نفس صلاة الجمعة عبادة كسائر العبادات، فإنّ الإمام يعظ الناس ويأمرهم بالتقوى ويعلّمهم الأحكام ويرشدهم إلى القيم والأخلاق.

وأمّا كونها سياسية، فلأنّ الإمام في خطبته يركّز على توعية الناس بالأحداث السياسية والاجتماعية، ويأمرهم بالتعاون والوحدة، ويحذرهم من التشرذم والتفرق، فلذلك لا تجب هذه الصلاة إلاّ تحت شروط خاصة، بخلاف سائر الصلوات فإنّها تقام فرادى وجماعة دون شروط محددة .

إنّ هذه الصلاة ليست بمسألة هيّنة حتى يقوم بها كلّ فرد وفي كلّ بلد، دون أن يخيّم عليه سلطان أو فقيه يرجع إليه الناس، ومن هنا اشتُرط أن تقام في كلّ بلد صلاة واحدة إلاّ إذا كان بين مكاني الصلاتين مسافة فرسخ. وهذه الأهمية ينبغي أن تبعث المسلمين على أن يستثمروا هذا المؤتمر الأُسبوعي المتجسّد في ذلك الاجتماع الباهر الذي يحضره المدني والبدوي، والقريب والبعيد، حتى تعمّ التوعية ويقف الجميع على المشاكل السائدة وكيفية رفعها وعلاجها، والتاريخ يشهد على أنّ صلاة الجمعة كانت في عامة القرون بمثابة سلّم للنهضات السياسية والثورات الإسلامية، حيث إنّ الخطباء يدعون الناس من على منبر الجمعة إلى التحرك نحو هدف خاص.

كيفية إقامة صلاة الجمعة

اتّفق الفقهاء على أنّه يشترط في صلاة الجمعة ما يشترط في غيرها من الطهارة والستر والقبلة، وأنّ وقتها من أوّل الزوال إلى أن يصير ظل كلّ شيء مثله، وربما قيل أقل من هذا، واتّفقوا على أنّها تجب على الرجال دون النساء وأنّ من صلاّها تسقط عنه الظهر.

واختلفوا في العدد الذي تنعقد به الجمعة،

فقال الإمامية: خمسة مع الإمام، والخطبتان شرط في انعقاد الجمعة، وأنّ مكانهما قبل الصلاة، على القول المشهور.

ويجب في كلّ خطبة حمد الله والثناء عليه والصلاة على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)وآله(عليهم السلام)والوعظ وقراءة شيء من القرآن، وأن يزيد في الخطبة الثانية الاستغفار والدعاء للمؤمنين والمؤمنات، ويجب على الخطيب أن يفصل بين الخطبتين بجلسة

صغيرة، وليست العربية شرطاً في الخطبة.

وأمّا الصلاة فهي ركعتان كصلاة الصبح ويستحب أن يقرأ في الركعة الأُولى سورة الجمعة وفي الثانية المنافقون، بعد الحمد في كلّ من الركعتين.

وفيها قنوتان: أحدهما قبل ركوع الركعة الأُولى، والثاني بعد ركوع الركعة الثانية. وفي الحديث عن الإمام الرضا(عليه السلام) «إنّما جعلت الخطبة يوم الجمعة في أوّل الصلاة وجعلت في العيدين بعد الصلاة، لأنّ الجمعة أمر دائم وتكون في الشهر مراراً وفي السنة كثيراً، وإذا كثر ذلك على الناس ملّوا وتركوا ولم يقيموا عليه وتفرّقوا عنه، فجعلت قبل الصلاة ليحتبسوا على الصلاة ولا يتفرّقوا ولا يذهبوا؛ وأمّا العيدين فإنّما هو في السنة مرّتين، وهو أعظم من الجمعة، والزحام فيه أكثر، والناس فيه أرغب، فإن تفرّق بعض الناس بقي عامّتهم، وليس هو كثيراً فيملّوا ويستخفّوا به». وسائل الشيعة:٥، الباب١٥ من أبواب صلاة الجمعة وآدابها، الحديث٤.

قال الزمخشري: وروي عن بعضهم: قد أبطل الله قول اليهود في ثلاث:

افتخروا بأنّهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم في قوله: (فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ).

٢. افتخروا بأنّهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم، فشبَّههم بالحمار يحمل أسفاراً.

٣. افتخروا بالسبت، وأنّه ليس للمسلمين مثله فشرّع الله لهم الجمعة.

ويظهر من غير واحدة من روايات أهل السنة أنّ إقامة الجمعة من شؤون الإمام، حيث رووا أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «لا جمعة ولا تشريق ولا فطرة ولا أضحى إلاّ في مصر جامع» والمراد من المصر الجامع ما أُقيمت فيه الحدود ونفذت فيه الأحكام.

ورووا أيضاً أنّه قال: فمن تركها وله إمام عادل أو جائر...:ورووا أيضاً: أربع إلى الولاة: الفيء والصدقات والحدود والجمعات.

والمسألة فقهية، والتفصيل في محله.

١٠. (فَإذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ):

أي إذا صلّيتم الجمعة وفرغتم منها،(فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ)، أي تفرّقوا (وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ)، أي الرزق في البيع والشراء وغير ذلك.

وفي الوقت نفسه(وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً)، أي غير منكبّين على طلب المال والرزق بل تطلبونه بذكر الله كثيراً (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) فإنّ الفلاح هو في الجمع بين طلب الدنيا وطلب الآخرة. والآية دليل على وجوب رعاية التوازن بين طلب الدنيا والآخرة.

١١. (وَإذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرّازِقِينَ):

اتّفق المفسّرون على أنّ الآية نزلت في عير وردت المدينة بضرب الطبل والنبي يخطب، فتركوا المسجد متوجهين إلى التجارة واللهو.

روى البخاري عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: أقبلت عير يوم الجمعة ونحن مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فثار الناس إلاّ اثنا عشر رجلاً فأنزل الله:(وَإذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، تفسير سورة الجمعة، رقم ٤٨٩٩..

وروى أيضاً عن معاوية بن عمرو، قال: حدثنا زائدة، عن حصين، عن سالم بن أبي جعد، قال: حدّثنا جابر بن عبد الله، ثم ذكر الرواية. صحيح البخاري، رقم ٩٣٦.

قال السيوطي: أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن مقاتل بن حيّان قال:بينا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)يخطب الناس في الجمعة أقبل شاءٌ (شاء: جمع شاة، وهي الواحدة من الغنم للذكر والأُنثى.) وشيء من سمن، فجعل الناس يقومون إليه، حتى لم يبق إلاّ قليل، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «لو تتابعتم لتأجّج الوادي ناراً». الدر المنثور:٨/١٦٧.

وقال أيضاً: أخرج عبد بن حُميد عن قتادة قال: ذُكر لنا أنّ نبي الله(صلى الله عليه وآله وسلم)قام يوم الجمعة فخطبهم ووعظهم وذكّرهم، فقيل: جاءت عير، فجعلوا يقومون حتى بقيت عصابة منهم فقال: كم أنتم؟ فعدّوا أنفسكم، فإذا اثناعشر رجلاً وامرأة، ثم قام الجمعة الثانية فخطبهم ووعظهم وذكّرهم، فقيل: جاءت عير، فجعلوا يقومون حتى بقيت عصابة منهم، فقال: كم أنتم؟ فعدّوا أنفسكم، فإذا اثنا عشر رجلاً وامرأة، فقال: «والذي نفس محمد بيده لو اتبع آخركم أوّلكم، لالتهب الوادي عليكم ناراً» وأنزل الله فيها (وإذا رَأَوْا تِجارَةً). الدر المنثور:٨/١٦٧.

والآية توضح مقدار إيمانهم وإخلاصهم للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)ودينه حيث إنّ كثيراً ممّن كان في مجلسه(صلى الله عليه وآله وسلم) قد انفضّ إلى التجارة أو اللّهو، وتركوا النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)قائماً يخطب لصلاة الجمعة.

ثم إنّه سبحانه أمر نبيه بتذكير المؤمنين بأنّ ما عند الله خير من التجارة التي انفضوا إليها، قائلاً: (قُلْ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارَة).

فإنْ كان الانفضاض وترك النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يخطب لأجل الرزق (فإنّ اللهَ خَيْرُ الرّازِقِينَ).

ويظهر أنّ السورة قد نزلت بعد غزوة خيبر التي وقعت في السنة السابعة من الهجرة، فقد روى البخاري عن أبي هريرة قال: كنّا جلوساً عند النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)فأُنزلت عليه سورة الجمعة. صحيح البخاري:كتاب تفسير القرآن، تفسير سورة الجمعة، برقم ٤٨٩٧.

ومن المعلوم أنّ أبا هريرة قدم إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)وهو بخيبر بعد أن فتحت.

فالآية تحكي عن حال الصحابة بعد سنوات طويلة من جهاد النبي في تربية الصحابة والسموّ بهم إلى مستويات رفيعة من الإيمان والورع، ومع ذلك فقد آثر كثير ممّن كان منهم حول الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، آثر التجارة واللهو على سماع الخطبتين، وقدّم متاع الدنيا على تكريم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)!!

فكيف يدّعى، بعد ذلك، أنّ الصحابة من أوّلهم إلى آخرهم عدول يؤخذ منهم العلم والحديث بلا فحص وتدقيق عن وثاقتهم وعدالتهم، وكأنّهم برحيل النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) عنهم قد تطهّروا جميعاً بمياه العدالة والتقوى؟

***

تمّ تفسير سورة الجمعة

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين

٦٣- سورة المنافقون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ

لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)

سورة المنافقون: تمهيد

نرى من الضروري قبل الدخول في بيان خصائص السورة وتفسير آياتها ـ أن نذكر شيئاً عن تاريخ النفاق ودوره السلبي في حياة المسلمين، وما تركه من آثار هدّامة على المجتمع الإسلامي الذي عانى وقاسى الأمرّين من سلوك هذه الفئة الضالّة التّي كانت تتربّص بالمسلمين الدوائر.

بُعث النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)في مكة المكرمة وأمضى فيها قرابة ثلاثة عشر عاماً داعياً إلى توحيد الله سبحانه وإلى رسالته والإيمان بيوم الجزاء، وكان يتلو على الناس آيات الله لغاية التزكية والتعليم.

وقد دخلت فئة من قريش في الإسلام وقبلوا دعوته، وهم بين مجاهر في إسلامه، ومَن هو مستتر غير مجاهر به، ولم يكن يومذاك في مهبط الوحي إلاّ صنفان: مؤمن وكافر.

وبعد ما هاجر (صلى الله عليه وآله وسلم)ـ تحت ضغط المشركين ـ إلى المدينة المنورة بعد أن لبّت الطائفتان المعروفتان باسم الأوس والخزرج دعوته على نحو غلب الإسلام الشرك، بقي المشركون في ضعف على نحو لم يجدوا بدّاً إلاّ التظاهر بالإسلام وإن كانوا غير مؤمنين به في الباطن، عند ذاك نشأت ظاهرة النفاق أي من يظهر الإسلام ويبطن الكفر. فعندما صار أغلب الناس هم من الذين يؤمنون بالإسلام ويؤيّدونه ويبلّغونه إلى سائر الطوائف، وأصبحت المدينة المنوّرة أُمّ القرى للإسلام وعاصمة دولته، عند ذلك لم يجد المشرك إلاّ الالتجاء إلى ظاهرة النفاق حتّى يحتفظ بعقيدته باطناً، ويسلم على شأنه وشؤونه بالتظاهر بالإسلام .

فالمنافق في لغة القرآن الكريم ليس مطلق مَن خالف قولُه عقيدتَه أو خالف ظاهرُه باطنَه، بل أخصّ من ذلك، وهو: مَن يبطن الكفر ويظهر الإسلام، كما يظهر ذلك من غير واحدة من الآيات.

إنّ ظاهرة النفاق رهن وجود أقلّية ضعيفة ـ في مقابل أكثرية ساحقة ـ لا تستطيع الجهر بعقيدتها وفكرها خوفاً من أن يصيبها ضرر من الطائفة المتغلّبة، فالنفاق بهذا المعنى وإن كان يعمّ كلّ مَن لم يوافق لسانه قلبه حتّى أنّ المؤمن إذا عاش بين الكافرين الحاقدين على الإسلام فأظهر الكفر وستر الإسلام يوصف بالنفاق لغة، ولكنّ مصطلح القرآن في المنافق ليس بهذه السعة، بل يختصّ بمَن ستر كفره بالتظاهر بالإسلام فقط، وأمّا إذا ستر إيمانه بالتظاهر بالكفر فهو من مقولة التقيّة .

وعلى ضوء هذا فمؤمن آل فرعون سيوافيك تفصيله فانتظر. الّذي كتم إيمانه وأظهر الموافقة للملأ، لم يكن عمله من شعب النفاق في مصطلح القرآن، كما أنّ عمل عمّار بن ياسر حين تبرّأ من الإسلام لساناً وقلبه مطمئن بالإيمان، لا يُعدّ نفاقاً بل هو تقية، ولا مانع من أن يكون للقرآن المجيد مصطلح خاصٌّ في معنى النفاق وإن كان أخصّ من المعنى اللغوي، قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ)(المائدة: ٤١ .).

وقال سبحانه: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَ اللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) المنافقون: ١ ..

فقد وصفهم سبحانه بالكذب، لا لأجل كون قولهم: (إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ)مخالفاً للواقع، بل هو مطابق له تماماً، وإنّما وصفهم بالكذب

لتظاهرهم بأنّ ما يقولونه في ألسنتهم مطابق لما في قلوبهم مع أنّه مخالف له مائة بالمائة حيث أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام .

وحصيلة الكلام: أنّ في القرآن الكريم أمرين:

١. النفاق.

٢. التقية.

فالقرآن يخصّ الأمر الأوّل بمَن أبطن الكفر وأظهر الإسلام، والثاني بمَن أبطن الحق سواء أكان في المعارف أو في الفروع وأظهر الموافقة للباطل، خوفاً من ضغط الأكثرية الحاكمة، فمَن زعم أنّ التقية من شعب النفاق فإنّما أخذ بالمعنى اللغوي المتروك (للنفاق).

النفاق لغة واصطلاحاً

إنّ استعمال لفظ المنافق في مَن لم يطابق قوله عقيدته، أو في مَن أبطن الكفر وأظهر الإسلام، إنّما هو مصطلح إسلامي لم يكن له استعمال سابق بين العرب، وذلك لأنّ النفق في اللغة هو سرب في الأرض مشتق إلى موضع آخر، وفي التهذيب له مخلص إلى مكان آخر.

والنفقة والنافقاء جحر الضب واليربوع، سُمّي به لأنّه إذا أُتي من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فخرج، فتكون النافقاء مستورة غير معلومة، وإنّما تعلم بخروج اليربوع، يقال: نفق اليربوع خرج منه. وسمّي المنافق منافقاً لأنّه يدخل في الإسلام من وجه ثم يخرج من غير الوجه الّذي دخل فيه.

وقد تكرر في الحديث ذكر النفاق وما تصرف منه اسماً وفعلاً وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به وهو الّذي يستر كفره ويظهر إيمانه لسان العرب: ١٠ / ٣٥٩، مادة «نفق».

وحصيلة الكلام: أنّ المنافق في اللغة هو مَن يدخل من باب ويخرج من باب آخر، واستعير هذا في مصطلح القرآن لمَن يكتم الكفر ويظهر الإيمان كأنّه يدخل من باب ـ أي لسان ـ ويخرج من باب آخر؛ أو أنّ له وجهين: وجه ظاهر وهو لسانه، ووجه مستور وهو قلبه ؛ كجحر اليربوع حيث إنّ له بابين: ظاهر يدخل منه، ومستور يخرج منه.

نشأة النفاق في المدينة

قلنا: إنّ بيئة مكة كانت خالية من ظاهرة النفاق، وإنّما هي ظهرت في المدينة المنورة بواسطة رجلين:

١. عبد الله بن أُبيّ

إنّ أوّل من تلبّس بهذه الظاهرة هو عبدالله بن أُبيّ بن سلول العوفي، فقد كان قومه قد نظموا له الخرز ليتوّجوه ثم يملّكونه عليهم، فجاءهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، والأوس على تلك الفكرة، فلمّا انصرف قومه عنه إلى الإسلام أظهر العداوة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)حيث رأى أنّه قد استلبه ملكاً، فلمّا رأى قومه قد أبوا إلاّ الإسلام دخل فيه كارهاً، مصرّاً على نفاق وضغن. السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٥٨٥.

ولذلك ربما تبدر منه كلمات تدلّ على عدائه وعناده وحقده لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)حيث زعم أنّ ورود الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)المدينة قد سلبه كلّ ما كان يتوخّاه.

ويشهد على ذلك ما رواه ابن إسحاق عن أُسامة بن زيد بن حارثة، قال: ركب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)إلى سعد بن عبادة يعوده من شكو أصابه، على حمار، وأردفني خلفه، فمرّ بعبدالله بن أُبي وهو في ظل مزّاحم وحوله رجال من قومه، فلمّا رآه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)استنكف رسول الله من أن يجاوزه حتّى ينزل، فنزل فسلّم ثم جلس قليلاً فتلا القرآن، ودعا إلى الله

عزوجل وذكّر بالله وحذّر، وبشّر وأنذر، وعبدالله بن أُبي ساكت لا يتكلّم، حتّى إذا فرغ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)من مقالته قال: يا هذا إنّه لا أحسن من حديثك هذا، إن كان حقّاً فأجلس في بيتك فمَن جاءك له فحدّثه إيّاه، ومَن لم يأتك فلا تغُتَّه به، ولا تأته في مجلسه بما يكره منه.

ولمّا كان هذا الكلام إهانة من الرجل بالنسبة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ وذلك لأنّ نزول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)من مركبه كان تكريماً واحتراماً له ولمن عنده، ولكنّ المنزل عليه قابله بهذه الكلمات القاسية، وكان في المجلس عبدالله بن رواحة مع رجال من المسلمين، فخاطب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)بكلام جميل أزال به غبار الغم الّذي كان على وجه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال: يا رسول الله فاغشنا به وآتنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا، فهو والله ممّا نحب وممّا أكرمنا الله به وهدانا له.

فقام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)من مجلسهم ودخل على سَعد بن عبادة، وفي وجهه ما قال عدوّ الله ابن أُبيّ، فقال: والله يا رسول الله إنّي لأرى في وجهك شيئاً لكأنّك سمعت شيئاً تكرهه، قال: أجل، ثم أخبره بما قال ابن أُبي، فقال سعد: يا رسول الله، أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنا لننظِمُ له الخرز لنتوّجه، فو الله إنّه ليرى أن قد سلبته ملكاً . السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٥٨٨ .

٢. أبو عامر الراهب

الرجل الثاني الّذي تلبّس بالنفاق ولم يكتف حتّى أسّس عصابة من المنافقين بعد فراره من المدينة، هو أبو عامر الراهب، قال ابن هشام: وأمّا أبو عامر فأبى إلاّ الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام، فأتى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)حين قَدِم المدينة، قبل أن يخرج إلى مكة، فقال: ما هذا الدين الّذي جئت به؟ فقال: جئت بالحنيفية دين إبراهيم، قال: فأنا عليها؛ قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إنّك لست عليها، قال: بلى قال: إنّك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها، قال: ما فعلت، ولكنّي جئت بها بيضاء نقية، قال: الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً ـ يعرّض برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)ـ أي إنكّ جئت بها كذلك. قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أجل، فمن كذب ففعل الله تعالى ذلك به.

فكان هو ذلك عدوّ الله، خرج إلى مكة ، ببضعة عشر رجلاً مفارقاً للإسلام ولرسوله، فلمّا افتتح رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مكة خرج إلى الطائف. فلمّا أسلم أهل الطائف لحق بالشام. فمات طريداً غريباً وحيداً السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٥٨٥ ـ ٥٨٦ ..

وروي في الجوامع أنّ بني عمرو بن عوف لمّا بنوا مسجد قباء وصلّى فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)حسدتهم إخوتهم بنو غنم بن عوف وقالوا: نبني مسجداً نصلّي فيه ولا نحضر جماعة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء وقالوا لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)وهو يتجهّز إلى تبوك: إنّا نحبّ أن تأتينا فتصلّي لنا فيه، فقال: إنّي على جناح سفر؟ ولمّا انصرف من تبوك نزل قوله تعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا...) التوبة: ١٠٧ ، فأرسل مَن يهدم المسجد ويحرقه وأمر أن يتّخذ مكانه كناسة يُلقى فيه الجيف والقمامة.

ويظهر من الآية التالية أنّهم بنوه على قصد أن يؤمّهم فيه أبو عامر إذا قدم من دمشق، وأبو عامر هو المعنيّ بقوله تعالى: (وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَ كُفْرًا وَ تَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ)يعني أبا عامر الراهب . تفسير الصافي: ٢ / ٣٧٤ ـ ٣٧٥ .

وهكذا ما سيوافيك بيانه في ذكر بناء مسجد ضرار وردّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)عليه في موضعه إن شاء الله .

يُخرج الحيّ من الميّت

ومن عجيب الأمر أنّ حنظلة بن أبي عامر التحق بالنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وفارق أباه فصار من سادات المسلمين وفضلائهم، وهو المعروف بغسيل الملائكة، وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)لقومه: «إنّ صاحبكم لتغسّله الملائكة»

فسألوا أهله ما شأنه فسُئلت صاحبتُه، فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهايعة، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لذلك: غسّلته الملائكة، وكفى بذلك شرفاً ومنزلة عند الله.

ولمّا كان حنظلة يقاتل يوم أُحد التقى هو وأبو سفيان بن حرب، فاستعلى عليه حنظلة وكاد يقتله، فأتاه الشدّاد ابن أسود فأعانه على حنظلة فخلّص أبا سفيان وقتل حنظلة، ولذلك اشتهر حنظلة بغسيل الملائكة. أُسد الغابة: ٢ / ٥٩ ـ ٦٠.

تغلغل المنافقين في صحابة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ...

ويظهر من كتب السير أنّه تزوّج ببنت عبدالله بن أُبيّ بن سلول، ودخل بها في الليلة الّتي كانت صبيحتها حرب أُحد، واستأذن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)أن يقيم عندها، فأذن له رسول الله فدخل حنظلة بأهله ووقع عليها، فأصبح وخرج وهو جنب فحضر القتال، فبعثت امرأته إلى أربعة نفر من الأنصار لمّا أراد حنظلة أن يخرج من عندها وأشهدت عليه أنّه قد واقعها. فقيل لها: لم فعلتِ ذلك ؟

قالت: رأيت في هذه الليلة في نومي بأنّ السماء قد انفرجت، فوقع فيها حنظلة ثم انضمّت، فعلمت أنّها الشهادة، فكرهت أن لا أشهد عليه ؛ فحملت منه. بحار الأنوار: ٢٠ / ٥٧.

فالمورد من مظاهر اسمه سبحانه (مخرج الحيّ من الميّت) فالأبوان ـ أي أبو عامر وعبدالله بن أُبي ـ من رؤوس النفاق والوَلّدان ـ أي حنظلة وبنت عبدالله ـ من سادات المسلمين وسيداتهم.

تغلغل المنافقين في صحابة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

لقد اهتم القرآن الكريم بأمر المنافقين في كثير من السور، فقد جاء ذكرهم في السور التالية: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، الحج، العنكبوت، الأحزاب، الفتح، الحديد، المجادلة، الحشر، المنافقون، والتحريم.

فلو كان حزب النفاق وأعضاؤه أقلّية غير مؤثرة لم يهتم القرآن بأمرهم في هذا العدد من السور، وهذا دليل على كثرتهم وعظم خطرهم واختراقهم صفوف المجتمع الإسلامي، على وجه يقول سبحانه: (وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) التوبة: ١٠١..

ومن العجيب أنّ حزب النفاق كان له دور في تضعيف معنويات المسلمين في الغزوات والحروب، وكانوا يقومون بالتجسس وأيصال أسرار المسلمين إلى أعدائهم إلى نهاية حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

المثلث المشؤوم

ومن أبرز ظواهر تحرّكهم ضد الإسلام هو تأسيسهم مثلثاً مشؤوماً يشكل أحد أضلاعه حزب النفاق في المدينة.

والضلع الثاني يهود المدينة وخيبر، إذ كانت المدينة موطناً لطوائف ثلاث من اليهود، أعني: يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، مضافاً إلى يهود خيبر.

والضلع الثالث هم مشركو قريش، فقد كان المنافقون يتآمرون لأجل القضاء على الإسلام وذلك بالتجسس ونقل أخبار تحرّكات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وجيشه إلى المشركين. ويظهر ذلك لمن قرأ أحداث غزوتي أُحد والأحزاب وفتح مكّة.

ثم إنّ حزب النفاق قد مات اسماً وحركة بعد رحيل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)وجلوس الخلفاء على منصّة الخلافة، فلا يذكر لنا التاريخ حركة منهم ضدّ الخلافة الإسلامية، وكأنّهم ذابوا في المجتمع لغرض تأمين مصالحهم بأُسلوب جديد وثوب جديد، وهذا ما تؤكده الأحداث المتلاطمة الّتي عصفت بالمسلمين بعد وفاة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم).

ويظهر من العلاّمة الطباطبائي أنّ اختفاء ظاهرة النفاق بعد رحيل النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)يحتمل أن يكون لأحد

وجوه ثلاثة:

١. أنّ المنافقين شملهم التوفيق الإلهي فأسلموا وأخلصوا الإيمان عن آخرهم وتأثّرت قلوبهم من موت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما لم تتأثر بحياته.

٢. أنّهم صالحوا أولياء الحكومة الإسلامية على ترك المزاحمة بأن يسمح لهم ما فيه (تحقيق) أُمنيتهم، مصالحة سرّية.

٣. أنّه وقع هنالك تصالح اتفاقي بينهم وبين المسلمين فوردوا جميعاً في مشرعة سواء، فارتفع التصاكّ والتصادم . الميزان في تفسير القرآن: ١٩ / ٢٩٠ .

وهناك احتمال رابع وهو أنّ موت زعيم النفاق ـ أعني: عبدالله بن أُبيّ ـ شتّت شملهم وفرّق جماعتهم، فلم يستطيعوا إدارة الحزب، فتفرّقوا تفرّق أيادي سبأ .

ثم إنّه يظهر منه (قدس سره) أنّه كانت لظاهرة النفاق جذور في مكّة المكرّمة ولكن بلون آخر، أي لا لغرض التخريب بل لغاية أُخرى حيث يقول: فمن الجائز عقلاً أن يكون بعض من آمن به يتبعه في ظاهر دينه طمعاً في البلوغ بذلك إلى أُمنيته وهي التقدّم والرئاسة والاستعلاء، والأثر المترتّب على هذا النوع من النفاق ليس هو تقليب الأُمور وتربّص الدوائر على الإسلام والمسلمين وإفساد المجتمع الديني، بل تقويته بما أمكن وتفديته بالمال والجاه لتنتظم بذلك الأُمور ويتهيّأ لاستفادته منه واستدراره لصالح شخصه. نعم يمكر مثل هذا المنافق بالمخالفة والمضادّة فيما إذا لاح من الدين مثلاً ما يخالف أُمنية تقدّمه وتسلّطه إرجاعاً للأمر إلى سبيل ينتهي إلى غرضه الفاسد.(الميزان في تفسير القرآن: ١٩ / ٢٨٩ .)

الفرق بين النفاق والتقيّة

قد علمت أنّ النفاق مصطلح إسلامي ليس له سبق في اللغة، وهو يختصّ بمن أبطن الكفر وأظهر الإسلام، ولا يطلق على كلّ مَن يخالف عمله معتقده وإن لم يمتّ للدين بصلة، وبهذا يظهر وجود الفرق بين النفاق والتقيّة، فإنّ الأوّل ـ كما مرّ ـ استبطان الكفر وإظهار الإسلام، ولكنّ التقيّة على العكس، فهي من مقولة استبطان الإيمان وإظهار الكفر، فمؤمن آل فرعون اتّقى من قومه وأظهر الكفر وأبطن الإيمان، وفي ظل تلك الواجهة نصحهم وأنذرهم وقال للملأ الذين اتّفقوا على قتل موسى: (أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَ قَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذِي يَعِدُكُمْ) غافر: ٢٨ . .

كما أنّ عمّار بن ياسر لما أُخذ وعذّب وأشرف على الموت، أظهر الكفر وأبطن الإيمان، وفي حقّه نزل قوله سبحانه: (مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ) النحل: ١٠٦ .، فعلى هذا ففي البيئات الّتي صودرت فيها الحريات، ولم يسمح للناس إلاّ العمل بفقه الإمام أحمد أو نظيره ، فمعتنق مذهب أهل البيت(عليهم السلام)لا محيص له إلاّ التقيّة أي التظاهر في مقام العمل بفقه أحمد، ولكن يبقى اعتقاده على ما عليه مذهب أهل البيت(عليهم السلام)، وهؤلاء أيضاً يبطنون ما هو الحق عندهم، وفي الوقت نفسه يتظاهرون بغيره.

خصائص السورة

تسمية السورة

اسمها «سورة المنافقون» وإضافة السورة إليه مع المحافظة على رفع «المنافقون»، من باب حكاية اللفظ الواقع في أوّله، أعني: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ)، وربما يقال: «سورة المنافقين» إعمالاً للإضافة.

عدد آياتها ومحلّ نزولها
عدد آياتها إحدى عشرة آية وهي مدنية بالاتّفاق .
أغراض السورة
من أهم أغراض السورة أمران: أحدهما: كشف حقيقة المنافقين، وفضح أمرهم، وبيان شدّة عدائهم للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتحذير المؤمنين من شرورهم. الثاني: النهي عن الاشتغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله تعالى، ثم الأمر بالإنفاق ممّا رزقهم الله قبل الموت، حتّى لا يندم الإنسان يوم القيامة على تقصيره في الإنفاق وعمل الخيرات.
شأن النزول
نزلت السورة بعد غزوة بني المصطلق الّتي وقعت في السنة الخامسة بعد الهجرة، بشهادة قول عبدالله بن أُبي: (لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ) المنافقون: ٨ .الّذي قاله في تلك الغزوة، وقد كان للمنافقين إلى هذه السنة قدرة وشوكة، وسيوافيك ما روي حول شأن نزول الآية السادسة والثامنة عند تفسيرهما.
الآيات ١ ـ ٤ (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا.... قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنى يُؤْفَكُونَ).
الآيات: الأربع الأُولى
(إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَ اللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اِتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ * وَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَة عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنى يُؤْفَكُونَ).
المفردات
الجُنّة: قال الراغب: الجَنّ بمعنى ستر الشيء عن الحاسّة، يقال: جنّه الليل أي ستره، والجنان: القلب لكونه مستوراً عن الحاسّة، والمجنّ: التُّرس الّذي يجنّ صاحبه، والجنّة: كلّ بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض.(مفردات الراغب: ٩٨، مادة «جن» .) والمراد بها هنا «الترس» والدرع الّذي يحمي الإنسان من ضربات العدوّ. الطبع: هو الختم، (وَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) التوبة: ٩٣. أي: ختم عليها، والطبع أيسر من الإقفال والإقفال أشدّ من ذلك مجمع البحرين: مادة «طبع».، كما في قوله تعالى: (أَمْ عَلَى قُلُوب أَقْفَالُهَا) محمد: ٢٤ .. ومعنى الآية: (وَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) أي ختم عليها وغشّاها حتّى لا يدخل فيها شيء ولا يخرج منها شيء. المسنّدة: المعتمدة . يؤفكون: من الإفك وهو كلّ مصروف عن وجهه الّذي يحق أن يكون عليه.
التفسير
١. (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَ اللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) المنافقون: ١.: هذه الآية مؤلّفة من فقرات ثلاث: ١. كلام المنافقين. ٢. كلامه سبحانه.

٣. تكذيب من الله سبحانه لقول المنافقين.

أمّا الفقرة الأُولى فقد كان المنافقون يتظاهرون برسالة الرسول ويقولون: نشهد إنّك لرسول الله في غير واحد من المجالس حتّى يستروا بها كفرهم ويتّخذونها جُنّة، كما سيأتي.

والفقرة الثانية ـ أعني قوله: (وَ اللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ)ـ وقعت جملة معترضة بين الفقرتين، فما وجه ذلك ؟

وأي حاجة إلى إقحام هذه الشهادة في المقام؟ فالله سبحانه شهد على رسالته في غير واحدة من الآيات في سور أُخرى.

ولعلّ وجه ذلك هو أنّه سبحانه أكذبهم في الفقرة الثالثة وقال: (وَ اللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ).

ولأجل أن لا يتوهم إنسان أنّهم كاذبون في قولهم: (إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ)بمعنى كون قولهم غير مطابق للواقع، ركّز على رسالة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)لدفع هذا التوهّم، وهو أنّهم غير كاذبين في مفاد الخبر، بل هم كاذبون من حيث المخبرية.

توضيح ذلك : أنّ الكذب تارة يقع وصفاً للخبر، فيكون الخبر كاذباً، كما إذا قال: السماء تحتنا، وهذا كذب خبري .

وأُخرى يكون وصفاً للمخبِر بمعنى أنّ ذات الخبر صحيح ولكن القائل يكذب حيث إنّه يتظاهر بشيء غير معتقد به قلباً، فهم في قولهم: (إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ)كاذبون لا من حيث الخبر، بل من حيث المخبرية، حيث إنّهم كانوا منكرين رسالته من الله.

وبذلك يُعلم أنّ الميزان في الصدق والكذب هو كون الخبر مطابقاً للواقع، فقولهم: (إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ) من هذه الناحية صادق لمطابقته للواقع، وإنّما وصف بالكذب من ناحية أُخرى وهو ادّعاؤهم أنّ ما يقولونه بألسنتهم نفس ما في قلوبهم، والله يؤكد أنّهم: (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ) آل عمران: ١٦٧..

وفي آية أُخرى يقول: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ) المائدة: ٤١

وممّا ذكرنا يظهر بطلان ما نسب إلى النظّام حيث جعل ملاك الصدق والكذب مطابقة الخبر لما في النفس دون الواقع واستشهد، بالفقرة الثالثة، أعني قوله: (وَ اللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)، فمع كون قولهم مطابق للواقع وصفه بالكذب لوجود المخالفة بين القول والمعتقد.

وجه الضعف: أنّك عرفت أنّ الكذب تارة يقع وصفاً للخبر وأُخرى وصفاً للمخبر. فالميزان في الأوّل هو مطابقة الكلام للواقع، وعدمها؛ وفي الثاني فالميزان هو مطابقة الكلام لما هو المعتقد، وقد خلط النظّام بين الوجهين. المطوّل: ٣٢، الطبعة الحجرية قال: صدق الخبر مطابقته لاعتقاد المخبر ولو كان ذلك الاعتقاد خطأ، وكذب الخبر عدمها.

٢ . (اِتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ):

الأيمان: جمع اليمين، بمعنى القسم، ولربما قُرئ إيمانهم بكسر الألف، ولكنّ المشهور هو الأوّل. يحكي سبحانه أنّ المنافقين اتّخذوا أيمانهم المتكرّرة جُنّة عن لحوق أي أذى بهم من جانب المؤمنين .

فإنّ الأقلّيات الّتي تختلف عن الأكثرية في العقيدة خصوصاً إذا كانوا يتآمرون على الأكثرية، يخافون من أن تنكشف نواياهم وأعمالهم الإجرامية، فلذلك يلتجئون إلى الأيمان المغلّظة أنّهم منهم وأنّهم لا يحيكون أي مؤامرة ضد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

فالظاهر أنّهم كانوا يأتون ويقسمون عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)على عدم ارتكاب أي جريمة أو عمل على خلاف مصالح المسلمين، ولذلك كانوا يذبّون عن أنفسهم آثار التهم، فعبّر سبحانه عن ذلك بقوله: (اِتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً).

ولكن الظاهر من «الكشّاف» أنّه حمل الأيمان على شهادتهم برسالة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)وقال: يجوز أن يُراد أن قولهم: (نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ) يمين من أيمانهم الكاذبة ؛ لأنّ الشهادة تجري مجرى الحلف في ما يراد به من التوكيد . تفسير الكشاف: ٤ / ١٠٠.

ولكن الظاهر هو الأوّل؛ لأنّ المسلمين كشفوا في غير مورد من الموارد عن مؤامراتهم وأخبروا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك فطلبهم، فجعلوا يقسمون بأنّهم ما فعلوا ذلك، كما سيأتي تفسير ذلك في قوله سبحانه في هذه السورة: (لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) المنافقون: ٨ . .

وقد ذكر المفسّرون في تفسير قوله سبحانه: (وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ...)(التوبة: ٦١ .) ما يؤيد ما ذكرنا، فلاحظ.

قوله: (فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ): أي أعرضوا عن سبيل الله، ويحتمل صدّوا الناس عن سبيل الله، وفي هذا التعبير إشارة إلى عظم عملهم الإجرامي حيث يمنعون الناس عن الإيمان خفاءً ويظلمونهم مضافاً إلى ضلالهم.

قوله: (إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ): أي أسوأ الناس أعمالاً حيث ضلّوا وأضلّوا.

٣ . (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ):

قوله: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا)، تعليل لقوله: (سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، وقوله: (ذَلِكَ)إشارة إلى ما سبق من كونهم أسوأ الناس أعمالاً، ثم علّل ذلك بقوله: (بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ)أي مرّوا بمراحل:

١. آمنوا برسول الله يوم دخل المدينة وقد استقبلوه استقبالاً حافلاً.

٢. كفروا، وهذا يدلّ على وجود فاصل زماني بين إيمانهم وكفرهم، وهذا قرينة على أنّ إيمانهم كان إيماناً حقيقياً لا صورياً، وهذا ينطبق على غير رؤوساء النفاق كعبد الله بن أُبي وأبي عامر الراهب.

وأمّا أنّهم لماذا كفروا فيمكن أن يكون السبب هو العصبية الداعية إلى الاقتداء بالآباء، كما يمكن أن يكون السبب هو تأثير المشركين في أفكارهم وما عُقد بينهم من الوعود والمعاهدات، إلى غير ذلك من أسباب العدول إلى الكفر، غير أنّ أكثر المفسّرين حملوا العبارة على الإيمان الصوري، قالوا: آمنوا ظاهراً عند النبي والمسلمين، ثم كفروا إذا خلوا بالمشركين مجمع البيان: ٥ / ٥٢٩ . .

وقال الشيخ مغنية: المراد بآمنوا أنّهم عرفوا بين الناس بالإيمان... وإلاّ فإنّ المنافقين لم يؤمنوا بالله طرفة عين، وقوله تعالى: (ثُمَّ كَفَرُوا)أي ثم عرفهم الناس بأنّهم كانوا يظهرون الإيمان ويضمرون الكفر.(تفسير الكاشف: ٧ / ٣٣١ .)

فصارت نتيجة ذلك قوله تعالى: (فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ)والطبع على القلوب، كناية عن غلق أي نافذة في قلوبهم فلا يمكن دخول شيء فيها أو الخروج، تشبيهاً بقناني المشروبات الغازية الّتي أُغلق رأسها بإحكام ليمنع تسرّب الغاز منها، وهذا يعرب عن سدّ كلّ منفذ فيها.

فالقلب المطبوع، المختوم عليه غير قابل للهداية ، لأنّ المفروض صيرورته مغلقاً لا ينفذ منه شيء، نعم لم يكن الطبع على قلوبهم من الله أمراً ابتدائياً غير مسبوق بسبب، وإنّما هو نتيجة جرائمهم، قال سبحانه: (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) غافر: ٣٥ ..

فتوصيفهم بالوصفين دليل على أنّ الطبع على القلب نتيجة اتّصافهم بهذين الأمرين، ولولاهما لما كان هناك طبع وختم .

وبعبارة أُخرى: أنّ التكبّر يورث التعالي على الغير، فيرى المتكبّر نفسه متعالياً وغيره ذليلاً، فعندئذ يستحيل في هذه الحالة أن يتأثر بكلام غيره فيصبح ممّن (لاَ يَفْقَهُونَ)أي لا يميزون الحق من الباطل، وذلك لوجود الساتر بينهم وبين الحق .

٤. (وَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ):

لمّا كان المنافقون مستترين بأيمانهم لا يتميزون عن المؤمنين في بداية الأمر، أراد سبحانه أن يذكر علائمهم ومميزاتهم الّتي يعرفون بها، فذكر أُموراً خمسة:

أ. (وَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ) بحسن منظرهم وتمام خلقتهم وجمال بزتهم، نقل أنّ عبدالله بن أُبيّ كان رجلاً جسيماً، صبيحاً، فصيحاً، ذلق اللسان؛ وقوم من المنافقين في مثل صفته وهم رؤوساء المدينة، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله فيستندون فيه ولهم جاهرة المناظر وفصاحة الألسن، فكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)ومن حضر يُعجبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم تفسير الكشاف: ٤ / ١١٠ ، ولعلّ هذه الخصيصة تختصّ بمنافقي عصر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ ليس كل منافق هو ممّن يعجب الإنسان منظره، نعم يمكن أن يكون الباقي وصفاً لعامّة المنافقين.

ب. (وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ)لفصاحة لسانهم وذلاقة ألسنتهم، فإنّ حزب النفاق يجند أُناساً لإضلال الناس ويعلمهم كيفية الدخول في الموضوع والخروج منه، ولأجل هذه الممارسة يصبحون ذلقي اللسان فصيحي الكلام.

ج. (كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)والخُشُب جمع خشبة، والمسنّدة عبارة عن الخشبة المعتمدة على حائط ونحوه، فتكون في الظاهر غليظة طويلة قوية لكنّها في الباطن نخرة متآكلة لا ينتفع بها، فكذلك المنافق ظاهره سليم وباطنه لئيم لا خير فيه .

ويمكن أن يكون المراد أنّهم إذا احتجّ عليهم ببعض الآيات والدلائل ينظرون في وجه الإنسان دون أن يبدو على وجوههم أي تأثر وردّة فعل، ولذلك شبّهوا بالخشب المسنّدة.

د . (يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَة عَلَيْهِمْ)بما أنّ الخائن خائف فهؤلاء يعيشون في خوف ووجل حذراً من أن تكشف نواياهم وأحوالهم الإجرامية، فكلّ ما سمعوا صوتاً وإن لم يكن لهم علاقة به، يحسبونه موجّهاً لهم، مثلاً: إذا نادى مناد في العسكر للرحيل أو للنزول أو أنشد إنسان ضالّته، يتصوّرون في بادئ الأمر أنّ ذلك موجّه إليهم، فالغش والخيانة في صدورهم جعلهم مصداقاً للقول المعروف: المريب خائف.

هـ. (هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ) العدو يطلق على الواحد والجمع، وقدّم الضمير لإفادة الحصر، وكأنّ العداء منحصر فيهم دون غيرهم، ووجه ذلك أنّ العدو على قسمين:

١. عدو معروف ومشخّص .

٢. عدو ولكنّه متظاهر بالمحبّة فهو صديق في الظاهر وعدو في الباطن.

فالإنسان بما أنّه يعرف الصنف الأوّل من الأعداء يكون على حذر منه في كلّ الأوقات.

وأمّا الصنف الثاني فبما أنّه يبدو كالصديق الحميم لذا يتعامل معه الإنسان معاملة الصديق، غافلاً عن أنّه يتربص به الدوائر، فيكون ضرره أشد من الصنف الأوّل ولذلك قال سبحانه: (هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ)، فكأنّ المنافق هو العدو الوحيد.

وللإمام علي (عليه السلام)كلام حول النفاق قال فيه: «فَلَو عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ منافقٌ كاذِبٌ لَمْ يَقْبَلوا مِنْهُ ولَمْ يُصَدِّقوا قَوْلَهُ، ولكِنَّهُمْ قالُوا: صاحِبُ رَسُولِ اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)رَآهُ، وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِفَ عَنْهُ، فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ...» نهج البلاغة: الخطبة ٢٠٥ . .

وقد أصابت الإسلام خسارات فادحة من قبل المنافقين لم يصب مثلها من غيرهم، فهؤلاء الأُمويّون وعلى رأسهم أبو سفيان، آمنوا ظاهراً وأبطنوا الكفر، وبتظاهرهم بالإسلام تسنّموا منصّة الخلافة قرابة ثمانين عاماً نال فيها الإسلام والمسلمون خسارة لا تجبر وويلات لا تُحصى، وها نحن نذكر هنا ما يدلّ على عدم إيمانهم بالإسلام، وكذبهم على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

فهذا ابن أبي الحديد المعتزلي يقول:

قال أبو جعفر: وقد روي أنّ معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتّى يروي أنّ هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب: (وَ

مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَ إِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَ اللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ) البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ، وأنّ الآية الثانية نزلت في ابن ملجم، وهي قوله تعالى: (وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ) البقرة: ٢٠٧ . ، فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف درهم فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف فقبل، وروى ذلك .

وقال (أبو جعفر): وقد صحّ أنّ بني أُمية منعوا من إظهار فضائل علي (عليه السلام)وعاقبوا على ذلك الراوي له، حتّى إنّ الرجل إذا روى عنه حديثاً لا يتعلّق بفضله بل بشرائع الدين لا يتجاسر على ذكر اسمه، فيقول: عن أبي زينب.

وروى عطاء عن عبدالله في شدّاد بن الهاد، قال: وددت أن أُترك فأُحدّث بفضائل علي بن أبي طالب (عليه السلام)يوماً إلى الليل، وأنّ عنقي هذه ضربت بالسيف.

قال: فالأحاديث الواردة في فضله لو لم تكن في الشهرة والاستفاضة وكثرة النقل إلى غاية بعيدة، لانقطع نقلها للخوف والتقية من بني مروان مع طول المدّة، وشدّة العداوة.

ولولا أنّ لله تعالى في هذا الرجل سرّاً يعلمه من يعلمه، لم يُروَ في فضله حديث، ولا عرفت له منقبة، ألاترى أنّ رئيس قرية لو سخط على واحد من أهلها، ومنع الناس أن يذكروه بخير وصلاح لخَمل ذكره ونسي اسمه، وصار وهو موجود معدوماً، وهو حي ميّتاً!

هذه خلاصة ما ذكره شيخنا أبو جعفر في هذا المعنى في كتاب التفضيل . شرح نهج البلاغة: ٤ / ٦٣ ـ ٧٣ .

وهكذا نرى أنّ بني أُمية قد استمالوا بأموالهم سماسرة الأهواء ليكذبوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)ويسندوا له ما لم يقله، وهذا ما أشار إليه بقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «لا تكذبوا عليّ، فإنّ من كذب عليّ فليلج في النار ». صحيح البخاري: ١ / ٣٥؛ ولاحظ: فتح الباري: ١ / ١٩٩، برقم ٣٨ .

وهاك شاهداً آخر وهو ما ذكره ابن أبي الحديد المعتزلي ـ أيضاً ـ في تولية عثمان، قال: قال الشعبي: فلمّا دخل عثمان رحله دخل إليه بنو أُمية حتّى امتلأت بهم الدار، ثم أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حرب: أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا، قال: يا بني أُمّية، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالّذي يحلف به أبوسفيان، ما من عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة! قال: فانتهره عثمان، وساءه بما قال، وأمر بإخراجه .

وقال ابن أبي الحديد في موضع آخر: وهذا كفر صراح يلحقه اللعنة شرح نهج البلاغة: ٩ / ٥٤ .، قال تعالى: (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ) المائدة: ٧٨ . .

قوله تعالى: (قَاتَلَهُمُ اللهُ): أي أخزاهم ولعنهم، وقيل: إنّه دعاء عليهم بالهلاك. (أَنَّى يُؤْفَكُونَ) و «أنّى» هنا اسم استفهام عن المكان، ويكون كناية عن: كيف، مثل قوله: (أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى) الدخان: ١٣ . ، أي: كيف يعدلون عن الحق، لأجل جهلهم وضلالتهم.

الآيات ٥ ـ ٨ (وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ ... وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ).
الآيات: الخامسة إلى الثامنة
(وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَ للهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَ للهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ).

المفردات

لَوَّوْا: من الليّ: فتل الحبل، يقال: لويته ليّاً، ولوى يده ولوى رأسه، وبرأسه: أماله، ويقال: لوى لسانه بكذا: كناية عن الكذب.

التفسير

٥. (وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ):

ذكر المفسّرون في شأن نزول الآية: إنّه لمّا بان كذب عبدالله بن أُبيّ ـ كما سيأتي بيانه في الآية الثامنة ـ قيل له: قد نزلت فيك آيٌ شِداد، فاذهب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)يستغفر لك، فلوى رأسه، ثم قال: أمرتموني أن أُومن، فآمنت، أمرتموني أن أُزكّي مالي، فزكّيت، فما بقي إلاّ أن أسجد لمحمد، فنزلت: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ) تفسير الكشاف: ٤ / ١٠٢. ولاحظ : مجمع البيان: ٥ / ٤٤٤..

وحاصل الآية: أنّ من علامات المنافقين ـ بما أنّهم لا يؤمنون بالله ورسوله ـ إذا قيل لهم: (تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ)وهزّوها ساخرين متكبّرين، لاعتقادهم بعدم البعث والعذاب.

(وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ): أي متكبّرين على الله ورسوله.

٦. (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ):

ثم إنّه سبحانه أخبر نبيّه بأنّ استغفاره لهم لا يفيدهم حتّى وإن استغفر لهم سبعين مرّة، لأنّ الاستغفار ينفع الإنسان فيما لو لم تنقطع صلته بالله وبرسوله إيماناً وعملاً، وأمّا مَن أدبر عن كتاب الله ورسوله واستكبر عليهما فلا ينفعه دعاء الداعين، ولذلك قال سبحانه: (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ)، ثم علّله بقوله: (إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)، فإنّ الفاسق ما دام مصرّاً على الفسق ـ أي الخروج عن الطاعة ـ تستحيل هدايته .

وقد تكرّر مضمون الآية في آيات أُخر، كقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) البقرة: ٦..

وقد بلغ وضوح الأمر حتّى فهمه الفاسق، يحكي سبحانه عن قول بعضهم: (قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ) الشعراء: ١٣٦ ، فالفاسق هو الّذي غضب الله عليه فكيف يمكن شمول رحمته له، ولو بدعاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)؟! فالقصور ليس في الفاعل ـ فإنّ دعاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)مستجاب ـ بل القصور في القابل.

التوسّل والوسيلة في القرآن الكريم

حثّ القرآن الكريم على التوسّل بأُمور منها: التوسّل بدعاء الأنبياء والتوسّل بدعاء النبي الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولم يختلف في هذا أحدٌ من المسلمين، وقد عرفت أنّ القرآن الكريم يندّد بالمشركين لأنّهم إذا دُعوا إلى التوسّل بدعاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واستغفاره لهم لووا رؤوسهم استهزاءً وأعرضوا عنه، وهذا يدلّ على أنّ التوسّل بدعائه أمر مطلوب والإعراض عنه استهزاءً، كفر بواح.

وقد نقل سبحانه توسّل أولاد يعقوب بدعاء أبيهم فقالوا: (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ)، وقد استجاب لهم أبوهم يعقوب، و (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) يوسف: ٩٧ ـ ٩٨..

ثم إنّه سبحانه يحثّ في آية ثالثة المسلمين قاطبة فيما إذا ظلموا أنفسهم فعليهم أن يتوسّلوا بدعاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال سبحانه: (وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا)(النساء: ٦٤ .) .

فلو حثّ سبحانه على ابتغاء الوسيلة في قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(المائدة: ٣٥ .)، فالتوسّل بدعاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)هو إحدى الوسائل الّتي أُمر المسلمون بابتغائها أي: طلبها،

والابتغاء كما يقول الراغب هو الاجتهاد في الطلب .

فمن حصر الوسيلة الوارد ذكرها في الآية بالتوسّل بدعاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)فقط، فقد أخطأ، ومن جعلها أعمّ فقد أصاب.

ولقائل أن يقول: إنّ الوسيلة هي عبارة عن الإيمان بالله وبرسوله، والجهاد في سبيله وسائر الأعمال الصالحة، وهذا ما يظهر من كلام الإمام علي(عليه السلام) حيث قال: «إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللهِ سُبْحانَهُ وَتَعَالى، الاْيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الاْسْلاَمِ؛ وَكَلِمَةُ الاْخْلاَصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ؛ وَإِقَامُ الصَّلاَةِ فَإِنَّهَا الْمِلَّةُ؛ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ؛ وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ؛ وَحَجُّ الْبَيْتِ وَاعْتِمارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْحَضَانِ الذَّنْبَ. وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ، وَمَنْسَأَةٌ فِي الاْجَلِ؛ وَصَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ؛ وَصَدَقَةُ الْعَلاَنِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ؛ وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ». نهج البلاغة: الخطبة ١١٠ .

قلت: ولكن الظاهر أنّ الإمام (عليه السلام)لا يحصر الوسيلة بما ذكر، وإنّما يصف ما ذكره من أفضل ما يتوسّل به المتوسّلون، فللوسيلة درجات أفضلها الوسيلة القائمة بنفس المتوسّل كالإيمان بالله وبرسوله وما يقوم به من الفرائض والنوافل .

وهناك وسائل أُخرى خارجة عن نفس المتوسّل، أعني: دعاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، بل دعاء المؤمن بحقّ المؤمن الآخر .

هل تختص الآية بحياة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)؟

نعم يبقى الكلام فيما يتوهّم من اختصاص الآية بحياة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)دون ما بعدها، لكنّه توهّم باطل ؛ لأنّ التوسّل رهن أمرين:

١. كون المتوسّل به حيّاً يرزق عند ربه.

٢. وجود الصلة بينه وبين المتوسّل.

وكُلٌّ من الأمرين ثابت للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ أمّا حياته (صلى الله عليه وآله وسلم)فتعلم بالأولوية، فإذا كان الشهداء أحياءً عند ربهم كرامة لهم، فنبي الشهداء أولى بتلك الكرامة.

أضف إلى ذلك: أنّ الحياة البرزخية تعمّ المؤمن والكافر، كيف والقرآن الكريم يحكي عن حياة رجل جاء من أقصى المدينة مصدّقاً برسل المسيح (عليه السلام)وقال: (وَ جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَ هُمْ مُهْتَدُونَ * وَ مَالِي لاَ أَعْبُدُ الذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرّ لاَ تُغْنِ عَنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَ لاَ يُنْقِذُونَ * إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلاَل مُبِين * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ) يس: ٢٠ ـ ٢٥ ..

فعند ذلك هجم قومه المشركون عليه بالحجارة فقتلوه، وبعدها خوطب بقوله تعالى: (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ)(يس: ٢٦ .) فلمّا دخل الجنة البرزخية، أرسل رسالة إلى قومه وقال: (قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)(يس: ٢٦ ـ ٢٧ .)، فأي دليل أوضح من حياة إنسان قتل في سبيل الله، فلمّا ارتحل من هذه الدنيا ودخل في الحياة البرزخية يرسل رسالة إلى قومه ويقول فيها إنّ الله سبحانه فعل به كذا وكذا.

فإذا كان هذا حال هذا المؤمن، أي أنّه كان حيّاً بعد ارتحاله عن الدنيا، فنبيّ المؤمنين أولى بأن يكون كذلك.

ولأجل حياته البرزخية أمر سبحانه المصلّين أن يسلّموا عليه مخاطبين له بأن يقولوا: السلام عليك أيّها النبي ورحمة الله وبركاته، فلولا حياته (صلى الله عليه وآله وسلم)في عالم البرزخ لكان هذا الخطاب أمراً لغواً.

هذا حول الأمر الأوّل، وأمّا الثاني أي وجود الصلة بينه وبين المتوسِّل، فيكفي في ذلك أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)تكلّم مع صناديد قريش إذ طرحت أبدانهم في القليب فقام النبي على شفة الركي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان بن فلان،

ويا فلان بن فلان، أيسرّكم أنّكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربُّكم حقّاً؟ قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تُكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «والّذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» صحيح البخاري: ٩٧١، كتاب المغازي، برقم ٣٩٧٦ . .

الأدلّة الدالّة على وجود الصلة بين الأحياء والأموات

ثم إنّ الأدلّة على وجود الصلة بين الأحياء والأموات كثيرة سنذكر بعضها في فصل التوسّل.

وهذا هو الوصي عندما ولي غُسل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)خاطبه بقوله: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ! لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ.... إلى أن قال: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ!»(نهج البلاغة: الخطبة ٢٣٥). .

ولم يزل العلماء منذ رحيل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)إلى زماننا هذا على التوسّل بالرسول وذكروا أنّ من أدب الزائر أن يتوسّل به. شفاء السقام: ١٨١ ـ ١٨٣ .

وقد ذكر القاضي عياض بن موسى الأندلسي في كتابه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» ذكر مناظرة أبي جعفر المنصور مع إمام دار الهجرة مالك، يقول: ناظر أبو جعفر مالكاً في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإنّ الله تعالى أدّب قوماً فقال: (لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِي)(الحجرات: ٢ .)، وذمّ قوماً فقال: (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ) الحجرات: ٤ .، وإنّ حرمته ميّتاً كحرمته حيّاً. فاستكان لها أبو جعفر وقال: يا أبا عبدالله، أستقبل القبلة وأدعو، أم استقبل رسول الله؟ فقال: ولم تصرف بوجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم (عليه السلام)إلى الله تعالى إلى يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به، فيشفّعه الله، قال الله تعالى: (وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيماً) النساء: ٦٤ . . الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ٢ / ٩٢ ـ ٩٣ .

ثم إنّ المانعين من التوسّل قد أثاروا شبهاً حول التوسّل، فقد أجبنا عنها في غير واحد من كتبنا، فراجع.

***

٧. (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَ للهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ):

ذكر سبحانه صفات المنافقين في الآية الثالثة وهي ـ على ما عرفت ـ خمسة، وذكر في الآية الخامسة وصفاً آخر لهم وهو عدم اعتدادهم باستغفار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)وكلّما دُعوا إليه لوّوا رؤوسهم، وبذلك صارت صفاتهم ستة، ولكنّه سبحانه ذكر في هاتين الآيتين وصفين آخرين فصار عدد صفاتهم بهما ثمانية، وهما:

١. منع المنافقين عن الإنفاق على أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)لغاية أنفضاضهم عنه.

٢. الاتّفاق على أنّهم لو رجعوا من أرض بني المصطلق إلى المدينة ليُخرجن المدنيون المكيّين، وحسب تعبيرهم: الأعزُّ الأذلَّ .

أمّا الأوّل فقد حكاه سبحانه عنهم بقوله: (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا).

وردّ عليه بكلمة الوحي بقوله: (وَ للهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ)، فالله سبحانه هو الخالق المدبّر وهو الّذي يرسل الرياح مبشّرات بين يديه، فالشمس والريح والغيث وغير ذلك من العوامل الّتي توجب خصب المرعى وكثرة النتاج وإثمار الأشجار كلّها من سنن الله سبحانه وجنوده فيرزق من يشاء ويقدر على من يشاء.

قال الشريف الرضيّ: وهذه استعارة والمراد بخزائن السماوات والأرض: مواضع أرزاق العباد من مدار السحاب ومخارج الأعشاب

وما يجري مجرى ذلك من الأرفاق . تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٢٩٢ .

وهنا نكتة لابدّ من ذكرها، وهي: أنّ هذه الفكرة ـ أي: فرض الحصار الاقتصادي على المؤمنين ـ استخدمت على مرّ العصور، وحتّى في وقتنا الحاضر، فالاستكبار العالمي لأجل ضرب الإسلام والمسلمين واستعبادهم يتوسّل بالحصار الاقتصادي على الدول الإسلامية الّتي لا تستجيب لمطالبه، بصور مختلفة فتارة يحرّمون البيع والشراء خصوصاً السلع الضرورية كقطع الغاز ومصادر الوقود، وأُخرى بمنع التبادل التجاري والمالي بين المصارف في الدول الإسلامية والعالمية، وأُخرى بحرمانهم من التقنية العلمية والتكنولوجية، إلى غير ذلك من صور الحصار.

٨ . (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَ للهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ):

هذا هو الوصف الثاني وقد حكاه سبحانه عنهم بقوله: (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ) فقد أراد (القائل) بالأعزّ رئيس النفاق ومن حوله، ومن الأذلّ المهاجرين المستوطنين في المدينة.

فادّعى زعيم النفاق أنّهم هم الأُصلاء في المنطقة ولهم العزّة، وأمّا المهاجرون فهم الدخلاء والأذلاّء.

فردّ عليه سبحانه بقوله: (وَ للهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ).

وقد أكد على ذلك في غير واحدة من الآيات ، قال تعالى: (الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا) النساء: ١٣٩ ..

فإذا كانت العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فلا يبقى لغيرهم إلاّ الذلّة (وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ).

فالتعبير في الردّ الأوّل بقوله: لا يفقهون، وفي الثاني بما لا يعلمون إمّا من باب التفنن في العبارة، أو لأجل أنّ التصديق بأنّ خزائن العالم بيد الله سبحانه أصعب فهماً من التصديق بكون العزة لله وللرسول وللمؤمنين، ولذلك عبّر عن الأوّل بعدم الفهم والفقه، الّذي يساوق الغباوة، وعن الثاني بعدم العلم الّذي يساوق الجهل .

ثم إنّ كون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين كان أمراً واضحاً لمن عاش مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)من يوم بدر إلى غزوة بني المصطلق الّتي أُتيح فيها للمنافق أن يتكلم بهذه العبارة، فكان الناس يدخلون في دين الله أفواجاً وكان النصر حليف المسلمين ولو أصابتهم نكسة في أُحد فقد تلتها انتصارات كثيرة.

روى الكليني باسناده إلى الحسن الأحمصي عن أبي عبدالله (عليه السلام)قال: «إنّ الله تعالى فوّض إلى المؤمن أُموره كلّها ولم يفوّض إليه أن يكون ذليلاً، أما تسمع قوله تعالى: (وَ للهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ) المنافقون: ٨ .، فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً، ثم قال: «المؤمن أعزّ من الجبل، إنّ الجبل يُستفل منه بالمعاول والمؤمن لا يُستفل من دينه شيء» الكافي: ٥ / ٦٣، ح ١، باب التعرّض لما لا يطيق؛ تفسير نور الثقلين: ٥ / ٣٣٥ ..

أسباب النزول

هذا كلّه يرجع إلى توضيح الآيتين، وإليك الواقعة التاريخية الّتي ارتبطت بنزولها كما تذكره كتب السير، فقد ذكر ابنُ هشام في الحوادث الواقعة في السنة السادسة ما هذا نصّه:

أقام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)في المدينة بعد جمادى الآخرى ورجب ثم غزا بني المصطلق من خزاعة في شعبان سنة ست، فخرج من المدينة حتّى لقيهم على ماء لهم فتزاحف الناس واقتتلوا، فهزم الله بني المصطلق وقتل من قتل منهم ونفّل رسول الله أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه.

فبينا رسول الله على ذلك الماء تزاحم المسلمون على ورد الماء، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له: جحجاح يقود

فرسه، فازدحم جحجاح وسنان الجهني على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جحجاح: يا معشر المهاجرين، فغضب عبدالله بن أُبي بن سلول وعنده رهط من قومه وفيهم: زيد بن أرقم (غلام حدث) فقال: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ.

ثم أقبل على مَن حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم. فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وذلك عند فراغ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)من عدوّه، فأخبره الخبر، وعنده عمرُ بن الخطاب، فقال: مُر به عبَّاد بن بشر فليقتله؛ فقال له رسولُ الله (صلى الله عليه وآله وسلم): فكيفَ يا عمر إذا تحدّث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه! لا ولكن أذّن بالرَّحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسولُ الله (صلى الله عليه وآله وسلم)يرتحل فيها، فارتحل الناسُ.

اعتذار ابن أُبيّ للرسول

وقد مشى عبدالله بن أُبيّ بن سلول إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، حين بلغه أنّ زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال، ولا تكلّمت به ـ وكان في قومه شريفاً عظيماً ـ فقال مَنْ حضر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوْهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حَدَباً على ابن أُبيّ بن سلول، ودفعاً عنه .

الرسول وأُسيد ومقالة ابن أُبي

قال ابن إسحاق: فلمّا استقلّ رسولُ الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، لقيه أُسيد بن حُضير، فحيَّاه بتحيَّة النبوّة وسلَّم عليه، ثم قال: يا نبيّ الله، والله لقد رُحتَ في ساعة مُنكرة، ما كنتَ تروح في مثلها؛ فقال له رسولُ الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أو ما بلغَك ما قال صاحبُكم»؟ قال: وأيّ صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبدالله بن أُبي»؛ قال: وما قال؟ قال: «زعم أنّه إن رجع إلى المدينة ليُخرجن الأعزّ منها الأذل»، قال: فأنت يا رسول الله والله تُخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز؛ ثم قال: يا رسول الله، أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنّ قومه ليَنظمون له الخرز ليتوّجوه، فإنّه ليرى أنّك قد استلبته مُلكاً.

سير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)بالناس ليشغلهم عن الفتنة

ثم مشى رسولُ الله (صلى الله عليه وآله وسلم)بالناس يومهم ذلك حتّى أمسى، وليلتهم حتّى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتّى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نياماً، وإنّما فعل ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)ليشغل الناس عن الحديث الّذي كان بالأمس، من حديث عبدالله بن أُبي . السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٢٩١ ـ ٢٩٢ .

الآيات ٩ ـ ١١ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ..... وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

الآيات: التاسعة إلى الحادية عشرة

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَل قَرِيب فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

التفسير

٩. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ):

لمّا كان من أهم الأُمور عند المنافقين المنكرين للبعث والحياة الأُخروية هو الاشتغال بالحياة الدنيوية وعلى رأسها حب الأموال

والأولاد حباً مفرطاً ملهياً عن ذكر الله، إذ كان المهم عندهم ابتغاء النتاج والاستمتاع بمنافعها والنزوع إلى الأولاد والسرور بهم، فمن كثرت أمواله وتعدّد أولاده فهو العزيز عند قومه، ولذلك كانوا يعترضون على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)بقولهم: (لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُل مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيم) الزخرف: ٣١ .يريدون به الوليد بن المغيرة المشهور بكثرة النتاج والأولاد.

ولمّا كان ذلك من سمات المنافقين حذّر سبحانه المؤمنين من الاشتغال بالأموال والأولاد إلى حدّ يلهيهم عن ذكر الله وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَ لاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ)، ترى أنّه سبحانه ينهى عن إلهاء الأموال والأولاد عن ذكر الله دون الاشتغال بهما على وجه يُعدّ وسيلة للحياة الأُخروية وسبباً لعدم التكدّي وسؤال الغير.

قوله: (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ) اسم الإشارة يشير إلى الإلهاء (فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) حيث باعوا الحياة الأُخروية الدائمة بالحياة المؤقتة.

موقف الإسلام من حب الأولاد والأموال

هذا ما يرجع إلى تفسير الآية، ومنه يظهر موقف الإسلام من حب الأولاد والأموال، فإنّ أصل الحب أمر فطري يمتنع النهي عنه ؛ لأنّه سبحانه خلق الإنسان على حبهما حباً فطرياً فكيف يمكنه النهي عنه؟! ولولا الحبّ لتوقّفت عجلة الاقتصاد وانقطع نسل الإنسان غير أنّه يجب على المؤمن تعديل ذلك الميل الفطري، وأن يعيش حالة وسطاً بين الإفراط والتفريط، هذا وللإمام علي (عليه السلام) كلام في هذا الصدد، قال: للمؤمن ثلاث ساعات: «فَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَرُمُّ مَعَاشَهُ، وَسَاعَةٌ يُخَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ. وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شَاخِصاً إِلاَّ فِي ثَلاَث: مَرَمَّة لِمَعَاش، أَوْ خُطْوَة فِي مَعَاد، أَوْ لَذَّة فِي غَيْرِ مُحَرَّم». نهج البلاغة: قصار الكلم، برقم ٢٩٠ .

وقال الإمام الباقر (عليه السلام): «ما ذئبان ضاريان في غنم ليس لها راع، هذا في أوّلها وهذا في آخرها بأسرع (بأفسد) فيها من حبّ المال والشرف في دين المؤمن». الكافي: ٢ / ٣١٥ ، باب حب الدنيا، الحديث ٣ . والمراد من الشرف هو نيل المقام والمنصب.

قال علي (عليه السلام)في شأن الدنيا وما يجب على المؤمن أمامها: «مَا أَصِفُ مِنْ دَار أَوَّلُهَا عَنَاءٌ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ! فِي حَلاَلِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ. مَنِ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ، وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ، وَمَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ». نهج البلاغة: الخطبة ٨٢ .

قال الشريف الرضي (رحمه الله): وإذا تأمّل المتأمّل قوله (عليه السلام): «وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ» وجد تحته من المعنى العجيب، والغرض البعيد، ما لا تبلغ غايته ولا يدرك غوره، لاسيما إذا قرن إليه قوله: «وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ» فإنّه يجد الفرق بين «أبصر بها» و «أبصر إليها» واضحاً نيرّاً، وعجيباً باهراً صلوات الله وسلامه عليه.(نهج البلاغة بعد ذكره الخطبة ٨٢ .) والفرق بينهما أن الإبصار إلى الدنيا على نمط الوسيلة فهذا هو الّذي يبصر الإنسان، وأمّا الإبصار إليها فهو على نمط الهدف، بحيث يكون جمع المال في الدنيا هو الهدف الأقصى من دون أن يكون وسيلة لطاعة الله ونيل رضوانه.

١٠. (وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَل قَرِيب فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ):

أمر الله المؤمنين بالإنفاق لإبطال كيد المنافقين

لمّا وضع رأس المنافقين خطة لتفريق المؤمنين عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وقال: (لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا) وأراد بهم المهاجرين الملتفين حول الرسول، أبطل سبحانه كيد المنافقين بالأمر بالإنفاق قبل الموت وقال: (وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ).

ولم يأمر بإنفاق جميع المال، بل بعضه، حيث إنّ «من» في قوله: (مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ)للتبعيض، ثم أشار إلى جهة وجوب الإنفاق بأنّ ما ينفقون ليس إلاّ شيئاً رزقهم الله أيّاه وأنعم به عليهم، فيليق أن ينفقوا منه.

ما هو المراد من الإنفاق ؟

والمراد من الإنفاق أعمّ من الواجب والمستحب؛ فإنّ قسماً من الإنفاق واجب، كالإنفاق على العيال وما يُعدّ من الضرائب كالزكاة والخمس؛ وقسم آخر وهو المندوب موكول إلى رغبة الإنسان من حيث الكثرة والقلّة.

ثم إنّه سبحانه يحكي حسرة مَن بخل واستغنى ولم ينفق، فإذا شاهد أمارات الموت يتمنّى (فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) أي تأخيراً يسيراً حتّى أتوفّق للتصدق وبالتالي أكون من الصالحين، فيقول: (فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ) .

قوله: (فَأَصَّدَّقَ) أصله فأتصدّق، قلبت التاء صاداً مع حذف الناصب، فصارت (فَأَصَّدَّقَ).

قوله: (وَأَكُنْ) مقتضى القاعدة أن يقرأ (فأكون) عطفاً على ظاهر «أتصدق» ولكنّه قرأ بالجزم وحذفت النون لأجل التقاء الساكنين عطفاً على محل (فَأَصَّدَّقَ) ؛ لأنّ محلّه مجزوم، لأنّه جواب لأمر مقدّر، أي: إن أخّرتني أصدّق وأكن من الصالحين.

ويحتمل أن يكون الجزم لكونه في معنى جزاء الشرط، والتقدير: إن اتصدق أكن من الصالحين.

١١. (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ):

ما هو المقصود من الأجل في الآية؟

والله سبحانه ردّ على تمنّيهم بأنّه على خلاف السنّة السائدة في موت الإنسان فإنّ لكل إنسان أجلاً معيّناً لا يتقدّم ولا يتأخّر، فلا تمنّي الموت يقدّمه ولا تمنّي الحياة يؤخّره، وقد قضى سبحانه على أنّه (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لاَ يَسْتَقْدِمُونَ) الأعراف: ٣٤، وبالتالي ردّ سبحانه تمنّيهم وقال: (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا) المنافقون: ١١ .وتنكير (نَفْسًا) يدلّ على العموم من غير فرق بين المؤمنين وغيرهم .

والمراد من النفس هو الذات وشخص الإنسان، كقوله تعالى: (إِنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) المائدة: ٤٥ . .

والمعنى تأخير أجل الإنسان المحتوم، وهذا يوجب أن يكون الإنسان على أُهبة الموت في كلّ وقت ؛ لأنّه لا يعلم في أي زمان من الأزمنة يأتيه ، فربما يأخذه ملك الموت وهو في النوم، وغير ذلك .

وتمّم سبحانه الآية بقوله: (وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أي خبير بمن ينفق وبمن لا ينفق وبمن يعمل الصالحات، ومن يعمل الطالحات .

ولعلّ الإتيان بالخبير دون العليم هو للإشارة بأنّه يعلم صالح الأعمال الّتي تتقوّم بالنيّات الصالحة، فهو يعلم من ينفق لله ومن ينفق رآء الناس، ولذا قال: (خَبِيرٌ) ولم يقل (عليم)، لأنّ الخبرة هي العلم بظاهر الأُمور وباطنها.

تمّ تفسير سورة المنافقون

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين

٦٤- سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ
مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ
أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ
حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ
عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا
لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ
حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

خصائص السورة

تسمية السورة

سمّيت هذه السورة بـ(التغابن) لورود هذا اللفظ فيها:(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَومُ التَّغابُنِ)وسيأتي توضيح معناه. ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلاّ في هذه السورة.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آيات السورة ثمانية عشرة بالاتّفاق، وهي مدنية وتشهد على ذلك صياغتها ومضامينها.

أغراض السورة

إنّ السورة وإن تعرضت لأُمور مختلفة، ولكن الغرض المهم ـ بعد ذكر تسبيح ما في السماوات و ما في الأرض لله سبحانه ـ هو تحذير الناس عمّا ينتظرهم يوم القيامة من حسرة وندامة بسبب عدم الإيمان بيوم القيامة والافتتان بالأزواج والأولاد، ولزوم التزوّد لذلك اليوم بطاعة الله وتقواه وبذل الأموال، ولذلك سمّي ذلك اليوم بيوم التغابن، حيث يعلم الإنسان العاصي يومئذ بغبنه وخسرانه.

الآيات ١ ـ ٦ (يُسَبِّحُ للهِ ما فِي السَّماواتِ و... وَاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَميدٌ).

الآيات: الستة الأُولى

(يُسَبِّحُ للهِ ما فِي السَّمواتِ وَما في الأرض لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْء قَديرٌ* هُوَ الَّذي خَلَقَكُم فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤمِنٌ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ * خَلَقَ السَّمواتِ وَالأرْض بِالحَقّ وَصَوَّرَكُم فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصيرُ * يَعْلَم ما فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ وَاللهُ عَليمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ * ذلكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّناتِ فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَتَوَلّوا وَاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَميدٌ).

المفردات

«من» في قوله: (فمنكم) للتبعيض، والمراد انشعاب الناس إلى فرقتين.

وحرف الفاء في قوله:(فمنكم) يدل على الترتيب، أي ترتُّب الكفر والإيمان على الخلق، لكن لا بمعنى كون الكفر والإيمان مخلوقين لله سبحانه، بل المراد أنّه خلقهم فصاروا كذلك. إذ كيف يمكن أن يقال إنّ الكفر والإيمان مخلوقان لله وإنّه خلق المؤمن مؤمناً وخلق الكافر كافراً، مع أنّه خلق الإنسان على فطرة التوحيد، وقال: (فأقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنيفاً فِطْرَةَ اللهِ الّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْديلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدّينُ الْقَيِّمُ وَلكنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ). الروم:٣٠.

وقال النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم): «ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة ثم أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يُمجّسانه، ثم قال(صلى الله عليه وآله وسلم): (فِطْرَةَ اللهِ الّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها)».(صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، برقم ٤٧٧٥.)

الحقّ: هو خلاف الباطل، الذي يعني خلق الشيء من غير غاية وغرض، كما قال سبحانه:(أَفَحَسِبْتُمْ أَنّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ). المؤمنون:١١٥.

وقال سبحانه: (وَما خَلَقْنا السَّمواتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُما لاعِبينَ* ما خَلَقْناهُما إلاّ بِالحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ).(الدخان:٣٩.)

فقد جاء الحق في الآية الثانية مقابلاً للّعب في الآية الأُولى الذي يفقد الغاية.

التفسير
١. (يُسَبِّحُ للهِ ما فِي السَّمواتِ وَما في الأرض لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْء قَديرٌ):

تقدّم تفسير تسبيح ما في السماوات و ما في الأرض لله سبحانه في السور المتقدّمة، وتكرار الموصول في قوله: (وما في الأرض) لقصد التوكيد.

قوله:(لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ) واقع موضع التعليل لتسبيح ما في الكون لله سبحانه، فإنّ الكون إذا كان ملكاً له والثناء مختصّاً به ـ كما يدلّ عليه تقديم المسند (له) على المسند إليه (الحمد) ـ فهو حقيق بالتسبيح دون غيره، والدليل على أنّ الثناء على الغير لأجل فعل جميل صادر منه، فهو في الحقيقة ثناء على الله سبحانه؛ لأنّ ما له من الجمال والكمال فهو لله سبحانه، قال تعالى: (ياأَيُّهَاالنّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيّ الحَميدُ) فاطر:١٥، وقال: (وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَة فَمِنَ اللهِ).(النحل:٥٣.)

قوله: (وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْء قَديرٌ) تعليل آخر لتسبيح ما في الكون لله سبحانه، فإذا كان قادراً على كلّ شيء، فهو اللائق بالتسبيح والتحميد والتنزيه عن كلّ نقص وشين في ذاته وصفاته. إذ يكون جميلاً جامعاً لصفات الجمال والكمال ويلزم على ذي العقل والإدراك، تنزيهه وتسبيحه، تبعاً لما في الكون.

٢. (هُوَ الَّذي خَلَقَكُم فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤمِنٌ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ):

لمّا ذكر سبحانه تسبيح ما في السماوات وما في الأرض لله تعالى، كان مقتضى ذلك أن يسبّحه الناس جميعاً ويثنون عليه وينزّهوه من كلّ شين، ولكن الواقع خلاف هذا الترقّب، حيث انشعبوا إلى فرقتين كما قال: (هُوَ الَّذي خَلَقَكُم فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ)، ولكنّه يعلم كفر الكافر وإيمان المؤمن فهو يجزي كل واحد حسب ما اختار(وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ).

وفي قوله سبحانه: (فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) دليل على نفي الواسطة بين الإيمان والكفر، لأنّ التقسيم آية الحصر، وأنّ الإنسان لا يخلو إمّا أن يكون مؤمناً أو كافراً، فليس هناك إنسان لا مؤمن ولا كافر، خلافاً للمعتزلة حيث قالوا بأنّ مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر، بل وسط بينهما.

إنّ القول بالمنزلة بين المنزلتين يهدف إلى أنّ صاحب الكبيرة لا يُسمّى مؤمناً ـ كما عليه جمهور المسلمين ـ ولا كافراً ـ كما عليه الخوارج ـ وإنّما يسمّى فاسقاً فهو من حيث الإيمان والكفر في منزلة بين المنزلتين.

قال القاضي عبد الجبار: لا يكون اسمه اسم الكافر ولا اسمه اسم المؤمن، وإنّما يسمّى فاسقاً؛ وكذلك لا يكون حكمه حكم الكافر ولا حكم المؤمن، بل يفرد له حكم ثالث، وهذا الحكم الذي ذكرنا هو سبب تلقيب المسألة بالمنزلة بين المنزلتين، فإنّ صاحب الكبيرة له منزلة تتجاذبها هاتان المنزلتان، فليست منزلته منزلة الكافر، ولا منزلة المؤمن، بل له منزلة بينهما. شرح الأُصول الخمسة:٦٩٧.

نقل الشهرستاني:أنّه دخل واحد على الحسن البصري فقال: يا إمام الدين! لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفّرون أصحاب الكبائر،

والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملّة، وهم وعيدية الخوارج، وجماعة أُخرى يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضرّ مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان، فلا يضرّ مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟

فتفكّر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب، قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إنّ صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر. ثم قام واعتزل إلى أُسطوانة من أُسطوانات المسجد يقرّر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنّا واصل، فسمّي هو وأصحابه: معتزلة. الملل والنحل للشهرستاني:٤٧/١.

ولقد أثبتنا بطلان هذا الأصل الذي خالفوا به جمهور المسلمين في موسوعتنا «بحوث في الملل والنحل». بحوث في الملل والنحل:٥٧٨/٣-٥٨٤. فلاحظ.

٣. (خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصيرُ):

أي أنّ الله تعالى: (خلق السّمواتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ) لغرض ثابت، و(صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) أي أعطى للإنسان أحسن الصور، وجهّزه بأحسن تجهيز ليصل إلى الغاية من الخلقة، كما قال:(لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ في أَحْسَنِ تَقْويم)....ولحسن التصوير والتقويم دور في وصول الإنسان إلى الغاية التي خلق لها.

والآية بصدد ذكر الامتنان على الإنسان حيث خلقه بأحسن صورة وفي أحسن تقويم، فيجب عليه في مقابل هذه النعم الكثيرة تسبيح الله وتحميده سبحانه ولكنّه يجزي المؤمن والكافر عند مصيرهما إليه، حسب أعمالهما كما قال:(وإليه المصير)يعني إليه المرجع يوم القيامة وإليه المآل.

وكأنّ الفقرتين: خلق السماوات والأرض بالحق، وخلق الإنسان بأحسن الصور، سيقتا لبيان لزوم المعاد والحياة الأُخروية بعد الحياة الدنيوية، والذي يدلّ عليه قوله تعالى: (وإلَيهِ الْمَصيرُ)، إذ لولاه للزم العبث في الخلق، وتقديم الظرف (إليه) «على المصير» لأجل رعاية الفاصلة، ليطابق قوله: (قدير)في الآية الأُولى و(بصير) في الآية الثانية لا لبيان القصر والحصر، لأنّ الكافر لا يعتقد بالمصير إلى غيره سبحانه حتى تكون الفقرة ردّاً عليه.

والذي يناسب تفسير خلق الإنسان بأحسن الصور هنا، بعد ملاحظة تَيْنك الفقرتين التي سيقتا لبيان لزوم المعاد، هو: تجهيزه بالمواهب العقلية والفكرية التي ينطوي فيها العالم كلّه وأُمر لأجلها بالتفكّر في خلق السماوات والأرض في قوله: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَيَتَفَكَّرونَ في خَلْقِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً) آل عمران:١٩١، وفي قوله عزّ من قائل: (أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ). الأعراف:١٨٥.

أُمر بالتفكّر في الكون ليستهدي إلى غاية الخلقة وأنّه لم يُخلَق عبثاً ولا سُدىً، حتى يتجلى عنده مغزى قوله تعالى: (وإليه المصير).

وربما يفسّر حسن الصورة في الآية بصباحة المنظر وروعة الجمال. ثم يعتذر عمّا يعتور الإنسان من نقائص في الخلقة بأنّ ذلك من عوارض تعرض في مدّة تكوينه من صدمات لبطون الأُمهات، إلى غير ذلك من العلل فتشوّه بعض محاسن الصور، لكنه نقص نسبي في المحاسن. التحرير والتنوير:٢٣٧/٢٨.

ولا يخفى أنّ الأنسب بكون الفقرة سيقت لبيان أنّ المصير إلى الله، هو تفسيرها بتجهيز الإنسان بالقوى العقلية والإدراكية حتى يعرف الخلقة وغايتها وأنّ هناك حياة أُخرى وراء هذه الدنيا تمثّل الغرض من خلق العالم والإنسان.

٤. (يَعْلَم ما في السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ وَاللّهُ عَليمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ):

كان نفاة البعث يتمسّكون بأدلّة واهية ذكرها القرآن الكريم في مواضع، ومن ادّعاءاتهم الباطلة أنّ الموت ضلال في الأرض وتفرُّق

فيها، فكيف يمكن لله سبحانه أن يبعثنا يوم القيامة مع هذا التبعثر والتشرذم كما حكى عنهم سبحانه وقال: (ءَإذَا ضَلَلْنا في الأرْضِ ءَإنّا لَفي خَلْق جَديد) السجدة:١٠، وكانت هذه الفكرة سائدة عند المشركين وقد حكاها عنهم سبحانه في سورة أُخرى وقال: (وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظامَ وَهِيَ رَميمٌ). يس:٧٨.وقد أجاب سبحانه عن تلك الفكرة في السورتين الماضيتين ببيان خاص، وكأنّ الآية في سورتنا هذه بصدد الإجابة عن تلك الفكرة، ولذلك كرّر علمه سبحانه، تارة بما في السماوات والأرض، وأُخرى علمه بأعمال الإنسان أضمرها أو أظهرها، وثالثة بنية الإنسان وعقائده الداخلية.

وعلى هذا تكون الآية دليلاً لما مرّ من قوله: (وإليه المصير)، وعلى ذلك فعلمه سبحانه محيط بما في الكون جليلهِ ودقيقهِ، كبيرهِ وصغيرهِ، وصاحب هذا العلم يميّز الكافر عن المؤمن، والعمل الصالح عن الطالح.

٥. (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ):

قد سبق منّا أنّ الغرض المهم في هذه السورة هو دعوة الناس إلى الإيمان بالبعث وما فيه من الجزاء بالإحسان أو المجازاة بالعقوبة، وقد اختمرت عند المشركين فكرة إنكار المعاد، فلابدّ لقلع تلك الفكرة من استخدام بيانات مختلفة، فقد اعتمد في الآية السابقة على علمه سبحانه الواسع بما في الوجود، وأمّا هذه الآية فهي تركز على ما جرى على الأقوام السابقة الذين كفروا فذاقوا وبال أمرهم، والوبال: الوخامة وسوء العاقبة، و (وَبالَ أَمْرِهِمْ): عاقبة كفرهم. وهذه الأقوام البائدة المدمَّرة تقع في طريق المشركين إلى الشام وغيرها، حيث يرون بأُمّ أعينهم البلاد الخربة والأقوام البائدة الذين أخذتهم العواصف تارة والزلازل أُخرى.

٦. (ذلكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّناتِ فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَميدٌ):

ذكرت الآية المتقدّمة الأُمم البائدة وأشارت إلى أنّ المشركين يجب أن يتّعظوا من عاقبة أمر هؤلاء، لماذا؟ لأنّ الطائفتين تشتركان في إنكارهم لدعوة الأنبياء وما أتوا به، ولمّا كان ذلك غير مذكور في الآية المتقدّمة صريحاً، أشار في هذه الآية إلى هذا السبب الذي تشترك فيه الطائفتان وقال: (ذلك) أي هلاكهم وسوء عاقبتهم (بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنات)فكفروا بها (فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا).

وذلك المنطق هو نفسه منطق المشركين الذي واجهوا به رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، حيث إنّ القرآن يحكي قولهم بقوله سبحانه:

(وَمَا مَنَعَ النّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلاّ أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً). الإسراء:٩٤.

فالمنطق واحد عبر القرون، والآية تهددهم بأنّه يمكن أن يعمّهم العذاب كما عمّ الآخرين، ومع ذلك يذكر أنّ الله غني عن طاعة المطيعين ولا يضرّه عصيان العاصين، كما قال: (فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَميدٌ) فلا يحتاج إلى طاعة المطيع ولا تضره معصية الكافر، وإنّما ينتفع المؤمن بطاعته ويخسر الكافر بمعصيته وكفره.

***

الآيات: السابعة إلى العاشرة

(زَعَمَ الَّذينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَذلِكَ عَلَى اللهِ يَسيرٌ * فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذي أَنْزَلْنا وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبيرٌ * يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنّات تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدينَ فِيها أَبداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظيمُ * وَالَّذينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ خالِدينَ فِيها وَبِئْسَ الْمَصيرُ).

المفردات

زَعَمَ: هل الزعم بمعنى مطلق الإخبار أو الإخبار المخالف للواقع وإن لم يتعمّد الكذب؟

الظاهر هو الثاني، وقد نقل عن شريح أنّه قال: لكلّ شيء كنية وكنية الكذب زعموا. والنسبة بين الكذب والزعم عموم وخصوص مطلق يجتمعان فيما تعمّد الإخبار بالمخالف للواقع، ويصدق الزعم دون الكذب فيما إذا أخبر عن المخالف ولم يتعمّد.

يوم: ظرف متعلّق بجملة محذوفة أي: اذكروا يوم يجمعكم ليوم الجمع، ويحتمل أن يكون متعلّقاً بقوله: (لَتُبْعَثُنَّ)، أو بقوله: (لَتُنَبَّؤنّ)في الآية السابعة.

يوم الجمع: من أسماء القيامة، قال سبحانه: (قُلْ إِنَّ الأوّلينَ وَالآخِرينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوم مَعْلُوم). الواقعة:٤٩ـ ٥٠.

التغابن: مصدر: غابن، يغابن، وهو من باب المفاعلة، ولكنّه مجرّد عنها في المورد، إذ المغبون يوم القيامة هو الكافر دون المؤمن، بل المراد كثرة غبن الكافرين وخسرانهم.

التفسير

٧. (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَذلِكَ عَلَى اللهِ يَسيرٌ) :

٧. (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَذلِكَ عَلَى اللهِ يَسيرٌ) : كانت الآيات السابقة تندد بالمشركين لردّهم على الرُّسل وإنكار رسالاتهم، وأنّهم أنبياء من الله سبحانه، وكانوا يصرّون على إنكار البعث بحجة عدم إمكان إعادة الماضين.

فجاءت هذه الآية ترد زعمهم بأنّ الإعادة أمر يسير وذلك بالتأكيدات المتعدّدة، قال سبحانه: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا) فأمر الله نبيه(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يرد على زعمهم بقوله: (بَلى وَرَبِّي)أي ليس كذلك، ثم فسّره بقوله: (لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَذلِكَ عَلَى اللهِ يَسيرٌ) واللام في الفعلين مع النونين للتأكيد، فقوله: (بِما عَمِلْتُمْ) إشارة إلى الأعمال الإجرامية التي يمارسها المشركون من وأد البنات والإغارة على أموال الآخرين وغير ذلك.

٨ . (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبيرٌ):

«الفاء» في قوله: (فَآمِنُوا) فاء جزاء تحكي عن شرط مقدّر وهو: إذا علمتم ما حلّ بالأُمم الكافرة من العذاب وعلمتم أنّكم تبعثون يوم القيامة فلازم ذلك، قيامكم بما يلي:

١. الإيمان بالله: (فَآمِنُوا بِاللهِ).

٢. الإيمان بالرسول(صلى الله عليه وآله وسلم): (وَرَسُولِهِ).

٣. الإيمان بالقرآن الذي أُنزل على رسوله: (وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا).

وفي قوله: (أَنْزَلْنا) التفات من الغائب إلى المتكلّم، وذلك للتصريح بأنّ القرآن نزل من الله سبحانه.

ثم ذيّل الآية بقوله: (وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبيرٌ) يميّز المؤمن عن الكافر، وبما أنّ الإيمان بالله ورسوله وقرآنه أمر قلبي، ختم الآية بقوله: (خَبيرٌ)بخلاف الآية الثانية حيث ختمها بأنّ الله (بَصيرٌ)، ولعلّ الفرق غلبة استعمال الخبير في غير المحسوسات كالإيمان، (والبصير) في الأُمور المحسوسة.

٩ و ١٠. (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ ...أُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ خالِدينَ فِيها وَبِئْسَ الْمَصيرُ):

٩ و ١٠. (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنّات تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدينَ فِيها أَبداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظيمُ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ خالِدينَ فِيها وَبِئْسَ الْمَصيرُ): ذكر سبحانه في هاتين الآيتين مصير طائفتين: طائفة آمنت بالله وعملت صالحاً فجزاؤهم الجنة وما فيها من النعم.

وطائفة كفروا بالله ورسوله كما كفروا بالنور الذي أُنزل معه فمصيرهم النار خالدين فيها.

وأشار سبحانه إلى الطائفة الأُولى بقوله: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً)فجزاؤه أن (يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنّات تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظيمُ).

وفي الآية تصريح بأنّ العمل الصالح يُكفِّر السيئات ويسترها فلا يجزي إلاّ بالعمل الصالح، ويكفِّر عن سيئاته ويسبّب غفرانها.

وأشار إلى الطائفة الثانية بقوله: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا)، ففي قوله: (كَفَروا) إشارة إلى الكفر بالله ورسوله، وفي قوله: (كذبوا بآياتنا) إشارة إلى إنكار ما أنزله الله من النور.

وأمّا جزاؤهم، فقد أشار إليه بقوله: (أُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ خالِدِينَ فِيها وَبِئْسَ الْمَصيرُ).

فقوله: (وَبِئْسَ الْمَصيرُ) في حق الطائفة الثانية يقابل قوله: (ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) في حق الطائفة الأُولى.

(ما أَصابَ مِنْ مُصيبة إلاّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْء عَليمٌ * وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنّما عَلى رَسُولِنا الْبَلاغُ الْمُبِينُ * اللهُ لا إِلهَ هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ).

التفسير

١١. (ما أَصابَ مِنْ مُصيبة إلاّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْء عَليمٌ):

جاء وصف الطائفتين: المؤمنة والكافرة في الآيتين السابقتين بأنّ مصير الأُولى (الْفَوْزُ الْعَظيمُ)، والثانية مصيرها (بِئْسَ الْمَصيرُ).

وربما يختلج في بال أحدهم أنّه لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب في الدنيا، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي:١٨/١٣٩، دار الفكر. فجاءت الآية إجابة عن هذا بأنّ نزول المصيبة بإذن الله سبحانه، وفيه مصالح وفوائد تخفى على الإنسان وربما يكرهه (وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ). البقرة:٢١٦.وإليه يشير بقوله: (ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَة فَمِنَ اللهِ)يقول ذلك لكي لا تضعف عزائم المسلمين عن جهاد الكفّار (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ)أي يصدّق به سبحانه (يَهْدِ قَلْبَهُ)أي يهدي الله قلبه حتى يعلم أنّ ما أصابه فبعلم الله، فيصبر عليه ولا يجزع، ولا تُفلّ عزيمته، وأنّ في المصائب مصالح كامنة خفية علينا (وَاللهُ بِكُلِّ شَيْء عَليمٌ)يعلم ما في قلب المؤمن من الإيمان بالله، والثبات عند المصيبة.

وقد ذكر الله سبحانه ما يترتّب على المصائب من المصالح في قوله:(...وَبَشِّرِ الصّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنّا للهِ وَإِنّا إِليهِ راجِعُونَ* أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ).(البقرة:١٥٥ ـ ١٥٦.)

فعبّر عن الصابرين في هذه الآية بأنّهم هم المهتدون، وفي آيتنا المتقدّمة بقوله: (يهد قلبه).

ولعل الآية تشير إلى أنّ المؤمن محبوب عند الله سبحانه ومصيره الجنة، ولكن ليس هذا معناه أن يعيش في الدنيا عيشة رغيدة فلا تصيبه مصيبة في النفس والأموال والأزواج والأولاد.

١٢. (وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنّما عَلى رَسُولِنا الْبَلاغُ الْمُبِينُ):

لمّا ذكرت الآية السابقة بأنّ من يؤمن بالله يهد قلبه، فنتيجة تلك الهداية هو أنّه يطيع الله ويطيع الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) في جميع ما أتى به ودعا إليه، أو أمر به أو نهى عنه.

ولكن الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) رسول تبليغ وتبشير لا رسول إلزام وإكراه، كما يقول: (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ)أي أعرضتم عن طاعة الله وطاعة الرسول:(فإنّما عَلى رَسُولِنا الْبَلاغُ الْمُبِينُ).

١٣. (اللهُ لا إِلهَ هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ):

وجه صلة الآية بما قبلها هو أنّ قوله: (اللهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ) تعليل لوجوب طاعته في الآية المتقدمة؛ وذلك لأنّه إذا لم يكن في صفحة الوجود خالق ورازق وناصر وغافر للذنوب إلاّ الله سبحانه، فتلزم طاعته.

ثم إنّ الإنسان ربما يواجه وهو في طريق طاعة الله المشاكل والمصاعب فيأمره الله بقوله: (وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)والتوكّل إيكال الأمر وتفويضه إليه والثقة بتدبيره، وقد أمر الله عباده بذلك حتى يكون سنداً يعتمدون عليه.

١٤ ـ ١٨ (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ... عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ العَزيزُ الْحَكيمُ).

الآيات: الرابعة عشرة إلى الثامنة عشرة

(يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحيمٌ * إنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أجْرٌ عَظيمٌ* فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيراً لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * إنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَليمٌ * عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ العَزيزُ الْحَكيمُ).

المفردات

الفاء في (فاتّقُوا اللهَ) فاء جزاء تدلّ على الشرط المقدّر أي: إذا علمتم هذا فاتقوا الله.

«ما» في قوله: (مَا اسْتَطَعْتُمْ) مصدرية زمانية، أي فاتقوا الله مدّة استطاعتكم، بمعنى تمام العمر.

قوله: (وَمَنْ يُوقَ) صيغة مجهول من وقى، يقي .

الشحّ: البخل مع حرص، وهو أشدّ من البخل؛ لأنّ البخل في المال وهو في المال وكلّ معروف، ومن هذا القبيل قوله سبحانه: (وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحّ). النساء:١٢٨.أي جُعل الشحّ حاضراً لها لا يغيب عنها إذ هي مطبوعة عليه.

أقرضوا: أصل القرض: القطع، فما يُعطيه الإنسان فكأنّه يقطع من ماله على ضمان ردّ مثله .

يضاعفه: الضِّعْف: يراد به المثل، ولكن المراد في الآية الأمثال الكثيرة المتزايدة، بشهادة قوله سبحانه: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثيرةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ). البقرة:٢٤٥.

١٤. (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحيمٌ):

الآية تدلّ على أنّ قسماً من الأزواج والأولاد يكون عدوّاً للمؤمن لا جميعهم، بشهادة كلمة «من» التي هي للتبعيض، فما هو المبرر لهذه العداوة؟ قيل:لأنّ من الأزواج مَن يتمنّى موت الزوج، ومن الأولاد مَن يتمنّى موت الوالد ليرث ماله، وما من عدوّ أعدى ممّن يتمنّى موت غيره ليأخذ ماله. انظر: مجمع البيان:١٠/٤٥٢.

والظاهر أنّ هذا التفسير ليس من شأن القرآن الكريم، فلابد أن يُصوَّر (العداء) بشكل آخر، وهو أنّ الحب الشديد للأزواج والأولاد ربما يجرّ الإنسان إلى ترك طاعة الله وعصيانه، فمن الأزواج من يصرف الزوج عن الإيمان بالله أو عن الأعمال الصالحة كالإنفاق أو الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان، أو كسب الأموال من غير طريق الحلال، ويشهد على ذلك المعنى قوله سبحانه: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإيمانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ). التوبة:٢٣.

فمع أنّ القرآن يأمر بالحذر منهم ويقول:(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَولادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُم) ولكنّه يأمر بالعفو والصفح والغفران، قال (وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا) فقد اقتديم بالله سبحانه(فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحيمٌ).

لقد أمر سبحانه بالعفو أوّلاً، والصفح ثانياً، والغفران ثالثاً، فما هو الفرق بينها؟

إنّها جميعاً تدعو إلى الإغماض عن الأولاد والأزواج إذا ظهر منهم شيء من آثار المعاداة.

فالعفو هو ترك العقاب على الذنب مع التوبيخ.

والصفح هو الإعراض عن الذنب بلا توبيخ.

والغفران هو ستر الذنب وعدم إشاعته.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الإسلام يدعو إلى كلّ ما من شأنه أن يحفظ كيان الأُسرة التي تعتبر حجر الزاوية في البناء الاجتماعي، ويصونها من التفكّك والتمزّق والانهيار، ويحثّ على إشاعة روح التسامح وكرم الإغضاء بين أفرادها، ونبذ التناحر والتنازع فيما بينهم.. ولعلّ هذا الخلق السامي(المقرون، طبعاً بالتيقّظ والحذر) الذي يبديه المؤمن تجاه عدوّه في الدين من أفراد أُسرته، لعلّه يترك أثره في نفس ذلك العدو، فيلين قلبه للحق، ويستجيب لداعي الدين، وعند ذاك تتحقّق الغاية التي ينشدها المؤمن في نشر الهدى والخير.

١٥. (إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظيمٌ):

تطلق الفتنة ويراد بها معان مختلفة، والمراد بها هنا: الامتحان والاختبار. نظيرها قوله سبحانه: (وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظيمٌ). الأنفال:٢٨.

وقد وصف الله سبحانه الأولاد ـ في الآية السابقة ـ بأنّ قسماً منهم عدو للآباء والأُمّهات ووصفهم جميعاً بأنّهم فتنة ومن أسباب الاختبار، وذلك واضح إذ ربما تسبب الرأفة بهم وحبهم الانحراف عن الحق والإعراض عن ذكر الله سبحانه كما نص عليه في قوله: (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلاَ أَولادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ). المنافقون:٩.

والتاريخ يشهد على أنّ الحب المفرط للأولاد يخرج الوالد عن القضاء بالحق ويصدّه عن اتّباع الصراط المستقيم. وهذا هو الزبير بن العوام ابن عمة عليّ(عليه السلام) كانت تربطه بعليّ صلة رحم وثيقة، وصداقة تامّة، وقد شهر سيفه عند الهجوم على بيت فاطمة(عليها السلام) وقال: لا أغمده ـ يعني سيفه ـ حتى يبايَع عليّ. ولما بلغ ذلك أبا بكر وعمر قال عمر: خذوا سيف الزبير، فاضربوا به الحجر تاريخ الطبري:٢/٤٤٤.، ولكن هذا الزبير نفسه قد طوّح به حبّه لولده (عبد الله)، فأنساه تلك العلاقة بعليّ وما قاله النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في حقّه(عليه السلام).

روى الطبري ـ في تاريخ حرب الجمل ـ : فلمّا توافقوا خرج عليٌّ على فرسه فدعا الزبير فتوافقا، فقال علي للزبير: ما جاء بك؟ قال: أنت ولا أراك لهذا الأمر أهلاً ولا أولى به منّا. فقال علي: لستُ له أهلاً بعد عثمان؟! قد كنّا نعدّك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرّق بيننا وبينك، وعظّم عليه أشياء، فذكر أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) مرّ عليهما فقال لعلي:«ما يقول ابن عمتك ليقاتلنّك وهو لك ظالم»، فانصرف عنه الزبير وقال: فإنّي لا أقاتلك، فرجع إلى ابنه عبد الله فقال: ما لي في هذا الحرب بصيرة. فقال له ابنه: إنّك قد خرجت على بصيرة، ولكنّك رأيت رايات ابن أبي طالب وعرفت أنّ تحتها الموت فجبنت، فأحفَظَه حتى أُرعد وغضب وقال: ويحك إنّي قد حلفت له ألاّ أقاتله، فقال له ابنه: كفّر عن يمينك بعتق غلامك سرجس، فأعتقه وقام في الصف معهم. تاريخ الطبري:٣/٥١٩ـ ٥٢٠. والمسكين يقيم لحلفه وزناً ولا يدخل الحرب إلاّ بعد التكفير عن يمينه، ولكنّه يعرض عن قول النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وتحذيره بكلّ جُرأة!!

هكذا يكون حبّ الأولاد المفرط سبباً للخيبة والخسران!!

ثمّ إنّه سبحانه ترك في الآية ذكر الأزواج استغناءً بذكر الأولاد الذين هم أخفّ فتنة من الأزواج.

فظهر معنى قوله: (إِنّما أَمْوالُكُمْ وَأَولادُكُمْ فِتْنَةٌ)وختم الآية بقوله: (وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظيمٌ)، ولعلّه إشارة إلى من خرج من الاختبار مرفوع الرأس، ولم يلهه حب الأولاد عن القضاء بالحق والله يجزيه بالأجر العظيم.

روى الفريقان أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يخطب فجاء الحسن والحسين(عليهما السلام)، عليهما قميصان أحمران يمشيان

ويعثران، فنزل رسول الله إليهما فأخذهما فوضعهما في حجره على المنبر، ثم قال: صدق الله(إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَولادُكُمْ فِتْنَةٌ)نظرتُ إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما، ثم أخذ في خطبته. مجمع البيان:٩/٤٥٣؛ سنن أبي داود: كتاب الصلاة، باب الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث، برقم ١١٠٩.

ولعلّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قطع خطبته وأخذ الحسنين ووضعهما في حجره على المنبر لأجل إلفات نظر الحاضرين إلى مقامهما ومنزلتهما عنده، فصار ذلك مبرراً لقطع الخطبة.

١٦. (فَاتَّقُوا اللّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ... وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ):

١٦. (فَاتَّقُوا اللّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيراً لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ): لمّا ذكر سبحانه أنّ حب الأولاد المفرط والتعلّق الشديد بالأموال أمر خطير يسبّب انحراف الإنسان عن الصراط المستقيم، فرّع عليه بقوله: (فَاتَّقُوا اللّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) أي إذا علمتم ما ذكرنا من خطورة الموقف، فاتقوا الله مدة استطاعتكم ولا تتعاملوا مع الأموال والأزواج معاملةً تصدّكم عن طريق الحق.

(واسْمَعُوا) أوامر الله، (وأطيعوا) ما سمعتم، (وأَنْفِقُوا) من أموالكم في سبيل الله (خَيْراً لِانْفُسِكُمْ)مثله قوله: (فآمِنوا خَيْراً لَكُمْ) النساء:١٧٠ ، وقوله: (وانْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ).(النساء:١٧١)

وعلى هذا فمعنى هذه الفقرة وافعلوا خيراً لأنفسكم أو قدّموا خيراً لأنفسكم من أموالكم.

قوله: (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ)، أي من يلجم نفسه الأمّارة البخيلة عن معصية الله، وقام بحق الله سبحانه في أمواله يكون من الفائزين بثواب الله(وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

قال الإمام الصادق(عليه السلام): «من أدّى الزكاة فقد وقي شُحّ نفسه».(مجمع البيان: ٩/٤٥٣.)

١٧ و ١٨. (إِنْ تُقْرِضُوا اللّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ و....عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ العَزيزُ الْحَكيمُ):

لمّا وصف الله سبحانه الأولاد والأموال بأنّهم أسباب الفتنة والاختبار، وأنّ الحب الشديد لهما يصدّ الإنسان عن الإنفاق، رغّب سبحانه في هذه الآية بأنّ إنفاق المال في سبيل الله نوع إقراض لله سبحانه والله يُعطي عوضه أضعافاً بشرط أن يؤمن الإنسان بهذا وتطمئن به نفسه، مضافاً إلى أنّه سبحانه يغفر ذنوبه كما قال: (وَيَغْفِرْ لَكُمْ).

ثم إنّه سبحانه ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى(شَكُورٌ) أي مثيب لإنفاق المنفقين(حَليمٌ) لا يعاجل العباد بالعقوبة.

وقد ذكر الله سبحانه في الآية الأخيرة الأوصاف الثلاثة له سبحانه لغاية الترغيب في الخير والترهيب من الشرّ، قال: (عالِمُ الْغَيْبِ والشَّهادَةِ) أي يعلم السر والعلانية ويعلم من ينفق ممّن يبخل. (العَزيزُ)القادر المطلق لا يعجزه شيء. (الحكيم) يعامل الناس بمقتضى الحكمة، فلا يكون المحسن والمسيء عنده سواء... والله أعلم.

تمّ تفسير سورة التغابن

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين

٦٥سورة الطلاق

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا

بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)
تسمية السورة
سُمّيت في المصاحف بسورة «الطلاق»، وربما تُسمّى سورة «النساء القصرى» في مقابل سورة النساء الطولى.
عدد آياتها ومحلّ نزولها
آياتها إحدى عشرة آية في عدّ الأكثر، واثنتا عشرة آية عند البعض. وهي مدنية بالاتّفاق بشهادة صياغتها ومضامينها.
أغراض السورة
المجتمع الإنساني يحتاج إلى قوانين كلّية في حقوله المختلفة، ومنها الأحوال الشخصية التي تفسّر بحقوق الزوج والزوجة وعلاقاتهما مع بعضهما، ومع أولادهما، وأحكامهما زواجاً وانحلالاً، ومع أنّ القرآن الكريم يهتمّ ببيان أحكام كلّية، ولكن نرى أنّه يضع أحكاماً جزئية فيما يرجع إلى المجتمع الصغير (الأُسرة)، فقد نزلت آيات حول الموضوع في سورتي البقرة (البقرة: ابتداءً من الآية ٢٢٣ وانتهاء بالآية ٢٤٢.)، والنساء، وفي هذه السورة. وتعرّض سبحانه في هذه السورة إلى الطلاق وما يعقبه من العدّة والإرضاع والإنفاق والإسكان، وفي الوقت نفسه نهى عن الإضرار بالمطلّقات والتضييق عليهن، وأمر بالإشهاد عند التطليق. كما أمر بالتشاور بين الوالدين في شأن أولادهما، وفي خلال الآيات وعد المتقين بأنّ الله يكفيهم، إلى غير ذلك من المباحث. إنّ عناية القرآن بالبيت وأهله (المجتمع الصغير) أفضل دليل على عناية الإسلام بإحكام البناء العائلي، وحمايته من الانهيار، ومع ذلك فقد شرّع الطلاق أيضاً عندما يصبح الاستمرار في الحياة الزوجية مقروناً بالمشاكل والصعاب.
شأن النزول
أخرج البخاريّ عن ابن عمر: أنّه طلّق امرأته وهي حائض،فذكر عُمَرُ لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)فتغيّظ فيه رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ثمّ قال: ليُراجعْها، ثم يُمسكها حتّى تَطهُر، ثم تحيض فَتطهُر، فإن بدا له أن يطلّقها فليطلّقها طاهراً قبل أن

يمسّها، فتلك العدّة كما أمره الله. صحيح البخاري:٣٠٧/٣، كتاب التفسير(٦٥)، رقم ٤٩٠٨، دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ.

الطلاق بين التفريط والإفراط

إنّ الإسلام دعا إلى الزواج دعوة مؤكّدة لأنّه حاجة فطرية لا تقلّ عن سائر حوائجه حتى قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «ما بُني بناء في الإسلام أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من التزويج». الوسائل:١٤، الباب١ من أبواب مقدّمات النكاح وآدابه، الحديث٣.

وقال(صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً: «مَن تزوّج أحرز نصف دينه، فليتّقِ الله في النصف الآخر». الوسائل:١٤ الباب١ من أبواب مقدّمات النكاح وآدابه، الحديث ١١ و ١٧.

وفي الوقت نفسه شرّع الطلاق ووصفه بأنّه حلال مبغوض، حتى قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«ما من شيء أبغض إلى الله عزّ وجلّ من بيت يخرب في الإسلام بالفرقة ـ يعني: الطلاق ـ». الوسائل:١٥، الباب١ من أبواب مقدّمات الطلاق وشرائطه، الحديث ١.

وقال الصادق(عليه السلام):«إنّ الله عزّ وجلّ يحب البيت الذي فيه العرس ويبغض البيت الذي فيه الطلاق، وما من شيء أبغض إلى الله عزّ وجلّ من الطلاق». الوسائل:١٥، الباب١ من أبواب مقدّمات الطلاق وشرائطه، الحديث٢.

وروى أبو داود عن ابن عمر عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق». سنن أبي داود:٤٠٤، كتاب الطلاق، برقم ٢١٧٨، تحقيق صدقي جميل العطّار.

وما هذا إلاّ لأنّ النكاح ضرورة في حياة الإنسان، وأمّا الطلاق فقد شرّع فيما إذا فقد الانسجام بين الزوجين وتعذّر التفاهم؛ وتأجّجت الخلافات بينهما إلى درجة انقطع معها الأمل بإطفائها، أو كانت هناك ظروف قاهرة تقتضي مفارقتهما دون أن يكون بينهما خلاف وبغض، وعند ذلك تكون الحياة لهما مزعجة مرّة، فالإصرار على بقاء البناء، في مثل هذه الحال، أمر لا يجدي نفعاً، ولا يعيد الصفاء والحلاوة إليها، ومع ذلك سمّاه رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)حلالاً مبغوضاً؛ لأنّ فيه تخريب البيت وتفريقاً بين الأولاد والأبوين وربما ينتهي إلى أمر لا تحسن عاقبته .

وبذلك يعلم أنّ تشديد الكنيسة الكاثوليكية على منع الطلاق في عامّة الحالات ربما يؤدّي إلى أن تكون معاشرة الزوجين في بيت واحد أشبه بمعاشرة العدوين فيه، وليس هذا أمراً مرغوباً عقلاً ولا شرعاً، ولذلك نرى أنّ أكثر أتباع هذه الفرقة يطلّقون زوجاتهم ولا يطيعون نهي الكنيسة، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ التشريع يجب أن يكون موافقاً للفطرة لا مخالفاً لها، فتحريم الطلاق على الإطلاق لا يوافق مقتضى الفطرة الإنسانية.

وفي مقابل هذا المنهج المتشدّد من قبل الكنيسة، نرى المجتمعات التي يعمّها الاختلاط، وتدعو إلى حرية العلاقة بين الجنسين، يكثر فيها الطلاق ويتقوّض فيها بناء الزواج بعد سنوات قليلة أو أشهر أو أيّام، ففي ظل تلك الأجواء المتحرّرة، ينطلق الرجل لإشباع شهوته عن طريق اتخاذ الخليلات، وتنطلق المرأة لتعاشر من تهوى، وعندئذ يضعف رباط الزوجية شيئاً فشيئاً إلى أن ينحلّ وينهار.

وهكذا أدّت حرية المعاشرة، والتحرّر من قيود الأخلاق والعفّة إلى شيوع الفساد والانحراف في المجتمع والعبث بالحياة الزوجية، الأمر الذي أدّى إلى ازدياد حالات الطلاق وانحلال الأُسرة ودبيب الفساد بين النساء والرجال.

أمّا الإسلام فقد دعا إلى النكاح، وأجاز الطلاق في ظروف خاصة، ومنع المعاشرة الحرّة للنساء والرجال حتى تتعلّق كلّ زوجة بزوجها وهكذا الزوج بزوجته، ويبقى بذلك بناء البيت الذي هو أحبّ إلى الله من كلّ بيت على حاله.

الآيات ١ ـ ٣ (يَا أَيُّهَا النَّبِي إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ... قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْء قَدْرًا).

الآيات: الثلاث الأُولى

(يَا أَيُّهَا النَّبِي إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَ لاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَة مُبَيِّنَة وَ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْري لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوف أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوف وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْل مِنْكُمْ وَ أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ وَ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْء قَدْرًا).

المفردات

أَحْصُوا: الإحصاء: معرفة العدّ وضبطه، أُخذ من الحصاة ؛ لأنّهم كانوا إذا كثرت أعداد شيء جعلوا لكلّ معدود حصاة، ثم عَدّوا ذلك الحصى.

العِدّة: الشيء المعدود، والمراد الأيام، قال سبحانه:(فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّام أُخَرَ) البقرة: ١٨٥ . : أي عليه صيام أيام بعدد ما فاته من زمان آخر غير زمان شهر رمضان.

قال الراغب: والعدّة عدّة المرأة وهي الأيام التي بانقضائها يحلّ لها التزوّج.(المفردات للراغب: ٣٢٤، مادة «عد».) والاعتداد: قعود المرأة عن الزوج حتى تنقضي المدّة المرتبة في الشريعة، وهي على ضروب مذكورة في الفقه.

الفاحشة: الزنا أو كلّ فعل سوء يؤذي الزوج ومن في البيت.

الحدود: الحدّ: الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر، يقال: حددت كذا أي جعلت له حدّاً مميّزاً، وحدّ الدار ما تتميّز به عن غيرها.

وحدّ الشيء: الوصف المحيط بمعناه المميّز له عن غيره، وإنّما سمّيت عقوبة الزنا وشرب الخمر حدّاً لكونها مانعة لمتعاطيه عن معاودة مثله. المفردات للراغب: ١٠٩، مادة «حدّ».

التوكّل: هو الاعتماد على الله، لا جعله سبحانه وكيلاً وإلقاء الأمر إليه دون أن يكون للعبد دور في أُمور حياته، فإنّ التوكّل بهذا المعنى، لا يصدّقه العقل ولا الكتاب العزيز.

ثمّ إنّ اللام في قوله: (لعدّتهنّ) بمعنى «عند» أي عند عدّتهنّ، نظير قوله تعالى: (أَقِمِ الصَّلَوةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ): أي عند دلوك الشمس. ويحتمل أن يكون اللام للغاية، أي لغاية الاعتداد.

التفسير

ذكر سبحانه في هذه الآيات عدّة أحكام هي:

ذكر سبحانه في هذه الآيات عدّة أحكام هي:

١. الطلاق عند الاعتداد أو لغاية الاعتداد.

٢. إحصاء العدّة حتى لا يكون هنا حرج على الزوجين في الرجوع أو تحقّق المفارقة.

٣. الأمر بالتقوى في كلّ الأُمور، لا سيّما فيما يرجع إلى اعتداد المرأة وضبط أيّامها.

٤. إبقاء النساء المطلّقات في البيوت وعدم إخراجهنّ وكأنّه حقّ للمعتدّة.

٥. تحريم إخراجهنّ إلاّ أن يأتين بفاحشة مبيّنة.

وإليك تفسير الآيات:

تفسير الآيات:

١. (يَا أَيُّهَا النَّبِي إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَ اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَة مُبَيِّنَة وَ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْري لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا):

ابتدأ سبحانه كلامه، في ثلاث سور، بالخطاب للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وهي: سورة الأحزاب حيث قال:(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ)، والثانية هذه السورة، والثالثة سورة التحريم التي سيوافيك تفسيرها.

قوله:(إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ): أي إذا أردتم الطلاق، وهذا النوع من الاستعمال شائع كقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ) المائدة:٦.: أي إذا أردتم الصلاة.

قوله: (فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ): أي طلّقوهنّ عند عدّتهن، أو طلقوهن لغاية اعتدادهنّ.

الوقت الصحيح لإيقاع الطلاق

ذهب فقهاء الإمامية إلى أنّ الوقت الصحيح لطلاق المدخول بها هو أن يطلّقها في طهر لا في حيض، وفي طهر لم يجامعها فيه، فهذا هو الطلاق للعدّة ؛ لأنّها تعتدّ بذلك الطهر وتدخل فيها عقب الطلاق.

وذهب كثير من فقهاء السنّة إلى أنّ الطلاق في أيام الحيض أو في طهر المواقعة محرَّم، لكنّه لا يفسد الطلاق، بل يقع صحيحاً، ولكن يأثم المطلّق.

والحقّ هو القول الأوّل آية ورواية.

أمّا الآية فلأنّ قوله:(فطلّقوهن لِعدَّتِهِنَّ) ظاهر في أنّ المرأة تدخل في العِدّة بعد إنشاء الطلاق، وهذا الظهور لا غبار عليه.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ فقهاء أهل السنّة وإن اتّفقوا على صحّة الطلاق في الحيض وفي طهر المواقعة، ومع ذلك قالوا: إنّ الاعتداد يبدأ في طهر لا مواقعة فيه، ولكنّ ظاهر الآية لا يصدقه لأنّ قوله:(لِعِدَّتِهِنَّ)ظاهر في أنّ إنشاء الطلاق لغاية اعتدادهنّ بعده، وهذا لا يتحقّق حسب آرائهم أيضاً إلاّ إذا كان الطلاق مُنشأً في طهر لا مواقعة فيه، وإلاّ لزم تخلّف الاعتداد عن زمن إنشاء الطلاق إذا وقع في الحيض أو في طهر المواقعة.

ويترتّب على ما ذكرنا كون المراد من الأقراء في آية أخرى هو الأطهار، أعني: في قوله سبحانه:(وَ الْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوء) .

وحصيلة الكلام: أنّ الفقهاء اتّفقوا على أنّ الطلاق الخالي عن الإثم والحرمة عبارة عن الطلاق في غير طهر المواقعة.

هذا من جانب، ومن جانب آخر أنّ الآية تدعو للاعتداد بعد صيغة الطلاق. ومن المعلوم أنّ الآية تقصد طلاقاً ليس فيه حرمة ولا إثم، فتكون الآية ظاهرة في الطلاق في غير طهر المواقعة، وعندئذ تدخل في العدة ويكون الملاك ثلاثة أطهار مكان ثلاث حيضات.

قلنا: إنّ القول الأوّل تؤيده الآية والرواية، أمّا الأُولى فقد عرفت، وأمّا الرواية، فقد روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر: أنّه طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) عن ذلك، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «مُرْه فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعدُ، وإن شاء طلّق قبل أن يمسّ، فتلك العِدَّة التي أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء». صحيح البخاري:١٣٤٩، برقم ٥٢٥١.

وروى البخاري عن سليمان بن حرب، عن شعبة عن أنس بن سيرين، قال: سمعت ابن عمر قال: طلق ابن عمر امرأته وهي حائض، فذكر عمر للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال: «ليراجعها»، قلت: أتحتسب؟ قال: «فمه» صحيح البخاري:١٣٤٩، برقم ٥٢٥٢ .

وفي رواية أُخرى: قال(صلى الله عليه وآله وسلم):«مُرْهُ فليراجعها».

وروى الكليني بسند صحيح عن أبي جعفر الباقر(عليه السلام) قال:«كلّ طلاق لغير السنّة فليس بطلاق، أن يطلّقها وهي حائض أو في دم نفاسها، أو بعد ما يغشاها قبل أن تحيض فليس طلاقها بطلاق». الوسائل:١٥، الباب٨ من أبواب مقدمات الطلاق، الحديث٩.

قوله: (وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ) بضبط أيّامها وعدم التساهل فيها حتّى لا يكون حرج على الزوجين في أمر الإمساك أو التسريح، ومن المعلوم أنّ عدم الضبط ربما يوجب توهّم خروج المرأة عن العدّة وزواجها مع أنّها في الواقع معتدّة، والخطاب في الظاهر للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ولكنّه في الواقع للزوجين، ويمكن أن يكون خطاباً لولاة الأمر الذين يمارسون أمر الطلاق .

قوله: (وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ) لم يُذكر متعلّق التقوى ليعمّ جميع المقامات ولا سيّما في ضبط أيام العدّة؛ لأنّ التساهل في هذا الأمر ينتهي إلى ما لا تحسن عاقبته، وفي الحقيقة أنّ الحضّ على التقوى هنا، هو دعوة إلى المحافظة على الحدود التي حدّها الله سبحانه في أمر الطلاق.ثمّ إنّ المطلقة لا تخلو من أن تكون آيسة أو حاملاً أو حائلاً ويأتي الكلام في الأوّلين، أمّا عدة الحامل فثلاثة أطهار: الطهر الذي طلقت فيه، ثمّ الطهران بعد الحيض الواحد؛ وعليه الإمامية والمالكية والشافعية، وأمّا عند الأحناف والحنابلة فعدتها ثلاث حيضات، وقد عرفت دلالة الآية على القول الأوّل.

قوله: (لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ): أي لا يجوز للزوج أن يخرج المطلّقة المعتدّة من مسكنها التي كانت تسكن فيه قبل الطلاق.

والنهي عن إخراجهنّ من بيوتهنّ لمصلحة الزوجين ؛ لأنّ بقاءها في نفس البيت الذي يسكن فيه الزوج ربما يؤثّر في رجوع الزوج عن الفراق وعدوله عن الطلاق، وبما أنّ المعتدّة بحكم الزوجة يجوز لها التزيّن لجلب نظر الزوج. روى الكليني، عن وهيب بن حفص، عن أبي بصير، عن أحدهما(عليهما السلام) في المطلقة: تعتدّ في بيتها، وتُظهر له زينتها (لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً) الكافي: ٦ / ٩١ الحديث ١٠، باب عدّة المطلّقة؛ وتفسير نورالثقلين:٥/٣٥٢، برقم ٢٣.. وروى أيضاً عن زُرارة، عن أبي جعفر [الباقر] (عليه السلام)، قال: «المطلّقة تكتحل وتختضب وتطيّب وتلبس ما شاءت من الثياب، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:(لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً)، لعلّها أن تقع في نفسه فيراجعها» الكافي: ٦ / ٩٢ الحديث ١٤ ؛ تفسير نور الثقلين: ٥ / ٣٥٢، رقم ٢٤..

قوله: (وَ لاَ يَخْرُجْنَ): أي لا يجوز للمرأة أن تخرج في عدّتها إلاّ لضرورة ظاهرة؛ وذلك لأنّ المعتدّة بمنزلة الزوجة فلا تخرج إلاّ بإذن زوجها فإن خرجت أثمت.

قوله: (إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَة مُبَيِّنَة)، هل الاستثناء يتعلّق بالفقرة الأُولى، بمعنى أنّه ليس للزوج أن يُخرج المعتدّة من مسكنها إلاّ إذا أتت بفاحشة، أو يرجع إلى الفقرة الثانية بمعنى أنّها لا تخرج إلاّ في هذه الصورة، وعندئذ يكون معنى الاستثناء فليخرجن؟ الظاهر أنّه يرجع إلى الفقرة الأُولى، إنّما الكلام فيما هو المراد من الفاحشة. قال الراغب: ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال، قال تعالى:(إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) إلى أن قال:(إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَة مُبَيِّنَة) وهو كناية عن الزنا، وكذلك قوله:(وَ اللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ)هذا ما ذكره الراغب، وهناك أقوال أُخرى:

١. البذاء على أهلها، فيحلّ لهم إخراجها.

٢. النشوز.

٣. خروجها قبل انقضاء العدّة

٤. كلّ معصية لله ظاهرة.

ويمكن أن يكون المراد هو جميع هذه الأُمور. روى الكليني بسند منقطع عن الرضا(عليه السلام)في تفسير الآية قال: «أذاها لأهل الرجل وسوء خلقها». الكافي: ٦ / ٩٧ الحديث ١ ؛ وتفسير نورالثقلين:٥/٣٥٠، برقم ١٧. وهذا أنسب بالمقام.

وروى أيضاً بإسناده عن محمد بن علي بن جعفر] الصادق(عليهم السلام)[، قال: سأل المأمون الرضا(عليه السلام)عن قول الله عزّ

وجلّ: (لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَة مُبَيِّنَة)، قال: يعني بالفاحشة المبيّنة أن تؤذي أهل زوجها، فإذا فعلت فإن شاء أن يُخرجها من قبل أن تنقضي عدّتها، فعل. الكافي: ٦ / ٩٧ الحديث ٢ ؛ وتفسير نورالثقلين:٣٥١/٥، برقم١٨.

ولعلّ الروايتين بصدد بيان المصداق الأوفر والأكثر من سوء الخلق، وإلاّ فإنّ المعتدّة ربما يسوء خلقها لأجل الطلاق وانقطاع علاقتها بالرجل، ومن المعلوم أنّه لا يجوز إخراجها.

وعلى كلّ تقدير فالحكم بإخراجها لا يعدُّ قسوة عليها، إذ أنّها هي سبب الإخراج.

قوله تعالى: (وَ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ): أي أنّ ما تقدّم من الأحكام هي حدود الله التي حُدّدت بها حياة الزوجين مع بعضهم، وأمّا من تعدّى وتجاوز هذه الحدود فقد ظلم نفسه، وهنا احتمالان:

١. ظلم نفسه بمعنى ظلم ربّه فيُجازى بظلمه.

٢. أنّ كلّ ما حدّه الله سبحانه من حدود فهو لصالح الإنسان، ومَن خالف وهدم الحدود فيتضرّر وإن لم يقف على عاقبة الأمر حين المخالفة.

قوله تعالى:(لاَ تَدْري لَعَلَّ اللّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)، ولعلّ المراد لا يدري أحد من الزوجين ولا غيرهما لعلّ الله يحدث الرغبة بعد الطلاق فتنقلب البغضاء إلى المحبّة، والكدر إلى الصفاء بتراجع الزوج عن قراره في الطلاق.

وقد يكون هذا نتيجة بقائها في البيت، وإطاعتها لرب البيت، فإنّ مثل ذلك يورث تغيير موقف الزوج بالنسبة إلى زوجته، وبالعكس.

٢. (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوف أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوف وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْل مِنْكُمْ وَ أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للّه ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللّه وَ الْيَوْمِ الآخِرِ وَ مَنْ يَتَّقِ اللّه يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا):

٢. (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ... تتضمّن هذه الآية أحكاماً عديدة:

تتضمّن هذه الآية أحكاماً عديدة:

١. إذا قاربن أجلهنّ الذي هو الخروج من العدّة، فالرجل مختار بين أمرين: الإمساك بالمعروف، أو تركهنّ حتى يخرجن من العدّة.

٢. الإشهاد بذوَي عدل عند الطلاق.

٣. إقامة الشهادة لله.

٤. إنّ التقوى تخرج الإنسان من المآزق والضيق.

قوله: (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)المراد إذا قارب خروج أجلهن لا بمعنى إذا انقضى أجلهن، لأنّ الزوج يملك الرجعة قبل خروج العدّة لا بعده.

قوله:(فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوف أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوف) فقد خيّر الزوج بين أمرين: إمّا أن يرجع عن طلاقه فتعود زوجة شرعية له ولكن يجب أن يكون الإمساك بنيّة حسنة وهو أن يختار الرجوع ليتّخذ منها زوجة تعيش معه مادامت حياتها، في مقابل الرجوع لإيذائها، خلافاً للجاهلية حيث كان الرجل يطلق امرأته فإذا قاربت انتهاء عدّتها راجعها أياماً ثم طلقها يفعل ذلك ثلاثاً ليطيل عليها مدّة العدّة إضراراً بها، ولذلك أمر سبحانه على ضد هذه السيرة فقال:(فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوف). وجاء في سورة البقرة:(وَ لاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا). البقرة:٢٣١. وقوله تعالى: (أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوف) أي (سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوف). البقرة:٢٣١.

ولعلّ المراد بـ (فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوف)هو تمتيعها بشيء وراء مهرها وما يجب على الزوج من النفقة في أيّام العدّة ؛ لأنّها ستترك بيتها وعزّتها وقد خدمت الزوج وبيته مدّة مديدة من حياته.

وقد أُشير إلى ما ذكرنا بقوله:(وَ مَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ). البقرة:٢٣٦.

وعلى كلّ تقدير، فالآية تحثّ الزوج على رعاية المعروف عند العرف والشرع، سواء أمسكها أو فارقها.

قوله تعالى: (وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ)و تدلّ الآية على وجوب الإشهاد، فهل يعتبر في إيقاع الطلاق أو في الرجوع عن الطلاق؟

فالأوّل مورد اتّفاق علمائنا، والثاني هو المشهور عند فقهاء المذاهب، فقالوا بوجوب الإشهاد في الرجوع دون الطلاق، ومنهم من جمع بين القولين فأوجب الإشهاد في الطلاق والرجوع. والحق أنّه قيد للطلاق لا الإمساك، فهاك بيانه:

لا شكّ أنّ قوله: (وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ) ظاهر في الوجوب كسائر الأوامر الواردة في الشرع ولا يعدل عنه إلى غيره إلاّ بدليل، إنّما الكلام في متعلّقه، فهناك احتمالات ثلاثة:

١. أن يكون قيداً لقوله: (فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ).

٢. أن يكون قيداً لقوله:(فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوف).

٣. أن يكون قيداً لقوله: (أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوف).

ولم يقل أحد برجوع القيد إلى الأخير فالأمر يدور بين رجوعه إلى الأوّل أو الثاني، والظاهر رجوعه إلى الأوّل؛ وذلك لأنّ السورة بصدد بيان أحكام الطلاق وقد افتتحت بقوله سبحانه:(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ)فذكرت للطلاق عدّة أحكام:

١. أن يكون الطلاق لعدّتهنّ.

٢. إحصاء العدّة.

٣. عدم إخراجهنّ من بيوتهنّ أو خروجهنّ بأنفسهنّ في زمان العدّة.

٤. خيار الزوج بين الإمساك والمفارقة عند اقتراب عدّتهنّ من الانتهاء.

٥. إشهاد ذوَي عدل منكم.

٦. عدّة المسترابة.

٧. عدّة من لا تحيض وهي في سن من تحيض.

٨ . عدّة أُولات الأحمال.

وإذا لاحظت مجموع آيات السورة من أوّلها إلى الآية السابعة تجد أنّها بصدد بيان أحكام الطلاق، لأنّه المقصود الأصلي، لا الرجوع المستفاد من قوله:(فأمسكوهنّ) وقد ذكر تبعاً.

وهذا هو المرويّ عن أئمّتنا(عليهم السلام)، روى محمد بن مسلم قال: قدم رجل إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) بالكوفة فقال: إنّي طلّقت امرأتي بعد ما طهرت من محيضها قبل أن أُجامعها، فقال أمير المؤمنين(عليه السلام): «أشهدت رجلين ذوَي عدل كما أمرك الله؟» فقال: لا، فقال: «اذهب فإنّ طلاقك ليس بشيء». الوسائل:١٥، الباب١٠ من أبواب مقدّمات الطلاق، الحديث ٧ .

وروى الفضلاء من أصحاب الإمامين الباقر والصادق كزرارة ومحمد بن مسلم، وبُريد، وفُضيل وإسماعيل الأزرق ومعمر بن يحيى عنهما(عليهما السلام) في حديث أنّهما قالا: «وإن طلقها في استقبال عدتها طاهراً من غير جماع ولم يشهد على ذلك رجلين عدلين فليس طلاقه إياها بطلاق». الوسائل:١٥، الباب١٠ من أبواب مقدّمات الطلاق وشرائطه، الحديث٣.

وروى الكليني بإسناده إلى محمد بن الفضيل، عن أبي الحسن موسى] الكاظم[(عليه السلام) أنّه قال لأبي يوسف: «إنّ الدين ليس بالقياس كقياسك وقياس أصحابك، إنّ الله عزّ وجلّ أمر في كتابه بالطلاق وأكّد فيه بشاهدين ولم يرض بهما إلاّ عدلين، وأمر في كتابه بالتزويج وأهمله بلا شهود، فأتيتم بشاهدين فيما أبطل الله، وأبطلتم شاهدين فيما أكّد الله عزّ وجلّ، وأجزتم طلاق

المجنون والسكران»، ثم ذكر حكم تظليل المُحرِم. الكافي: ٤ / ٣٥٢، كتاب الحجّ، باب الطلاق للمحرم، الحديث١٥. وانظر: الوسائل:١٥، الباب١٠ من أبواب مقدّمات الطلاق، الحديث١٢ ؛ ولاحظ بقية أحاديث الباب.

ونقل المرحوم الشيخ محمد جواد مغنية عن الدكتور محمد يوسف موسى أُستاذ ورئيس قسم الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة عين شمس بالقاهرة في كتابه «الأحوال الشخصية» ما يلي:

يرى الشيعة الإمامية أنّ من أهم شروط الطلاق حضور شاهدين عدلين ؛ لقوله تعالى: (وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْل مِنْكُمْ) وفي ذلك يقول أحد علمائهم: وهذا أنفع وسيلة إلى الوئام بين الزوجين ؛ لأنّ لأهل الصلاح تأثيراً في النفوس وإعادة مياه الصفاء إلى مجاريها، وإذا لم تنجح نصائحهم فلا أقلّ من تخفيف الطلاق وتقليله بسبب اشتراط العدلين.

وقال الدكتور محمد يوسف موسى معلّقاً على ذلك: وهذه وجهة نظر يجب عدم التغاضي عنها، فإنّ الأخذ بهذا الرأي يمهّد السبيل للصلح في كثير من الحالات حقّاً. التفسير الكاشف:٧/٣٥٠.

قوله:(وَ أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ) الخطاب للشهود الذين شهدوا على إيقاع الطلاق، فلتكن شهادتهم بقصد إحقاق الحق الذي هو طلب رضا الله سبحانه لا طلب رضا المشهود له ولا النكاية بالمشهود عليه، وقد ورد نظير ذلك في سورة البقرة، قال سبحانه:

(وَ أَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَ لاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَ لاَ شَهِيدٌ) البقرة:٢٨٢.: أي لا يضارّ أحد الطرفين، فلتكن الشهادة على وفق ما شهد.

وإنّما ينتفع بهذا البيان ـ أي إقامة الشهادة لله ـ (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ)، فإنّ الإنسان سيُجزى بعمله، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ، ومن المعلوم أنّ شهادة الزور خيانة كبرى يستبيحها من لا وازع له من دين، ولا رادع من ضمير.

نعم مَن لا يؤمن بالله واليوم الآخر بل يؤمن بمصالحه الدنيوية العابرة فقط، فلا يتّعظ بهذا البيان.

قوله تعالى:(وَ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا).

هاهنا مقامان:

١. كيف تكون التقوى سبباً للخروج من المأزق والضيق؟

٢. ما هي الصلة بين هذا وما تقدّم من الأحكام؟

أمّا الأوّل فإنّ كثيراً من البسطاء يزعمون أنّ حفظ حدود الله والاجتناب عمّا حرّمه الله سبحانه والاقتصار على ما أحلّه الله يورث الحرمان من كثير من الخيرات والملذّات.

ولكنّه زعم باطل، والوحي الإلهي قد شطب على هذا الزعم وأنّ الحقيقة غير ذلك، فإنّ من يتّق الله أي يصون نفسه عمّا حرم الله، فالله سبحانه يفتح بوجهه باب الخيرات والبركات، وهذا عهد الله سبحانه لا ينقض. نعم ربما يكون هدم الحدود وعدم رعاية الحلال والحرام سبباً لوفرة المال وكثرة النعمة.ولكن ليحذر هذا الذي جمع مالاً أن يكون ذلك امتحاناً له، واستدراجاً، قال أمير المؤمنين(عليه السلام): «كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَج بِالْإحْسَانِ إِلَيْهِ، وَمَغْرُور بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ... وَمَا ابْتَلَى اللهُ أَحَداً بِمِثْلِ الْإمْلاَءِ لَهُ» نهج البلاغة: قصار الحكم، رقم ١١٦.. وقال (عليه السلام): «إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرْهُ»(نهج البلاغة: قصار الحكم، رقم ٢٥.). ثمّ قد لا تمضي أيام إلاّ ويرى هذا الإنسان نفسه وقد خلت يده من كلّ نعمة كانت تحت سيطرته بأحد الأسباب الطبيعية أو غيرها.

وإن كنت في شكّ من ذلك ـ ولا أظن أن يشكّ إنسان معتقد بالوحي الإلهي ـ فدقّق النظر في حياتك وحياة مَن حولك وحياة المفسدين والطامعين الذين لا يعرفون الحلال والحرام، فالمؤمن المعتقد بحدود الله ربما يواجه في أيام حياته صعوبة ومشقّة،

ولكن سيفتح الله باب رحمته عليه بعد أيام قلائل.

وكم من هادم لحدود الله، جمّاع للمال من هنا وهناك دون أن يراعي حلاله وحرامه، قد واجه مصاعب وحوادث جعلت الكلّ في مهبّ رياح لا تذر ولا تبقي شيئاً.

وأمّا الثاني، فإنّ التقوى أمر وجودي، وهي مخافة الله والعمل بطاعته، وصون النفس عن ارتكاب المعاصي، فإذا استثيرت مشاعر التقوى عند الطرفين، والتزما بمراعاتها، فإنّ ذلك يمهّد الأرضية الصالحة إلى حلّ مشكلة الزوجية، إمّا بالرجوع إلى عشّ الزوجية في وئام وانسجام، أو بالافتراق بالمعروف والتسريح بإحسان .

٣. (وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا):

قوله:(وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ)تتميم للآية السابقة وأنّه سبحانه سيرزق المتّقي من طرق لا يفكّر فيها.

قوله:(وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ).

قد تقدّم في الفقرة السابقة أنّ من آثار التقوى هو الرزق من حيث لا يحتسب الإنسان، وهو سبحانه في هذه الآية يذكر من صفات المؤمنين صفة التوكّل، وأنّ من يتوكل على الله فهو حسبه في الحياة الدنيوية والأُخروية.

و(حَسْبُهُ) بمعنى: كافيه من كلّ شيء، إنّما الكلام في معنى التوكّل... فالتوكّل الذي دعا القرآن الكريم إليه فُسّر بنحو غير صحيح لا يصدّقه العقل ولا النقل فيقال: التوكّل إيكال الأمر إلى الله سبحانه دون تحمّل أية مسؤولية في طريق المطلوب، وكأنّه سبحانه وكيل عن جميع الناس ليقوم بأعمالهم كما يقوم الوكيل بأعمال الموكل.

إنّ تفسير التوكّل بهذا المعنى من أسباب التخلّف والبطالة في المجتمعات؛ لأنّه إذا كانت المسؤولية على الله سبحانه دون الخلق، فمن المعلوم أنّه يكون نصيب هذا المجتمع ـ عندئذ ـ التخلّف في جميع حقول الحضارة؛ مع أنّ الله سبحانه جعل لكلّ شيء سبباً، فيجب أن تطلب الأشياء بأسبابها قال سبحانه: (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) الملك:١٥.. وأمّا المعنى الصحيح للتوكّل فهو الأخذ بسنن الله في العمل والسعي وراء الأسباب، وفي الخبر النبوي أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) قال للأعرابي الذي ترك ناقته مهملة فندّت، فلمّا قيل له قال: توكّلت فتركتها، قال(صلى الله عليه وآله وسلم):«اعقل وتوكّل».. شرح نهج البلاغة:١١/٢٠١.

روى النراقي أنّ موسى بن عمران(عليه السلام) اعتلّ بعلّة، فدخل عليه بنو إسرائيل، فعرفوا علّته، فقالوا له: لو تداويت بكذا لبرئت، فقال: لا أتداوى حتى يعافيَني الله من غير دواء، فطالت علّته، فأوحى الله إليه: وعزّتي وجلالي لا أبرؤك حتى تتداوى بما ذكروه لك. فقال لهم: داووني بما ذكرتم، فداووه فبرئ. فأوجس في نفسه من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه: أردت أن تبطل حكمتي بتوكّلك عليّ، فمن أودع العقاقير منافع الأشياء غيري. جامع السعادات:٣/٢٣٠(فصل: إعقل وتوكّل)، مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٨هـ.

كلّ ذلك يدلّ على أنّ التوكّل هو الأخذ بسنن الله سبحانه في الحياة الدنيوية والسعي وراء الأسباب.

وهناك سؤال وهو أنّه إذا كان التوكّل هو الأخذ بالأسباب فما الفرق بين المؤمن والماديّ، فإنّ الجميع يأخذون بالأسباب، وهذا يعرب عن أنّ التوكّل ذو خصوصية خاصة ليس في عمل الماديّ؟

والجواب: أنّ الماديّ يتصوّر أنّ الأسباب المادية تكفيه لبلوغ المقصود، ولو عاقه عن الغاية عائق استيأس من نيل المراد، ولكن المؤمن المتوكّل يأخذ بسنن الله، ولكنّه يؤمن بأنّ الأمر لله وحده، وأنّ قدرته تعالى مطلقة لا يحدّها شيء، ولذا يُقرن سعيَه بالتوجّه إليه سبحانه بأن يعينه في طريق الوصول إلى غاياته، ويرفع الحواجز بينه وبينها.

ومن درس الآيات التي ورد فيها التوكّل يقف على أنّ أنبياء الله سبحانه يقومون بمهام الأُمور من طرق أسبابها ولكن متوكّلين ومعتمدين على نصرته وعونه، قال تعالى: (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ

اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) الأنفال:٤٩.. فقد نزلت هذه الآية في غزوة بدر قبل نشوب القتال بين المسلمين وقريش، وذلك عندما أخذ المنافقون والذين في قلوبهم مرض من المتظاهرين بالإسلام يهزأون بالمسلمين للتأثير على معنوياتهم، حيث كانوا يشيعون بينهم قولهم: (غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ) حتى خرجوا مع قلّتهم إلى قتال المشركين.

ثمّ إنّه سبحانه بيّن أنّهم هم المغرورون لا المسلمون ؛ وذلك لأنّ المسلمين متجهّزون بجهاز عظيم وهو التوكّل على الله والثقة به، وقال: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)، ومن المعلوم أنّ المسلمين كانوا يجاهدون بسيوفهم وأيديهم ويعملون بسنن الله سبحانه، ومع ذلك كان عليهم ضمّ التوكّل على الله إلى الأخذ بالسنن حتى يعينهم فيما يشكل عليهم ويصعب وفيما لا حيلة له حسب الظاهر. فموضع التوكّل على الله في عامّة الآيات يشبه هذا المقام، أي أنّ المتوكّل يقوم بالمسؤولية الملقاة على عاتقه لكن مستعيناً بقدرة الله في طريق العمل.

وللشيخ النراقي كلام لطيف في تفسير التوكّل نأتي به على وجه الإيجاز، حيث إنّه قسّم الأُمور الواردة على العباد بين كونها خارجة عن قدرة العباد ووسعهم، أو تكون لها أسباب جالبة لها أو دافعة إيّاها. أمّا القسم الأوّل فمقتضى التوكّل فيها ترك السعي وحوالتها على رب الأرباب، وأمّا القسم الثاني فالأسباب التي لا ينافي تحصيلها ومزاولتها للتوكّل هي التي يقطع أو يظن بارتباط المسبّبات لها بتقدير الله ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يتخلف عنها سواء كانت لجلب نفع أو لدفع ضرّ منتظر، أو لإزالة آفة واقعة، ثم مثّل لذلك بأمثلة منها: اتّخاذ البضاعة للتجارة، واللقاء لحصول الأولاد، وأخذ السلاح للعدو، والادّخار لتجدّد الاضطرار، والتداوي لإزالة المرض، إلى غير ذلك من الأمثلة. جامع السعادات:٣/٢٢٨.

وهذا هو يوسف الصدّيق(عليه السلام) قد أرشد ملك مصر إلى طريق حلّ الأزمة التي شغلتهم، ودلّهم على السنن الواجب اتّباعها للتخلّص من المجاعة وقال:(تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ).(يوسف:٤٧.)

وبذلك، يعلم أنّ ما قاله ذو النون في تفسير التوكّل لا يوافق الذكر الحكيم وإنّما هو فكرة صوفية، حيث قال: التوكّل الانخلاع من الحول والقوة وترك تدبير الأسباب. لاحظ: شرح نهج البلاغة:١١/٢٠١.

ومن العجب أنّ الغزالي ـ مع سعة تفكيره ـ يذكر درجات التوكّل و أنّها ثلاث وأنّ أعلاها وأفضلها أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته ولكنّها مثل الميّت بين يدي الغاسل لا يفارقه إلاّ في أنّه يرى نفسه ميتاً تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت...، إلى آخر ما ذكره. لاحظ إحياء علوم الدين:٤/٢٦١.

إنّ هذا النوع من التفكير يعرقل عجلة التقدّم في المجتمع عن نيل آماله الدنيوية والأُخروية، ويؤدّي إلى انتشار البطالة في المجتمع.

ثمّ العجب أيضاً منه أنّه يقول في الدرجة الأُولى أن يكون حال الموكّل في حقّ الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كما له في الثقة بالوكيل. نفس المصدر.

وكأنّه يصوّر أنّ التوكّل هو أخذ الله وكيلاً، ومن المعلوم أنّ الموكّل يضع المسؤولية على الوكيل وينسحب عن الساحة فيكون الوكيل هو الفعّال دون الموكّل.

وهذا التفسير تفسير خاطئ ؛ لأنّ ثمّة فرقاً بين التوكيل والتوكّل، فما ذكره تفسير للتوكيل وأمّا التوكّل فهو طرف النقيض من التوكيل بشهادة قولنا: وكّلت فلاناً توكيلاً، وتوكّلت على الله توكّلا.

ففي الأوّل يكون الإنسان موكّلا والطرف الآخر وكيلاً، يقوم بكلّ شيء دون الموكّل.

وأمّا الثاني فالمتوكّل يقبل المسؤولية، غاية الأمر يستمد في طريق الأخذ بالسنن والأسباب من قدرة الله سبحانه، فليس المتوكّل

موكِّلا بل المتوكّل كأنّه يقبل الوكالة لنفسه غاية الأمر معتمداً على الله، والشاهد على ذلك استعمال التوكّل بحرف الجر(على) حاكياً عن اعتماده على الله سبحانه في ممارسة العمل واستخدام السنن.

وبعبارة أُخرى:الفرق بين الجملتين:

وكّل يوكّل توكيلاً.

توكّل يتوكّل توكُّلاً.

فالمصدر في الجملة الأُولى يضع ثقل العمل على عاتق الوكيل.

وفي الجملة الثانية يضع ثقل العمل على نفسه فيصير متوكّلا لا وكيلاً، فالمتوكّل غير الموكِّل، ويقابله.

قوله تعالى: (إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ) أي فما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن، وهو القائل سبحانه:(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، وفي آية ثانية:(مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) ق:٢٩، وفي آية ثالثة:(وَ اللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) الرعد:٤١..

قوله تعالى: (قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْء قَدْرًا): أي ما من شيء إلاّ له قدْر مقدور وحدّ محدود، والله سبحانه لا يحدّه حدّ ولا يحيط به شيء وهو المحيط بكلّ شيء.

هذا ما ذكره السيد الطباطبائي ويحتمل أن يكون المراد من جعل القدر لكلّ شيء تقدير الأسباب التي تنتهي إلى المسببات، وعلى هذا فيظهر معنى الفقرتين وأنّهما تفسّران حقيقة التوكّل فإنّ حقيقته قائمة بأمرين:

الأوّل: الاعتماد على قدرة الله سبحانه فإنّها ناتجة قطعاً لأنّه بالغ أمره.

الثاني: التمسّك بالأسباب المقدّرة المنتهية إلى المسبّبات، فإنّه سبحانه قدّر أسباب الأشياء، فليس للمتوكّل التوكّل على الله إلاّ بالتشبّث بالأسباب المقدّرة، والله العالم.

بقي الكلام في صلة الآيتين اللّتين تحثّان على التقوى والتوكّل، بأمر الطلاق.

أقول: إنّ هذه الآيات تحتوي على معان واسعة ومفاهيم عظيمة تشتمل على جميع المجالات في حياة المتقين وترشدهم إلى الصواب فتنفتح أمامهم الآفاق الواسعة، كما أنّ قوله:(قَدْ جَعَلَ اللهُ) بيان إلهي أنّ لكلّ مسبّب سبباً وإن تعلّقت إرادة الله على صدور كلّ مسبّب عن سببه، فعلى المؤمن أن يطرق باب الأسباب ولا يعتمد على التوكّل الموهوم، وقد ورد في الروايات أنّ جمعاً من أصحاب الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) قد أغلقوا على أنفسهم الأبواب واتّجهوا إلى العبادة متمسّكين بقوله تعالى:(وَ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)وقالوا: قد كُفينا، فبلغ ذلك النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فأرسل إليهم قال: ما حملكم على ما صنعتم؟ قالوا: يا رسول الله، اللهُ تكفَّل لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة، قال(صلى الله عليه وآله وسلم):«إنّه من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب». تفسير نور الثقلين:٥/٣٥٥.

وأمّا صلة الفقرتين بأمر الطلاق، فأمّا التقوى فالله سبحانه يبيّن أنّه يُيسِّر لكلّ من الزوجين اجتياز عقبات الطلاق، والرزق من حيث لا يحتسب من الطيبات، فليس لأحد من الزوجين اليأس والقنوط من مصيرها إذا عمل بالتقوى في مسيرة حياته.

وأمّا الثاني ـ أعني: التوكّل ـ فله أيضاً صلة بأمر الطلاق، فلو تمسّك كلّ من الزوجين بأسباب تنتهي إلى تكوين الأُسرة مجدّداً متوكّلا على الله ومستعيناً بقدرته، فالله سبحانه بالغ قدرته وأمره في حقّهما.

الآيات ٤ ـ ٧ (وَ اللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ..... سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْر يُسْرًا).
الآيات: الرابعة إلى السابعة
(وَ اللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُر وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَ أُولاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ

حَمْلَهُنَّ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا* ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا *أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَ لاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَ إِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَ إِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى * لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا).

المفردات

وُجدكم: من الوُجْد، قال الراغب: قوله:(من وُجْدكم): أي تمكّنكم وقدْر غناكم، ويعبَّر عن الغنى بالوُجدان والجِدَة، ويعبَّر عن الحزن والحب بالوَجْد، وعن الغضب بالمَوجِدة. المفردات للراغب: ٥١٣، مادة «وجد».

وأتمروا: من الإئتمار: قبول الأمر، ويقال للتشاور إئتمار لقبول بعضهم أمر بعض فيما أشار به.

قُدر: بضمّ القاف وكسر الدال: من ضُيّق عليه في الرزق.

التفسير

تضمّنت الآيات السابقة أحكاماً عديدة تتعلّق بالطلاق وعدّة المرأة، وأمّا هذه الآيات فتطرّقت إلى بيان أحكام أُخرى، وهي:

١. عدة الآيس المرتابة التي لم يُعلَم أنّ انقطاع حيضها لكبر سنّها أو لعارض آخر.

٢. النساء اللاتي لم يحضْن، وهن في سنّ مِن تحيض.

٣. عِدّة أُولات الأحمال.

٤. حكم أُولات الأحمال من حيث النفقة والسكنى.

٥. حكم المرضعة المطلقة.

٦. وجوب التشاور بين الآباء والأُمّهات فيما تستدعيه مصلحة الطفل والوالدين في أمر الرضاع.

٧. تقدير النفقة بحسب القدرة.

٤. (وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ وَ اللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَ أُولاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا):

قوله تعالى:(وَ اللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ): أي لا تدرون أنّ عدم حيضهنّ لأجل كبر السن وأنّهن بلغن مرتبة اليأس، أو لعارض فيعتددْن ثلاثة أشهر.

وبعبارة أُخرى: هذه الفقرة ناظرة إلى النساء اللائي لا يحضْنَ، ولكن لا يُعلَم بأنّهنّ وصلن عمر اليأس أو لا، وقد ذكر الطبرسي أنّ هذا مذهب أهل البيت، وقال في تفسير الآية:(وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ)فلا يحضْنَ (إِنِ ارْتَبْتُمْ) فلا تدرون لكبَر ارتفع حيضُهنّ أو لعارض(فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ) فهذه مدّة المرتاب بها، وقُدِّر ذلك بما دون خمسين سنة، وهو مذهب أهل البيت (عليهم السلام). جوامع الجامع٢/٧٠٦. وانظر: تفسير نور الثقلين:٥/٣٠٩.

وأمّا حدّ اليأس فذهبت الإمامية إلى أنّ حدّه في القرشية ستون وفي غيرها خمسون وقد استندوا في ذلك إلى روايات وردت عن أهل البيت (عليهم السلام).

قوله:(وَ اللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ) المراد المطلقة المدخول بها إذا كانت في سنّ مَن تحيض ولكن لا تحيض، فعدّتهنّ ثلاثة أشهر أيضاً وتقدير الآية: واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم، في وجه عدم تحيّضها واللائي لم يحضن، وهن في سنّ مَن تتحيّض فكلتاهما تعتدّان ثلاثة أشهر.

قوله:(وَ أُولاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ): أي أنّ أُولات الأحمال خارجات عن الاعتداد بالأقراء أو بثلاثة أشهر، فالضابطة فيهن يتربّصن حتى يضعن حملهنّ.

وعلى هذا فالآية تعرضت لذكر عدّة من النساء:

١. المطلّقة المدخول بها وهي تحيض، فعدّتها ثلاثة أقراء، لقوله سبحانه:(يَتَرَبَّصْنَ بأنفُسهنّ ثَلاثَةَ قُرُوء).

٢. المرأة المسترابة التي لم تحض ولم يُعلم سبب انقطاع الحيض فتعتدّ ثلاثة أشهر.

٣. والتي لم تحضْ وهي في سنّ من تحيض، تعتدّ ثلاثة أشهر.

٤. المطلّقة الحامل، عدتها أن تضع حملها.

ولم تتطرق الآية إلى عدّة اليائسة إيجاباً أو سلباً، ولا إلى عدّة الزوجة الصغيرة إذا طلّقها قبل الدخول.

قوله تعالى: (وَ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا).

هذه الفقرة من الآية نظير ما تقدّم في الآيات الأُولى، أعني قوله:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)، وقوله تعالى:

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ).

فقوله هذا في هذه الفقرة تأكيد لما مرّ في الفقرة الأُولى، أعني:(وَ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا).

***

٥. (ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا):

هذه الآية تتكفّل ببيان أُمور ثلاثة:

١. إنّ ما بيّنه في الآيات المتقدّمة حكم الله أنزله إلى الناس ليأخذوا به ويطبّقوه في حياتهم، وليس هو من تشريع البشر أو من صنع النبي، بل هو أمر الله الذي يجب أن يطاع، كما قال:(ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ).

٢. من آثار التقوى تكفير السيئات، والمراد بالتكفير غفرانها، كما يقول:(وَ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ)، والفقرة تدلّ على أنّ اجتناب بعض السيئات يكفر السيئات الأُخرى. ويوضح المراد قوله سبحانه:(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا) النساء:٣١، وعلى هذا فاجتناب المعاصي الكبيرة يُعد كالتوبة من المعاصي الصغيرة، وهذا من كرائم رحمته.

٣. إنّ من آثار التقوى ـ أيضاً ـ مضاعفة الأجر كما يقول:(وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)، فهل أنّ مضاعفة الأجر وزيادته لأجل اجتناب الكبائر، أو يعمّ امتثال الأوامر؟ ومقتضى الإطلاق هو الثاني، وعلى هذا فالله سبحانه ذكر للتقوى في هذه الآيات أُموراً وآثاراً:

١. (وَ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا).

٢. (وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ)

٣. (وَ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا).

٤. (وَ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ).

٥. (وَ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)

وكم للتقوى من آثار مذكورة في سائر الآيات، وليست التقوى أمراً عدمياً بل هي أمر وجودي بمعنى اتخاذها جُنّة وحماية لئلاّ تدبّ إلى نفسه الوساوس الشيطانية التي تجرّه إلى معصية الله تعالى.

٦ و ٧ . (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَ لاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَ إِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوف وَ إِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى * لِيُنْفِقْ ذُو سَعَة مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْر يُسْرًا):

ذكر الله سبحانه في هاتين الآيتين أحكاماً شرعية للمطلقات، وكلّ ذلك دليل على اهتمام الإسلام بالمرأة وبالأخصّ إذا طُلقت حيث إنّها تفتقد بالطلاق سندها وما تعتمد عليه في حياتها، ولذلك كُلّف الزوج في مورد المطلّقة بالأحكام التالية:

١. إسكان المطلّقة في بيوت الأزواج ممّا يملكون أو يقدرون عليه كما قال سبحانه:(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ) وقد مرَّ في صدر السورة قوله سبحانه:(لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ)، وعلى هذا فسكنى المعتدّة الرجعية على الزوج حسب استطاعته وحسب ما يجده ويملكه.

٢. تحريم الإضرار بهنّ بالتضييق عليهنّ في النفقة والمسكن لغاية إلجائهنّ إلى ترك البيت والخروج منه، كما يقول: (وَ لاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ) وقوله: (لِتُضَيِّقُوا)قيد جرى على مورد الغالب، فإنّ الإضرار بالمطلّقات حرام وإن لم يكن لقصد التضييق، وبهذا يعلم أنّ اللام في قوله: (لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ)بمعنى القصد.

٣. أنّ المطلّقات الحاملات يُنفَق عليهنّ حتى يخرجن عن العدّة، وقد مرّ أنّهن لا يخرجن من العدّة إلاّ بوضع حملهن. كما قال: (وَ إِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْل فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ)إنّ الإنفاق على المعتدّة أمر واجب، سواء أكانت حاملاً أو حائلاً، وعلى هذا فيكون الأمر بالإنفاق على الحاملات من باب التأكيد.

٤. إذا وضعت الحامل من المطلقات حملها، تخرج من العدّة، وتصير أجنبية ويسقط حقّها، غير أنّ للولد حقّاً على الأب والأُم، فعلى الأُمّ أن تقوم بإرضاعه وعلى الأب أن يقوم بدفع أُجرة الرضاع يُعطيها للأُم، كما قال سبحانه:(فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ). ولعلّ قوله:(لَكُم)دليل على أنّ الإنفاق على الأُمّ في حال الرضاع من واجبات الأب.

٥. التشاور في أمر إرضاع الأُمّ ولدها وما يبذله الأب من الأُجرة، ولعلّ المراد التساهل والتسامح في ذلك رحمة بالطفل ورغبة في مصلحته، فإنّه أمانة الله عند الوالدين، وعلى هذا فالهدف من التشاور هو المذاكرة في مصالح الطفل والوالدين معاً.

٦. لو اختلفوا في الأجر فيجب على الوالد أن يبحث عن مرضعة أُخرى غير الأُمّ، كما يقول:(وَ إِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخرى)، والسين في قوله:(فسترضِعُ) للتأكيد، والجملة خبرية بمعنى الإنشاء أي: فلترضعه امرأة أُخرى، حماية للطفل.

٧. قد مرّ وجوب الإنفاق على المعتدّات والمرضعات ولم يحدد المقدار، والآية التالية تتكفّل ببيان المقدار على النحو الكلّي وهو أنّ مقداره تابع للقدرة فلا يمكن تحديده بالنّقْد أو الكيل، فكلّ ينفق حسب قدرته، فالغنيّ ينفق حسب سعته، والفقير ومن قُدر عليه رزقه ينفق حسب ما آتاه الله تعالى، كما يقول:(لِيُنْفِقْ ذُو سَعَة مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ): أي بقدر ما أعطاه الله من الطاقة، (لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا)والآية دليل على أنّه سبحانه لا يكلّف الإنسان إلاّ حسب طاقته وقدرته.

٨ . أنّ الأمر لا يستمر على حالة واحدة، فبعد العسر يأتي اليسر، وعندئذ يتبدّل تكليف من قُدر عليه رزقه إذا حصل له اليُسر كما قال سبحانه: (سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْر يُسْرًا) فلا تدوم حالة واحدة، وكم من ضيق أعقبته فسحة وكم من شدّة أعقبها رخاء، وقد قال سبحانه:(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) الشّرح:٥ـ٦..

وقد ورد بعض ما ورد هنا في سورة البقرة، قال سبحانه:(لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَ لاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَ عَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاض مِنْهُمَا وَ تَشَاوُر فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ

بِالْمَعْرُوفِ وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ). البقرة: ٢٣٣ .

الآيات ٨ ـ ١٠ (وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَة عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا.... قَدْ أَنْزَلَ اللّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا).

الآيات: الثامنة إلى العاشرة

(وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَة عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَ رُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَ عَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا *فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا).

المفردات

كأيّن: اسم لعدد كثير مبهم يفسّره ما يميّزه بعده وهو بمعنى كم الخبرية، كقوله:(وَ كَأَيِّنْ مِنْ نَبِيّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ). آل عمران: ١٤٦.

عتت: من العتو، قال الراغب: العتوّ: النبوّ عن الطاعة، يقال: عتا، يعتو، عتوّاً، وعتيّاً. المفردات للراغب: ٣٢١، مادة «عتا» .

نُكراً: النكر: الأمر الفظيع، وقال الراغب: الأمر الصعب الذي لا يُعرف. المفردات للراغب: ٥٠٥، مادة «نكر».

الوبال: عاقبة الأمر.

التفسير

٨ ـ ١٠ . (وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَة عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَ رُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَ عَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا *فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا):

قوله: (وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَة عَتَتْ). فقوله:(وَ كَأَيِّنْ) مبتدأ خبره (عَتَتْ)، وأمّا القرية فتارة تطلق ويراد منها المجتمع كما في قوله سبحانه:(فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا) يونس:٩٨، وأُخرى يراد منها مسكن المجتمع ومحلّهم كما في قوله: (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَة وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) البقرة:٢٥٩..

وعلى هذا فلا نحتاج إلى تقدير (أهل) في مورد الآية، لما عرفت من أنّ القرية تطلق على نفس المجتمع، وكأنّه سبحانه يقول:«وكم من مجتمع إنساني عتا عن أمر ربه ورسله».

ثمّ إنّه سبحانه عاقب هذا المجتمع العاتي بالأُمور التالية:

١. (فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا)، فما هو المراد من المحاسبة الشديدة؟

ولعلّ المراد عذاب الاستئصال وعندئذ تكون الفقرة التالية تفسيراً لهذه الفقرة.

٢. (وَ عَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا)أي عذاباً فظيعاً، والظاهر أنّ المراد العذاب الدنيوي لا الأُخروي، فقد عذبوا بالجوع والقحط والمصاعب والبلايا.

قلنا: أُريد به العذاب الدنيوي لما سيأتي من كلامه سبحانه عن عذابهم في الآخرة.

٣. (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا): أي ذاقوا جزاءهم في الدنيا.

٤. (وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا): أي خسراناً في الدنيا والآخرة، أمّا الدنيا فلما عرفت من الجوع والقحط والبلايا، وأمّا الآخرة، فلما يأتي تالياً.

٥. (أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا): أي عذاب النار، وهذا دليل على أنّ المراد من قوله:(وَ عَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا) هو العذاب الدنيوي.

ثم انّه سبحانه أمر الأُمّة الإسلامية بالتقوى وقال: (فَاتَّقُوا اللّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا): لئلاّ يقعوا فيما وقعت فيه القرية التي عتت عن أمر ربها. ثمّ وصف أصحاب العقول بقوله:(الّذينَ آمنوا) فإنّ الإيمان بالله ورسله الذي تدلّ

عليه آيات الله الكريمة آية رجاحة العقل ولازم ذلك، التقوى أي تحصين النفس بقوة تصونها عن العتوّ عن أمر الله سبحانه. وقد منّ عليهم بأنّه سبحانه أنزل إلى المؤمنين ذكراً فليتقوه لهذه النعمة.

الآية ١١ (رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَات... قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا):

الآية: الحادية عشرة

١١. (رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَات لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا):

أمر الله عزّوجّل في الآية السابقة أُولي الألباب بتحصين النفس بالتقوى، فناسب أن يذكر الآيات التي أنزلها الله سبحانه إليهم ولانتفاعهم بها، وقال: (قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا) حتى يستفيد أُولو الألباب من هذه الآيات التي تذكّر بما ينتفعون به كما تذكّرهم بما يضرّهم.

ولا شكّ أنّ المراد من قوله:(ذِكْراً) هو القرآن الكريم بشهادة قوله سبحانه:(يَا أَيُّهَا الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمجْنُونٌ) الحجر:٦.

ثمّ إنّه سبحانه أتى بعده بقوله :(رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَات)فيقع الكلام في موقع الرسول بالنسبة إلى الذكر، وهنا وجوه:

١. أنّ قوله:(رَسولاً) مفعول لفعل محذوف، أي أرسل رسولاً يتلو عليكم آيات الله.

٢. أنّ (رَسُولاً) بدل اشتمال من قوله: (ذِكْراً) لأنّ بين القرآن والرسول نوع ملابسة. وإن شئت قلت: إنّ الرسول هو الذكر المجسّم وأنّ الناس يتلقّون الذكر عنه.

٣. ما ذكره صاحب الكشّاف وهو أنّ المراد من قوله: (رَسُولاً) هو جبرئيل أُبدل من (ذِكْراً)لأنّه وصف بتلاوة آيات الله فكان إنزاله في معنى إنزال الذكر فصحّ إبداله منه. تفسير الكشاف:٣/٢٤٣.

يلاحظ عليه: أنّ الله سبحانه وصف الرسول بتلاوة الآيات المبيّنات للناس، ومن المعلوم أنّ جبرئيل إنّما يتلو القرآن للنبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) لا للناس.

ثمّ إنّ الغاية من تلاوة الرسول آيات الله تعالى إخراج المؤمنين من الظلمات إلى النور، أي من ظلمات الكفر وفساد الأعمال إلى نور الإيمان والأعمال الصالحة، كما قال سبحانه:(اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) البقرة:٢٥٧ ..

هذا ما يفعله سبحانه في حقّ المؤمنين. ثم إنّه سبحانه يجزيهم في الآخرة، بأحسن الجزاء كما يقول:(وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا)فقوله: (قَدْ أَحْسَنَ اللهُ) بمعنى التعجب والتعظيم لما رزق المؤمن من الثواب.

الآية ١٢ (اللهُ الذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَات .... أَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْء عِلْمًا):

الآية: الثانية عشرة

١٢. (اللهُ الذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَات وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْء عِلْمًا):

ذكر سبحانه في هذه الآية أُموراً عديدة يجب التأمّل فيها:

١. خلق سبع سماوات.

٢. خلق من الأرض مثل السماوات.

٣. تنزُّل الأمر بين السماوات والأرض.

٤. علّل خلق هذه الأُمور لإعلام سعة قدرته وإحاطته بكلّ شيء.

والآية من غرر الآيات حيث ذكرت هذه الأُمور بأوجز العبارات وأقصرها، فلندرس هذه الأُمور.

السماوات السبع وعلم الهيئة

من المسائل التي شغلت بال المفسرين عبر قرون موضوع السماوات السبع ومن الأرض مثلهنّ، فما هو المراد من السماوات السبع؟ وأين هي؟ وأيضاً ما هو المراد من أنّه سبحانه خلق من الأرض مثل السماوات السبع؟

ولدراسة هذا الموضوع والإجابة الصحيحة عن هذه الأسئلة يجب أن ندرس رأي القدماء حول الأفلاك وعلم الهيئة، ثم نتعرض لذكر ما تواجهه هذه الآراء من مشاكل في تفسير آيات القرآن الكريم.

ولنبدأ ببيان ما عليه القدماء الذين كانوا يعتقدون بما يسمّى بالهيئة البطليموسية.

قام بطليموس هو كلود بطليموس(نحو ٩٠ـ ١٦٨م) فلكي وجغرافي يوناني. ولد في مصر ونشأ في الاسكندرية. أشهر مؤلّفاته: «المجسطي» و «جغرافية بطليموس»، وله النظرية البطليموسية في هيئة الافلاك القائلة بأنّ الأرض لا تتحرك وأنّ الفلك يدور حولها. المنجد، قسم الأعلام:٩٦. بتقسيم العالم إلى أربعة كرات وتسعة أفلاك.

أمّا الكرات الأربع فهي:

١. كرة الأرض التي هي مركز العالم.

٢. كرة الماء

٣.كرة الهواء

٤. كرة النار وكلّ كرة محيطة بالأُخرى.

وأمّا الأفلاك التسعة، فهي كالتالي:

١. فلك القمر وهو النيّر الأصغر.

٢. فلك عطارد المسمّى بالكاتب.

٣. فلك الزهرة الملقّب بالسعد الأصغر.

٤. فلك الشمس وهي النيّر الأعظم.

٥. فلك المريخ المسمّى بالأحمر.

٦. فلك المشتري وهو السعد الأكبر.

٧. فلك زحل المسمّى بكيوان.

وهذه الأفلاك السبعة هي السيارات السبع.

٨. فلك الثوابت وهي ماعدا السيارات السبع.

٩. فلك الأفلاك ويسمى الأطلس، وهو خال من أي كوكب كالأطلس الخالي عن النقش، وهو الفلك المحيط بجميع الأجسام لتناهي الأبعاد وليس وراءه شيء لا خلأ ولا ملأ، وكلّ محيط يماس المحاط به لامتناع الخلأ وعدم الفصل، وعلى جملة هذه الأجرام والأجسام من العناصر الأربعة والأفلاك وما فيهما من الكواكب يطلق اسم العالم الجسماني، وعليك ملاحظة الشكل المرفق.

لاحظ : الشرح الجغميني للفاضل الرومي ؛ و شرح الأفلاك للشيخ بهاء الدين العاملي، ص ٢٢.

إنّ تبيين العالم بهذه الصورة التي شغلت بال الفلكيّين عبر قرون لا ينسجم مع ما في القرآن من جهات ثلاث:

١. أنّ القرآن الكريم يذكر أنّ كلّ سماء فوق سماء أُخرى، قال سبحانه:(الذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا) الملك:٣.، ومعنى ذلك أنّ الله خلق سماء فوق سماء أُخرى منفصلة عنها كطبقات البناء، وأمّا الأفلاك في الهيئة البطليموسية كلٌّ محيط بالآخر وملتصق به كطبقات رأس البصل.

٢. أنّه سبحانه يصف السماوات السبع بأنّها في حال التوسّع وقال: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ) الذاريات:٤٧. وهو على طرف التضاد من قولهم: فلا شيء بعد فلك الأطلس لا خلأ ولا ملأ.

٣. جاء في القرآن قوله تعالى:(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)(الصافات:٦.)، ومعنى ذلك أنّ جميع الكواكب في السماء الدنيا أي أقربها، مع أنّهم جعلوا القمر وحده في السماء الدنيا وجعلوا سائر السيارات كلاًّ في سماء دون سماء أُخرى.

٤. أنّ القرآن الكريم يؤكّد على أنّ عدد السماوات هو سبعة مع أنّه من الواضح أنّ بطليموس جعلها تسعة، ولذلك ذهب من يؤمن بصحّة هذه الهيئة إلى أنّ الكرسي والعرش هو الفلك الثامن والتاسع، بلا دليل.

٥. لو قلنا بأنّ المراد من قوله تعالى: (وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ): أي خلق الأرضين السبع، فأين هي من هذا النوع من التفسير إذ ليس هنا إلاّ أرض واحدة؟ ومع هذا التضاد بين البيانين نرى أكثر المنجمين اتّبعوا الهيئة البطليموسية وكتبوا في ذلك رسائل واستخرجوا بها وقت الخسوف والكسوف وأوائل الشهور.

لكن صحّة النتيجة لا تكون دليلاً على صحّة الفرضية كما حُقّق في محلّه.

الهيئة الجديدة والقرآن الكريم

انتهت النظرية اليونانية بجهود أربعة من العلماء، وهم: كوبرنيكوس (المتوفّى ١٥٤٣م)، وكيبلر(المتوفّى ١٦٣٠م)، وغاليلو (المتوفّى١٦٤٢م)، ونيوتن(المتوفّى ١٧٢٧م)، وذلك بانبثاق النهضة العلمية الصناعية في أُوربا.

فأنكروا:

أوّلاً: كون الأرض محوراً للعالم الجسماني، بل هي كوكب يدور حول الشمس.

وثانياً: أنّ الكواكب بعامّتها معلّقات في الفضاء وليس لنا شيء يسمّى بالفلك حتى تكون الكواكب مثبّتات في ثخنها، بل الجميع معلّقات في الفضاء، وأنّ فواصل بعض الكواكب بالنسبة إلينا على حدّ أنّه قد يصل نوره إلينا بعد مليون سنة أو أكثر.

وأمّا السيارات التي يرصدها أهل النجوم فكلّها معلّقات في السماء بالشكل التالي:

١. عطارد ـ يفقد القمر.

٢. الزهرة ـ يفقد القمر.

٣. الأرض ـ له قمر واحد.

٤. المريخ ـ له قمران.

٥. المشتري ـ له اثنا عشر قمراً.

٦. زحل ـ له عشرة أقمار.

٧. أُورانوس ـ له خمسة أقمار.

٨. نبتون ـ له قمران.

٩. بلوتون ـ وضعه مبهم.

فالسيارات السبع الأُولى تشاهد بالعين المجردة، وأمّا الأخيران ـ أعني: نبتون وبلوتون ـ فإنّما تشاهد بالعين المسلحة.

والكواكب تنقسم إلى سيارة وثابتة. والمراد بالأُولى ما يتغيّر وضعه من حيث القرب والبعد بالنسبة إلى سائر الكواكب، وأمّا الثوابت فهي في عين حركتها، نسبتها مع غيرها على حدّ سواء.

هذه هي خلاصة ما توصل إليه علماء النهضة الأخيرة، وهي لا تنطبق أيضاً مع ما عليه ظاهر الآيات تماماً وإن كانت توافقها في قسم منهم.

أمّا الثانية ـ أعني: الموافقة ـ فيمكن أن يقال من وجهين:

الأوّل: أنّ الكواكب في هذه النظرية كلّها معلّقات في الفضاء وليست مثبتة في ثخن جسم باسم الفلك، والقرآن الكريم يؤيّد ذلك، قال سبحانه: (اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) الرعد:٢.، ففي قوله سبحانه:(تَرَوْنَهَا)احتمالان:

١. أن تكون صفة (لعمد) والضمير المتصل راجع إلى عمد ويكون المعنى:«رفع السّماوات بغير عمد ترونها»، فالمنفي هو رؤية العمد لا وجودها.

٢. أن تكون (تَرَوْنَهَا) جملة مستقلة والضمير يرجع إلى السماوات، ويكون المعنى أنّه سبحانه (رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ)، وأنتم ترونها بهذا الشكل.

وعلى التفسير الأوّل، العمد موجودة لكن ليست مرئية، وعلى الثانية تفقد العمدية.

لكن المروي عن الإمام علي بن موسى الرضا(عليه السلام) هو الوجه الأوّل، روى الحسين بن خالد عنه(عليه السلام)أنّه قال: «أليس الله يقول: (بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)؟» فقلت: بلى، قال(عليه السلام): «ثمّ عمد لكن لا ترونها». البرهان في تفسير القرآن:٢٧٨/٣.

ويؤيّد تلك النظرية ما نقل عن أمير المؤمنين(عليه السلام)، قال: «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مربوطة كلّ مدينة إلى عمود من نور». سفينة البحار:٥٧٤/٢، مادة «نجم».

فمن هذا الجانب نرى نوع اتّفاق بين الهيئة الجديدة وما عليه الذكر الحكيم.

الثاني: أنّ القرآن الكريم يصف عامّة الكواكب زينة للسماء الدنيا، وعلى هذا فكلّ ما يشاهد الإنسان من الكواكب بالعين المجردة أو المسلحة كلّها راجع إلى السماء الدنيا، وأمّا السماوات الست فلا يعلم مكانها ولا خصوصياتها، وهذا أشبه بمكتشفات الهيئة الجديدة من أنّ عامّة الكواكب معلّقات في الفضاء، وأمّا بعدها فلم يطّلع عليه إنسان، وأنّ هذا الفضاء هل هو متناه أو لا؟

وأمّا الأوّل ـ أعني: الاختلاف ـ فهو الاختلاف في مسألة الأرضين السبع، إذ ليس لها في الهيئة الجديدة أي مكان.

هذا كلّه على القول بأنّ المراد من المماثلة هو المماثلة في العدد، وأمّا على القول بأنّ وجه المماثلة شيء آخر فلا تضادّ بين النظريتين، وإليك توضيحه:

اختلفت أقوال المفسّرين في المراد من المماثلة إلى أقوال:

١. المراد المماثلة في العدد، فالله سبحانه خلق سبع سماوات وسبع أرضين، فيكون المراد خلق من الأرض سبعاً كما خلق من السماء سبعاً، فالسبع هنا من نوع الأرض التي نحن عليها وهي إحداها، وأمّا الستة الباقية فهي السيارات الست التي تشبه الأرض، وهي: عطارد، المريخ، الزهرة، زحل، المشتري ويضاف إليها القمر.

إنّ الذي يضعّف هذا الرأي هو إفراد الأرض على خلاف السماء، فأتى في الثانية بالجمع وقال: (سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) وبالأرض على وجه الإفراد وقال: (وَمِنَ الأَرضِ مِثْلَهُن) فيجب التوصّل إلى السبع في الأرض الواحدة، ولذلك ذهبوا إلى قول آخر.

٢. المراد: المماثلة في وجود طبقات بعضها فوق بعض، وهذا يقرب من قول علماء الجولوجيا من وجود طبقات أرضية لكنّها لا تصل

إلى سبع، وهذا هو المراد من قوله: (وَمِنَ الأَرضِ مِثلَهُن).

٣. أنّ المعنيين الأوّليّين مبنيّان على أنّ وجه المماثلة هو العدد، ويمكن أن يكون وجه المماثلة راجعاً إلى الخلق العظيم، أي (وَمِنَ الأَرضِ مِثلَهُن)في عظمة الخلقة وإتقان الصنع.

٤. كون الملاك في المماثلة هو العدد، لكن المراد من السبع في الأرض، سبع قطع واسعة من سطح الأرض تفصل بينها البحار نسمّيها القارات، وهي قارات طبيعية يتعذّر وصول سكان بعضها إلى البعض الآخر في الأزمان التي لم يكن فيها تنقّل بحري، وفيما بعدها ممّا كان ركوب البحر فيها مهولاً، وهي: آسيا، وآفريقيا، وأُوربا، وأمريكا الشمالية، وأمريكا الجنوبية، وجرولندة (القطب الشمالي) في الشمال، والقارة القطبية الجنوبية. التحرير والتنوير:٢٨/٣٠٦.

هذه هي الآراء التي ذكرها المفسّرون ونحن نحتمل أنّ حقيقة الآية ستنكشف في المستقبل القريب. روى السيوطي عن ابن عباس أنّه سُئل عن قوله تعالى: (سَبعَ سماوات وَمِنَ الأَرضِ مِثلهُن) فقال: «لو حدثتكم عن تفسيرها لكفرتم بتكذيبكم بها». الدر المنثور: ٦ / ٢٣٨.

وهذا يدلّ على أنّ مضمون الآية محفوف بالإبهام.

قوله:(يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ)أي : أنّ أمره سبحانه يتنزّل بين السماء والأرض، فلو أُريد من «الأمر» التدبير التكويني فالفقرة تدلّ على التوحيد في التدبير وأنّه لا مدبر إلاّ هو، وإن أُريد التدبير التشريعي فملك الوحي ينزل به من السماء إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو بالأرض.

والظاهر أنّ المراد أعم من التكوين والتشريع.

ثمّ إنّ خلق السماوات السبع ومن الأرض مثلهنّ وتنزيل الأمر بينهنّ من مظاهر قدرة الله سبحانه كما يقول:(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ)فخلق السماء والأرض بهذه العظمة أدلّ دليل على قدرته الباهرة، كما أنّ تدبيره سبحانه تكويناً وتشريعاً يدلّ على إحاطته العلمية بكلّ شيء كما يقول:(وَ أَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْء عِلْمًا)، فالمتفكّر في خلق السماء والأرض لا يرتاب في الأمرين التاليين:

١. سعة قدرته.

٢. إحاطة علمه.

فعلى الإنسان سواء أكان مؤمناً أم عاتياً، اتّقاء غضبه تعالى ومخالفة أمره.

***

تمّ تفسير سورة الطلاق

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين

٦٦- سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ

اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢)
خصائص سورة التحريم
تسمية السورة
تُسمّى السورة بسورة «التحريم» في كتب التفسير. وربّما تُسمّى بسورة «النبيّ» والتسمية ليست توقيفية.
عدد آياتها ومحلّ نزولها
عدد آيات السورة اثنتا عشرة آية بالإجماع. وهي مدنية قطعاً، لأنّ مضمونها وصياغتها يكشفان عن ذلك.
أغراض السورة
تهدف السورة إلى النهي عن تحريم ما أحلّ الله بالحلف واليمين لأجل مرضاة بعض الأزواج، والدعوة إلى تربية الزوجات، وتخويفهنّ، كما تحثّ المؤمنين على وقاية أنفسهم وأهليهم من النار. ثمّ تذكر السورة امرأتين هما في نهاية الضلال والانحراف مع أنّهما كانتا تعيشان في بيت النبوة، كما تذكر امرأتين أُخريين هما في قمة الإيمان والإخلاص مع أنّ إحداهما كانت تعيش في أجواء الكفر والظلم والفساد.
شأن النزول
يظهر من التدبّر في الآيات الأُولى من السورة أنّ النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)حرّم على نفسه أمراً حلالاً لطلب مرضاة أزواجه، ثمّ إنّه أسرّ في هذا الموضوع إلى بعض أزواجه وأمرها بالكتمان، ولكنّها لم تكتم، فأنبأه الله سبحانه بأنّها قد أفشت سرّه، فعاد النبي فأخبرها ببعض ما أفشت، وتغافل عن بعضه. ومع أنّ الوحي تعرض إلى الموضوع لكن فيه إبهامات نشير إليها: أوّلاً: لم يذكر ما هو الشيء الذي حرّمه النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وقد أحلّه الله له، ولذلك اختلفت الروايات في تعيينه. قيل: إنّه حرّم على نفسه شرب العسل عند بعض أزواجه، أعني: زينب بنت جحش، كما ورد في صحيح البخاري. وقيل: إنّ رسول الله باشر مارية (أُمّ ولده إبراهيم) في بيت بعض نسائه فغضبت، فحرّم أُمّ ولده طلباً لمرضاة إحدى أزواجه . روى زيد بن أسلم عن عائشة: أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أصاب أُمّ إبراهيم في بيت بعض نسائه، قال: فقالت: أي رسول الله، في بيتي وعلى فراشي؛ فجعلها عليه حراماً؛ فقالت: يا رسول الله كيف تحرّم عليك الحلال؟ فحلف لها بالله لا يصيبها، فأنزل الله

عزّ وجلّ:(يَا أَيُّهَا النَّبِي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ) قال زيد:فقوله: «أنت عليّ حرام» لغو. جامع البيان للطبري :٢١٥/٨.

ولعلّ الأوّل اوفق بسيرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وأدبه.

ثانياً: لم يذكر اسم المرأتين اللّتين كان لهما الدور في هذه القصة حيث سمعت إحداهما سرّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) والأُخرى سمعته منها.

ثالثاً: ما هو بعض السرّ الذي عرّفه النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لمن أسرّها، وما هو بعضه الذي أعرض عن بيانه؟

رابعاً: إنّ ظاهر قوله سبحانه أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) حرّم على نفسه ذلك الشيء طلباً لمرضاة أزواجه، ولكن يظهر أيضاً أنّه كان وراء ذلك أمر آخر وهو أنّ شدّة إيذاء بعض أزواجه له(صلى الله عليه وآله وسلم)بلغ إلى حدٍّ حرّم على نفسه شيئاً حلالاً، ولم يكن السبب طلب الرضا فقط بل كان وراءه تأثره منها، ويدلّ على ذلك أمران:

١. موقف القرآن الكريم منهما حيث يخاطبهما بقوله: (فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) فإنّ ميل قلوبهما من الحقّ إلى الباطل آية أنّ الأمر كان فوق طلب الرضا، وأنّ حياة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)معهما، كانت تحيطها المتاعب والمنغّصات.

٢. ما أخرجه البخاري عن عائشة، قالت: «ما غرتُ على امرأة لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)كما غرت على خديجة، لكثرة ذكر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)إيّاها وثنائه عليها، وقد أُوحيَ إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، أن يبشّرها ببيت لها في الجنة من قصب». صحيح البخاري:٤٠٤/٣، كتاب النكاح(٦٧)، باب غَيرة النساء(١٠٩)، برقم ٥٢٢٩، دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ.

وقد روى أيضاً عنها أنّها قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أُخت خديجة على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)... إلى أنْ قالت: فغرتُ، فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشّدقين، هلكتْ في الدهر، قد أبدلك الله خيراً منها. صحيح البخاري:٤٩٣/٢، كتاب مناقب الأنصار(٦٣)، باب تزويج النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)خديجة(٢٠)، برقم ٣٨٢١.

وفي مسند أحمد بعد هذا: فتغيّر وجه رسول الله تغيّراً ما كنت أراه إلاّ عند نزول الوحي أو عند المخيلة حتّى ينزل، أرحمة هو أم عذاب. مسند أحمد:١٥٠/٦ و١٥٤، عن موسى بن طلحة.

خامساً: أنّه سبحانه يهدّد المرأتين ويخيّرهما بين أمرين:

١. التوبة والإنابة.

٢. الحرب من الله وأنّ الله سبحانه سيكون ظهيراً للنبي ومعه الملائكة وصالح المؤمنين.

وهذا يدلّ على أنّ القضية كانت معصية فاستحقتا التهديد بهذا الشكل.

ولو كانت القضية أمراً عادياً لما كان لهذا القدر من التهديد وجه سائغ.

سادساً: أنّ القرآن أجمل ولم يبيّن، هل تابت المرأتان أو لم يتوبا، وبقيتا على ما كانتا عليه من إيذائه؟

سابعاً: أنّ بعض المحدّثين يصف عائشة بأنّها صدّيقة، فهل يصحّ ذلك بعد كونها ممّن صغا قلبها وشاركت في إيذاء النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد قال سبحانه في مَن آذى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم):(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ) الأحزاب:٥٧.؟!

كلّ هذه الأُمور ممّا أجمله القرآن الكريم، ولكن تناولتها، بشيء من التفصيل، كتب الرواية والتفسير فلنذكر منها ما يناسب المقام:

روى البخاري عن عائشة، قالت: كان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش، ويمكث عندها،

فواطيتُ أنا وحفصة عن أيّتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير؟ إنّي أجدُ منك ريح مغافير صمغ حلو له رائحة كريهة وكان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) يكره أن تكون له ريح غير طيبة.، قال:«لا، ولكنّي كنت أشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش، فلن أعود له، وقد حلفتُ لا تخبري بذلك أحداً». صحيح البخاري:٣٠٨/٣، كتاب التفسير(٦٥)، باب(١) من سورة التحريم، برقم ٤٩١٢.

وروى أيضاً عن عبيد بن حنين: أنّه سمع ابن عباس يحدّث أنّه قال: مكثت سنة أُريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما استطيع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجّاً فخرجت معه فلمّا رجعت وكنّا ببعض الطريق، عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت معه، فقلت له: يا أمير المؤمنين، مَن اللّتان تظاهرتا على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) من أزواجه، فقال: تلك حفصة وعائشة. صحيح البخاري:١٢٥٢، برقم ٤٩١٣.

ويظهر من بعض المفسّرين أنّ التي دخل عليها النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وحرّم على نفسه العسل، هي حفصة فقط فأخبرت عائشة بذلك مع أنّ النبي أمرها بالكتمان، ولعلّ الغاية من كلامها هو أن تقلّل ميل النبيّ إلى التي شرب العسل في بيتها، أو تقلّل مكثه عندها، والله العالم.

وقد نُقلت وجوه أُخرى بسبب النزول، والمشهور ما ذكرناه، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى مجمع البيان.(مجمع البيان:٥٨/١٠ـ ٦٠.)

الآيات ١ ـ ٥ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ.... عَابِدَات سَائِحَات ثَيِّبَات وَ أَبْكَارًا).

الآيات: الخمس الأُولى

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَ اللهُ مَوْلاَكُمْ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْض فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَ إِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَات مُؤْمِنَات قَانِتَات تَائِبَات عَابِدَات سَائِحَات ثَيِّبَات وَ أَبْكَارًا).

المفردات

تحرّم: مشتق من الحرام القبيح الممنوع منه بالنهي ونقيضه الحلال، والتحريم إيجاب المنع.

تبتغي: من الابتغاء وهو الطلب، ومنه البغي وهو طلب الاستعلاء بغير الحق.

تحلّة: التحلّة والتحليل بمعنى واحد وكلاهما مصدران لقولهم: حللت له كذا. وتحلّة اليمين فعل ما يسقط التبعة.

الأيمان: واحدة اليمين وهو الحِلف، وكأنّه مأخوذ من القوّة لأنّه يقوّي كلامه بالحلف.

أسرّ: من الإسرار وهو إلقاء المعنى إلى الغير على وجه الإخفاء عن غيره.

الصغو: الميل إلى الباطل والخروج عن الاستقامة.

التظاهر: التعاون.

الظهير: المعين.

قانتات: قال الراغب: القنوت لزوم الطاعة مع الخضوع. المفردات للراغب: ٤١٣، مادة «قنت». ويشهد له وصف مريم بالقنوت في آخر السورة كما يأتي.

سائحات: السائح هو الماء الجاري ويطلق على من يضرب في الأرض ويقطع البلاد، تشبيهاً له بالماء الجاري. وفُسّر في المقام بالصائمات، لأنّ الصائم يستمرّ في الإمساك عن الطعام كما يستمرّ السائح في الأرض.

ثيبات: الراجعات من عند الأزواج بعد الافتضاض. أبكاراً:عذارى.
التفسير
١. (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ):

خاطب الله سبحانه رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) تشريفاً له وتعليماً لعباده كيف يخاطبونه في أثناء محاوراتهم.

ثمّ خاطبه بقوله:(لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ) من الملاذّ.

وعلى ما ذكرنا فقد حرّم على نفسه العسل مطلقاً أو خصوص العسل الذي كان يشربه في بيت زينب بنت جحش.

وقوله:(تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ) أي تطلب به رضاهنّ مع أنهنّ أولى أن يطلبن رضاك.

وقوله تعالى:(وَ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وكأنّه ذكره استئناساً للنبيّ من وحشة الملام السابق، نظير قوله سبحانه: (عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) التوبة:٤٣..

ثمّ لا شكّ أنّه لا يجوز تحريم ما أحلّ الله، إذ هو يخالف قوله سبحانه:(وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَ رَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا). الأحزاب:٣٦.

فعلى هذا فكيف حرّم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)ما أحل الله؟

والجواب: أنّ التحريم المحرّم هو التشريع على خلاف ما أنزل الله بأن يُحرِّم ما أحلّ الله على الوجه الكلّي، وأمّا تحريم شيء على النفس بالحلف لجهة من المصالح فهذا أمر غير ممنوع ولا يشترط في المحلوف عليه أي رجحان، كما إذا حلف على عدم لبس ثوب خاص، أو أكل طعام معيّن لغاية من الغايات. وعلى هذا فليس المورد داخلاً في قوله سبحانه:(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ). الأعراف:٣٢.

فإنّ المراد تشريع حرمة الزينة على جميع العباد حكماً أوّلياً بأن يقول:

الزينة حرام في حدّ ذاتها، والعسل حرام في حدّ ذاته، فلا صلة له بانعقاد نيّة إنسان على ترك حلال لغاية من الغايات وتقويته بالحلف حتى يضعف عن نقض العهد.

والعجب من صاحب الكشّاف أنّه يقول في هذا المقام: وكان هذا زلّة منه؛ لأنّه ليس لأحد أن يحرّم ما أحلّ الله، لأنّ الله عزّ وجلّ إنّما أحلّ ما أحلّ لحكمة ومصلحة عرفها في إحلاله، فإذا حرم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة. تفسير الكشّاف:٣/٢٤٤.

أقول: ما ذكره ـ عفا الله عنه ـ زلة منه واضحة، إذ ثمّة فرق بين التشريع، وهو نشر ما لم يصدر من الله سبحانه إليه كذباً ودعوة الناس إلى العمل عليه، وبين التزام شخص بترك مباح عملاً، طلباً لمرضاة بعض أزواجه، ولم يدلّ أي دليل على حرمة ذلك الالتزام والحلف عليه، غاية الأمر إذا رأى مصلحة في النكث ينكث مع الكفّارة.

ثمّ إنّه يتوجه هنا سؤال: إذا لم يكن هذا النوع من التحريم أمراً مرغوباً عنه، فلماذا عاتب الله سبحانه الرسول بقوله:(لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ)؟ والجواب واضح أنّ العتاب لأجل أنّه حرّم الحلال على نفسه طلباً لرضاهنّ، مع أنّ الأولى هو العكس، أي يجب عليهنّ أن يطلبن مرضاتك لا أن تطلب أنت مرضاتهنّ، وعلى هذا فالعتاب في الحقيقة متوجّه إليهنّ، ويؤيّد ذلك ما سيوافيك من العتاب الأكيد للمرأتين اللّتين سبّبتا تحريم النبي على نفسه شرب العسل ضد إحدى زوجاته.

والآية في الحقيقة لا يمتنع أن تكون قد أُخرجت مخرج الإشفاق عليه والتوجّع له من حيث تحمّل المشقّة في إرضاء أزواجه انظر: تنزيه الأنبياء والأئمّة للشريف المرتضى:١٩٨.، وأنّه لماذا يضيّق على نفسه أمراً طلباً لمرضاتهنّ، وليس فيها أي لوم حقيقي أو عتاب واقعي

عليه.
٢ . (قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَ اللهُ مَوْلاَكُمْ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ):
بيّن سبحانه ما تحلّ به عقدة أيمانكم من الكفّارة، وأنّ للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)سعة في التحلّل من التزام تحريمه على نفسه، حيث شرّع الله سبحانه كفّارة اليمين لغاية التحلّل، قال سبحانه:(لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَ لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَة فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّام ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ). المائدة:٨٩ . و قوله تعالى:(وَ اللهُ مَوْلاَكُمْ) تعليل لما قبله، أي: (قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ)لأنّه المتولّي للمؤمنين، فيقدّم حكمه على الالتزام بالترك. وقوله تعالى:(وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)أي عليم بما يصلحكم وحكيم فيما يشرّع. قال الراغب: وكلّ موضع ورد (فَرَض الله عليه) ففي الإيجاب الذي أدخله الله فيه، وما ورد من (فَرَض الله له) فهو في أن لا يحظُرَه على نفسه. المفردات للراغب:٣٧٦، مادة «فرض». وحاصل كلام الراغب: أنّه إذا تعدّى فعل (فرض) بـ«على» يكون واجباً على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأمّا إذا تعدّى بحرف (اللام) فالمراد أنّ النبي مخيّر بين الفعل والترك، لغرض أن لا يحظُرَه على نفسه.
٣. (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْض فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ):
إنّ هذه الآية تشتمل على جمل وفيها ضمائر يجب تعيين مراجعها، ثم ندخل في تفسير الآية. ١. (إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ): المراد حفصة. ٢. (فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ): ضمير الفاعل يعود إلى بعض الأزواج(أي حفصة)، والضمير المجرور إلى الحديث. ٣. (وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ): الضمير المنصوب يرجع إلى النبيّ، والضمير المجرور في (عليه) يرجع إلى الإنباء المستفاد من قوله:(فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ). ٤. (عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْض): الضمير في(عرّف) و (أعرض)يعود إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، والضمير في (بعضه) يرجع إلى الحديث، والمعنى: أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم)عرّف بعض الحديث الذي أذاعته حفصة، وأعرض عن بعضه. ٥. (فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ): الضمير المتّصل يرجع إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وضمير المفعول يرجع إلى بعض الأزواج، والضمير المجرور يرجع إلى الحديث. ٦. (قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا): الضمير في (قالت) يرجع إلى بعض الأزواج، ولفظة هذا إشارة إلى إفشاء الحديث وإنبائه. إذا علمت هذا فلنرجع إلى تفسير الآية. ظاهر الآية أنّ النبي أسرّ إلى بعض أزواجه(حفصة) وحدّثها بسرّ ونهاها عن إفشائه. ويدلّ على ذلك لفظة (أسرّ) حيث تطلق في مورد يوصى فيه بعدم الإفشاء، وهذا هو المتبادر من قولهم: هذا سرّ. ويشهد له قوله سبحانه:(فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ). يوسف:٧٧. ٢ . الصف:٩.ولكن تلك الزوجة أفشت سرّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وأخبرت غيرها، كما يقول: (فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ)أي نبّأت بالخبر، وفيه عتاب على إفشاء سرّه ؛ لأنّ واجب المرأة أن تحفظ سرّ زوجها خصوصاً إذا أمرها بكتمانه وحفظه،

ولكنّه سبحانه أطلع نبيّه على إنباء زوجته به، كما يقول: (وَ أَظْهَرَهُ اللّهُ عَلَيْهِ)، فالإظهار هنا بمعنى الظهور والانتصار، وليس من الظهور ضد الخفاء، نظير قوله: (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ).(كنز العمال: ٢ / ٥٣٩، برقم ٤٦٧٧ .) ولكنّ النبي أخبرها ببعض ما حدّثت به غيرها، وأعرض عن بعض ما ذكرت، كما يقول:(عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْض)وأخذ بمكارم الأخلاق حيث إنّ التغافل من شِيَم الكرام.

أخرج ابن مردويه عن عليّ(عليه السلام) أنّه قال: «ما استقصى كريم قطّ»[٢].

وقال أبو تمّام:

ليس الغبيُّ بسيّد في قومه *** لكنّ سيّد قومه المتغابي[٣]

٣ . ديوان أبي تمّام: ١ / ٢٨ .

(قَالَتْ) حفصة: (مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا)وأخبرك بأنّي أفشيت سرّك (قَالَ)رسول الله: (نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ)بجميع الأُمور و(الْخَبِيرُ)بسرائر الصدور.

والخبير أخصّ من العليم، فإنّ العلم يطلق على مطلق الإدراك وإن لم يحط بدخائل الشيء، بخلاف الخبير فإنّه مشتق من خَبَرَ الشيء إذا أحاط بمعانيه، ومنه يعلم الفرق بين العلم والخُبر. هذا في غير الخالق سبحانه، وأمّا بالنسبة إلى ذاك المورد فلا يشذّ علمه عن الخُبرة.

٤. (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَ إِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) :

كان المخاطب في الآيات السابقة هو النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) ثمّ عُدل عنه إلى خطاب من أذاعت سرّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ومن سمعتها على طريقة الالتفات زيادة في توبيخهما والتنديد بفعلهما، لأنّهما كانتا شريكتين في إذاعة السرّ قال المفسّرون: إنّه عنى حفصة وعائشة، وورد ذلك أيضاً في كتب الحديث، فقد روى مسلم باسناده إلى ابن عباس أنّه سأل عمر بن الخطاب: مَن المرأتان من أزواج النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) اللتان قال الله عزّ وجلّ لهما:(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)؟ قال عمر: حفصة وعائشة. صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء، برقم ٣٥٨٦. وانظر: صحيح البخاري:٣١٠/٣، كتاب التفسير، باب قوله:(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ...)، برقم ٤٩١٥.

ثمّ إنّه سبحانه يشير إلى أنّ عملهما هذا كان ناتجاً عن ميل قلوبهما إلى الإثم، وعدولهما عن الحق إلى الباطل، فقد خرجتا عن أدب المعاشرة، بل عن أدب الإسلام حيث إنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أوصى بالكتمان، وبما أنّهما خالفتا وصيّته، فأمامهما طريقان، وهما مخيّرتان بينهما:

١. التوبة والندامة.

٢. الاستمرار في هذا العمل القبيح كما يقول سبحانه:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) .

وقد أتى بلفظ الجمع في قوله (القلوب) مضافاً إلى التثنية، وهذا أمر رائج. ولعلّ لفظة:(قُلُوبُكُمَا)أسهل تلفّظاً من (قلباكما). ثمّ إنّ التي أسرّ إليها النبيّ حديثه، والتي أفشت إليها حديثه إن اختارتا التوبة فهو، وإلاّ فلتعلما إن أصرّتا على هذا الفعل، أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) مؤيّد من قبل الله سبحانه وغيره، كما يقول:

(فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ

وَ جِبْرِيلُ
وَ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ
وَ الْمَلاَئِكَةُ).

فهل يمكن أن يعارضهم أحد ويتغلّب عليهم؟! فعلى هذا فالمراد من قوله:(فَإِنَّ اللّهَ هُوَ مَوْلاَهُ): أي ناصره.

بقي الكلام في أمرين:

الأوّل: ما هو المراد من صالح المؤمنين؟ هل أُريد به فريق المؤمنين أي المؤمنين الصالحين، أو أُريد به شخص معيّن؟

الظاهر هو الثاني، إذ لو أُريد الأوّل كان عليه إدخال اللام على الصالح واستعماله بصيغة الجمع: الصالحين المؤمنين أو بالعكس مع أنّا نرى أنّه أتى به مفرداً.

وقد ورد في جملة من الأحاديث والآثار، المروية عند السنّة والشيعة، أنّ المراد بصالح المؤمنين: عليّ بن أبي طالب.

أخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس قالت: سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «صالح المؤمنين هو علي بن أبي طالب». الدر المنثور:٨/٢٢٤.

قال الحاكم الحسكاني: والحديث رواه عن أسماء جماعة.(الدر المنثور: ٦ / ٢٤٤ ؛ و روح المعاني: ٢٨ / ١٥٣ ـ ١٥٤.)

وأخرج ابن مردويه، وابن عساكر، عن ابن عباس في قوله: (وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ)، قال: هو عليّ بن أبي طالب. شواهد التنزيل:٢/٣٤٤، برقم ٩٨٥.وكذا ورد عن أبي جعفر الباقر(عليه السلام)، وابن سيرين، والسدّي، ومجاهد. انظر: شواهد التنزيل:٢/٣٤١ـ ٣٥٢، الأرقام:٩٧٧ـ ٩٩٦.

وروى الحاكم الحسكاني بإسناده عن سدير الصيرفي عن أبي جعفر(عليه السلام) قال: «لقد عرّف رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) عليّاً(عليه السلام)أصحابه مرّتين، أمّا مرّة فحيث قال: من كنت مولاه فعليّ مولاه. وأمّا الثانية: فحيث نزلت هذه الآية:(فَإِنَّ اللّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ) الآية. أخذ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)بيد علي(عليه السلام) فقال: أيّها الناس، هذا صالح المؤمنين». شواهد التنزيل:٢/٣٥٢، برقم ٩٩٦.

أضف إلى ذلك: أنّ المحدّث البحراني نقل عن محمد بن العباس أنّه جمع ٥٢ حديثاً يتناول هذا المورد من طريق الشيعة والسنّة، ثم نقل البحراني بعض ما رواه محمد بن عباس. تفسير البرهان: ٥ / ٣٥٣، طبعة مؤسسة اسماعيليان؛ وج ٥ / ٤٢، تحقيق مؤسسة البعثة.

الثاني: أنّه سبحانه ذكر قول الملائكة بقوله بعد ذلك:(وَ الْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) فالظاهر أنّ البعدية بعدية في الذكر لا في الخارج، وقد ذكروا مثل ذلك:(عُتُلّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيم) القلم:١٣..

ثمّ إنّ ذكر تأييد الملائكة للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يقرع القلوب ويهزّ النفوس حيث يذكّر بتأييد الملائكة في يوم بدر على نحو هزموا جيش قريش المتسلح بأعتى الأسلحة، أو بما يفعله واحد من الملائكة عندما يأمره الله بإنزال العذاب بالظالمين، فيخسف بهم الأرض، ويجعل عاليها سافلها كما قال سبحانه:(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا)؟ هود: ٨٢ . فكيف إذا اجتمعوا على نصرة شخص واحد؟!

ثمّ إنّ هنا سؤالاً وهو ما هو الوجه لبيان هؤلاء الأنصار للرسول الأكرم مع أنّه سبحانه يكفي في إهلاك عدوه ومخالفه؟

قلت: الظاهر أنّ الغاية هو العناية بمقام النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وعظمته عند الله سبحانه.

٥.(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَات مُؤْمِنَات قَانِتَات تَائِبَات عَابِدَات سَائِحَات ثَيِّبَات وَأَبْكَارًا):

هذا توبيخ آخر للزوجين المخاطبتين بقوله:(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)، بل هو تهديد لهما ولسائر أزواجه(صلى الله عليه وآله وسلم)حيث يظهر من كثير من الآيات أنّ جلّ نساء النبي كنّ غير عارفات بمقام النبي ومكانته، ويشهد على ذلك قوله

سبحانه:(يَا أَيُّهَا النَّبِي قُلْ لِازْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً) الأحزاب:٢٨، ولذلك يعود سبحانه ثانياً مخاطباً لهن:(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ)وتقدير الآية: عسى إن طلقكنّ هو أن يبدله ربه بأزواج أفضل منكن وأصلح له، ثم ذكر الأوصاف المطلوبة في زوجات النبي(صلى الله عليه وآله وسلم):

١. مسلمات.

٢. مؤمنات.

٣. قانتات.

٤. تائبات.

٥. عابدات.

٦. سائحات.

٧. ثيبات وأبكاراً.

والمرأة الموصوفة بهذه الصفات هي اللائقة أن تكون زوج النبي ومعينه على الحياة، كما كانت زوجته الأُولى خديجة الكبرى حيث تمثّلت فيها هذه الصفات، فكان النبي يدخل عليها وأكتافه مثقلة بالهموم، فإذا رآها وكلّمها يرتاح من كلّ همّ وغمّ دون هؤلاء.

والظاهر أنّ أزواج النبي كن موصوفات ببعض هذه الصفات وفاقدات للبعض الآخر، ولعلّ المفقود عبارة عن القنوت حيث لم يكن جلُّهنّ مواظبات على الطاعة لله ولرسوله.

وأمّا وجه ترك العطف في الصفات الست والإتيان به في السابع والثامن فلأجل أنّ القسم الأوّل قابل للجمع بخلاف القسم الآخر، إذ لا يمكن أن تكون بكراً وفي الوقت نفسه ثيّباً.

وفي «الكشّاف»: فإن قلت: لِمَ أُخليت الصفات كلّها عن العاطف ووسّط بين الثيبات والأبكار؟

قلت: لأنّهما صفتان متنافيتان لا يجتمعن فيهما اجتماعهن في سائر الصفات، فلم يكن بدّ من الواو. تفسير الكشاف:٣/٢٤٧.

ثمّ إنّ من درس الآيات الواردة حول زوجات النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يقف على أنّ موقف القرآن منهن موقف التعنيف والتنديد، وعتابهنّ أكثر من ذكرهنّ بخير، ومع ذلك نرى أنّ طائفة من المسلمين تأخذ شيئاً كثيراً من الفقه والحديث والتفسير عن هاتين المرأتين اللتين آذتا النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ودمغهما القرآن الكريم بالزيغ عن أمر الله ورسوله، وقال: (فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)وكيف لا توصفان بذلك وقد كذبتا على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) حيث لم يكن فيما شرب النبي ريح غير طيبة، ومع ذلك تواطأتا على اتّهام النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّه أكل المغافير، ولم تقتصرا على ذلك حتى قالت إحداهما: إنّي أجد منك ريح المغافير!!

أضف إلى ذلك: أنّ إنساناً لم يرزق سعة في الفكر ولم يتحمّل طول مكث النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في بيت، فيه بعض الضرائر، هل يعقل أن يكون مثل هذا الإنسان أميناً على الحلال والحرام؟! لا والله اللّهمّ إلاّ إذا كان هناك انقلاب في الذات وتبدّل جوهري في الفكر!!

تحريف الكلم عن مواضعه

إنّ الباحث في آيات التحريم يقف على أنّ محور البحث هو سلوكية الزوجتين مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)على نحو عرفت تفصيله، وأمّا آية التخيير الواردة في سورة الأحزاب فلها سبب آخر لا صلة لها بقصة التحريم، وإليك الآيتين:(يَا أَيُّهَا النَّبِي قُلْ لِازْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً * وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ

اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا). الأحزاب:٢٨ـ ٢٩.

توضيح ذلك: أنّ قوله سبحانه:(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَ إِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ) إلى أن قال: (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ) ناظر إلى قصة التحريم، ومحور القصة في هذه الآيات هي اثنتان من زوجات النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لا غير وهما: حفصة وعائشة، حتى أنّ قوله:(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ) خطاب لهاتين المرأتين وصيغة الجمع في طلّقكن نظير الجمع في قوله:(فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) وليست هذه الآيات ناظرة إلى غيرهما، كما هو واضح لمن قرأ الآيات وتعرّف على أسباب النزول.

غير أنّ المهتمين بهاتين المرأتين حاولوا الخلط بين هذه القصة وقصة تخيير النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)أزواجه بين الطلاق والبقاء عنده، فجعل قصة التحريم جزءاً من قصة التخيير الواردة في قوله سبحانه:(يَا أَيُّهَا النَّبِي قُلْ لِإِزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً * وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا). الأحزاب:٢٨ـ ٢٩.

فإنّ سبب نزول هاتين الآيتين أمر آخر لا صلة له بقصة التحريم. وقد ذكر الطبري أنّ هاتين الآيتين نزلتا على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) من أجل أنّ عائشة سألت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) شيئاً من عرَض الدنيا، إمّا زيادة في النفقة، أو غير ذلك، فاعتزل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) نساءه شهراً فيما ذكر، ثم أمره الله أن يخيّرهن بين الصبر عليه، والرضا بما قسم لهنّ، والعمل بطاعة الله، وبين أن يمتّعهنّ ويفارقهنّ إن لم يرضَين بالذي يقسم لهنّ. جامع البيان للطبري:١١/١٨٨.

ومن قرأ ما ورد في تفسير الطبري من الروايات يقف على أنّ سبب نزول الآيتين المتقدّمتين هو مسألة الزيادة في النفقة، ولذلك أمر الله سبحانه نبيّه بأن يخيّرهنّ بين أن يُخلي سبيلهنّ ويسرِّحهنّ، وبين أن يقمن على أنّهن أُمّهات المؤمنين، وليس لقصّة التخيير أي صلة بقصة التحريم.

والظاهر أنّ عمر بن الخطاب، هو الذي حاول توحيد القصّتين حتى لا يتعلّق التنديد ببنته حفصة ورفيقتها عائشة، بل يشمل كافّة أزواج النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، والشاهد على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من جواب عمر بن الخطاب عن سؤال ابن عباس.

قال ابن عباس: ولبثت سنة وأنا أُريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللّتين تظاهرتا على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)فجعلت أهابه ، فنزل يوماً منزلاً فدخل الأراك، فلمّا خرج سألته؟ فقال: عائشة وحفصة، ثم قال: كنّا في الجاهلية لا نعدّ النساء شيئاً، فلمّا جاء الإسلام وذكرهنّ الله رأينا لهنّ بذلك علينا حقّاً من غير أن ندخلهنّ في شيء من أُمورنا، وكان بيني وبين امرأتي كلام فأغلظت لي فقلت لها: وإنّك لهناك؟ قالت: تقول هذا لي وابنتك تؤذي النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، فأتيت حفصة فقلت لها: إنّي أُحذّرك أن تعصي الله ورسوله وتقدّمتُ إليها في أذاه. إلى أن قال: وقد غبت عن رسول الله (حتى جاءني الخبر) أنّ رسول الله طلّق نساءه، فجئت فإذا البكاء من حجرها كلّها، وإذا النبي قد صعد في مشربة له، وعلى باب المشربة وصيف، فأتيته، فقلت: استأذن لي، فدخلت فإذا النبي على حصير قد أثّر في جنبه، وتحت رأسه مرفقة من أدم حشوها ليف... إلى آخر الرواية. صحيح البخاري:٤/٥٣، كتاب اللباس، باب(٣١)، رقم ٥٨٤٣.

وجه الخلط أنّ ابن عباس سأل عن آية التحريم ولكنّ المجيب جرّ البحث إلى آية التخيير مع أنّ لكلٍّ سبباً خاصّاً، فسبب التحريم هو إنذار حفصة وعائشة، وأمّا سبب التخيير فهو طلب زيادة النفقة ولم يكن مختصّاً بهما، ولكنّ المجيب جمع بين القصتين وجعلهما قضية واحدة.

ولعلّ الهدف من خلط القصتين في رواية البخاري هو الدفاع عن حرمة حفصة وعائشة، وعدم اختصاصهما بشيء خاص، بل

كانتا كسائر الزوجات طلباً وتخييراً.

الآيات ٦ ـ ٨ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ.... وَ اغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

الآيات: السادسة إلى الثامنة

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَ اغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

المفردات

قوا: أمر من وقى يقي، بمعنى احفظوا وامنعوا.

وَقودها الناس: الوقود عبارة عن المادة القابلة للاشتعال كالحطب والزيت، وأمّا ما يشتعل بواسطته الوقود فهو القداحة.

الحجارة: جمع حجر على غير قياس، فإنّ قياسه أحجار وأُلحقت به تاء التأنيث.

غلاظ: جميع غليظ ضد الرقيق، ولعلّه كناية عن الخشونة في العمل.

شداد: جمع شديد أي القويّ، والمراد القويّ في عزمه وعمله.

تعتذروا: من الاعتذار: الحجّة التي تبرئ صاحبها عن تبعة ما عمل، وأمّا العَذر فهو قبول العذر، والعاذر هو الذي يقبل العذر، وإلى ما ذكرنا يرمي قول ابن مالك:

مبتدأ زيدٌ وعاذرٌ خبر *** إن قلت زيد عاذرٌ من اعتذر

أي زيد يقبل عذر من اعتذر.

النصوح: النصح تحرّي فعل أو قول فيه صلاح صاحبه، قال سبحانه:(لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ) الأعراف:٧٩. ، وربما يراد به الخلوص كقولهم: نصحت له الودّ أي أخلصته.(المفردات للراغب: ٤٩٤، مادة «نصح».)

والمراد: خالصة لوجه الله، أو خالصة من أي ترديد في الرجوع إلى ما سبق. وقد سُئل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) عن التوبة النصوح؟ فقال:«أن يتوب التائب ولا يرجع في ذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع». مجمع البيان:١٠/٦٧.

يسعى: السعي: المشي السريع وهو دون العدْو.

الخزي: قال الراغب: خَزي الرجل لحقه انكسار إمّا من نفسه وإمّا من غيره... إلى أن قال: والذي يلحقه من غيره ضرب من الاستخفاف والهوان والذلّ. المفردات للراغب: ١٤٧، مادة «خزى».

التفسير

٦. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ):

تقدّم أنّ في السورة خطابين للمؤمنين هذا أحدهما، ويأتي الخطاب الثاني في الآية الثامنة. وأمّا وجه صلة الآية بما تقدّم، فهو أنّه سبحانه لمّا أدّب في الآيات السابقة نساء النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)وحذّرهن من التظاهر على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، ناسب أن يؤدّب المؤمنين ونساءهم، وليست الآية خاصّة بتأديب نساء المؤمنين فقط كما ربما يُتصوّر، بل تعمّ المؤمنين أنفسهم وأهليهم، ولذلك خاطبهم بقوله:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نَارًا)، والأمر بحفظ النفس والأهل عن النار كناية

عن القيام بطاعة الله واجتناب معاصيه ولا يحصل ذلك إلاّ بالإقبال نحو الخير والطاعات، والتولّي عن الشهوات.

مسؤولية الرجل عن أهل بيته

إنّ الرجل في التشريع الإسلامي له مكانة خاصّة، وهي أنّ أمر التربية بيده وأنّه مأمور من الله سبحانه بتأديب أهله وأولاده بالآداب الإسلامية، فكما هو مسؤول عن نفقتهم فهكذا مسؤول عن تربيتهم، ولذلك يخاطب الله المؤمنين عامّة بالخطاب التالي:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نَارًا).

الوحي الإلهي يركّز على تربية النفس والأهل عامّة، والمراد من الأهل أعمّ من الزوجة والأولاد، خصوصاً إذا كان الأولاد أحداثاً فيجب على الأب بذل الجهود في تربيتهم وتعليمهم وإرشادهم إلى طريق السعادة والرشاد، فإنّ تربية الحدث أسهل من تربية الكبير، قال الإمام علي(عليه السلام)في وصيته لولده الحسن(عليه السلام):«إِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْء قَبِلَتْهُ. فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الأمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ». نهج البلاغة: قسم الكتب والرسائل، برقم ٣١.

وروى الكليني عن إسماعيل بن عبدالخالق قال: سمعت أبا عبد الله(عليه السلام)يقول لأبي جعفر الأحول وأنا أسمع: أتيت البصرة؟ قال: نعم. قال: كيف رأيت مسارعة الناس إلى هذا الأمر ودخولهم فيه؟ فقال: والله إنّهم لقليل ولقد فعلوا وإنّ ذلك لقليل، وقال: «عليك بالأحداث فإنّهم أسرع إلى كلّ خير». الكافي:٩٣/٨، برقم ٦٦.

ثمّ إنّ التأديب بالعمل أكثر تأثيراً من التبليغ باللسان، يقول سبحانه:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ) الصف:٢، وقال الإمام الصادق(عليه السلام): «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليرَوا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإنّ ذلك داعية». الكافي:٧٨/٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الورع، برقم ١٤.

قوله تعالى:(وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) يشير إلى أنّ نار الآخرة تختلف عن نار الدنيا فإنّ وقود الثانية هو الحطب والزيت ولكن وقود الأُولى هو البشر والحجارة، كما قال تعالى: (وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) وكأنّ النار تشتعل من داخل الناس والحجارة. أمّا الناس فكأنّهم ادّخروا النار في صميم وجودهم باقتراف المعاصي فتخرج من ذواتهم، وأمّا الحجارة، فلا تختصّ بصخور الكبريت التي تختزن النيران في هذه الدنيا بل كلّ قطعة من الصخور غير الكبريت كذلك فإنّ ذرّاتها إذا تحرّرت تخرج من أثر ذلك التحرّر والانفجار، نارٌ هائلة.

ثمّ إنّ مشهد يوم القيامة مشهد هائل، فالعصاة من الكافرين يُحرَقون في جهنم وليس لهم أي مخلص ومهرب منها، لأنّه سبحانه وكّل بالنار ملائكة يصفهم بقوله:(عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ)، أي غلاظ لشدّة عملهم، و «شداد» أقوياء في العمل، لا يتخطّون ما أُمروا به، كما قال سبحانه: (لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ). وفي نسبة الجملة الثانية (وَيَفْعَلُونَ) إلى الفقرة الأُولى:(لاَ يَعْصُونَ) وجوه:

١. أنّ المقام، مقام يُستحسن فيه الإطناب لإيجاد الهول والخوف، فالثانية مؤكّدة للأُولى حتى يقف المخاطب على الهول العظيم السائد يومذاك.

٢. أنّ الفقرة الأُولى راجعة إلى أُمور أنفسهم من عبادة الله وغيرها، والفقرة الثانية راجعة إلى تكليفهم بالنسبة إلى أهل النار.

٣. أنّ الفقرة الأُولى ناظرة إلى التزامهم بالتكليف التزاماً قلبياً، والثانية ناظرة إلى العمل على طبق التكليف.

ولعلّ الوجه الأوّل أوفق.

قال الرازي: وفي الآية إشارة إلى أنّ الملائكة مكلّفون في الآخرة بما أمرهم الله تعالى به وبما ينهاهم عنه، والعصيان منهم مخالفة

للأمر والنهي. تفسير الرازي:٤٦/٣٠.

يلاحظ عليه أوّلاً: بأنّ تخصيص كونهم مكلَّفين بالآخرة ممّا لا وجه له، إذ لو كانوا متصدّين للتكليف، لكانت الدنيا أَولى بذلك ؛ لأنّ الدنيا دار تكليف والآخرة دار جزاء.

إلاّ أن يقال: إنّ ما ذُكر مختصّ بالبشر.

وثانياً: إنّ عدم عصيانهم وامتثالهم ما أُمروا به، يحتمل وجهين:

أ. أن يكون الملَك موجوداً قادراً على الامتثال والعصيان فيختار دائماً جانب الامتثال.

ب. أن يكون موجوداً نورياً لا يريد إلاّ ما أراد الله ولا يفعل إلاّ ما يؤمر، كما في قوله سبحانه:(بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) الأنبياء:٢٧، وعلى ذلك فهم مسيّرون تكويناً وفق ما أُمروا، وتكليفهم تكليف تكويني لا تشريعي، كما في قوله سبحانه:(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ). فصلت:١١.

وجعل الآية دليلاً على الاختيار أَولى من أن تُجعل دليلاً على التكليف.

٧. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ):

قد تقدّم أنّ في السورة خطاباً للكافرين، وذلك لأنّه لمّا ذكر أهوال يوم القيامة وشدّة عمل الموكَّلين بالنار، ناسب أن يخاطب الكافرين بقوله:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ)فنهاهم عن الاعتذار، وذلك لما قلنا من أنّ الاعتذار عبارة عن الحجّة التي تبرئ صاحبها من تبعة عملهم، وليس للكافرين في ذلك اليوم أي حجّة تبرئ عملهم، وآخر ما في كنانة الكافرين هو التوبة والندم وهي غير مقبولة يوم القيامة، ولذلك قال:(لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ)لأنّه سبحانه أتمّ الحجّة عليهم ببعث الأنبياء وإنزال الكتب، فلم يبق لهم أي عذر في مخالفة الله سبحانه.

وهنا سؤال ربّما يوجّهه الشباب إذا قُرئت عليهم هذه الآية، وهو: أنّ من أسمائه سبحانه كونه رحماناً، ورحيماً، ورؤوفاً بالعباد، فلماذا لا يقبل اعتذار هؤلاء؟ ومع أنّه فيّاض بالذات، فلماذا يحرم هؤلاء من فيضه؟

أقول: إنّ الله سبحانه ذكر جواب هذا السؤال بقوله:(إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فجزاؤهم تجسُّم أعمالهم، فإنّ العمل له ثوب دنيوي وله ثوب أُخروي، فما يشاهدون من الجزاء هو نفس العمل الذي ارتكبوه ولا محيص لهم عنه ؛ لأنّ الجزاء ليس أمراً جعلياً واعتبارياً وإنّما هو حقيقة أعمالهم الدنيوية، كما في قوله سبحانه:(إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

والآية دليل على تجسّم الأعمال وظهورها بوجود أُخروي في الآخرة. نعم كون الجزاء منحصراً بتجسّم الأعمال مورد تأمّل.

٨ . (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُمْ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَ اغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ):

إنّ الله سبحانه خاطب المؤمنين بقوله:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ...) ثمّ خاطب الكافرين بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا) ثم عاد يخاطب المؤمنين بخطاب ثان، كما في الآية هذه، وهي تتضمّن أُموراً:

١. دعوة المؤمنين إلى توبة نصوح خالصة لله أو خالصة من أي ترديد في العَود، كما يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا) والتوبة نوع انقلاب في النفس، وهو الانقلاع عن الرذائل والتحلّي بالفضائل، ولذلك صارت مستحقة للأمر التالي.

٢. رجاء تكفير السيئات، كما قال سبحانه:(عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ): أي رجاء أن يستر سيئاتكم. وإنّما استخدم كلمة «عسى» حتّى لا يغتر التائب بأنّ الله سبحانه كفّر سيئاته قطعاً ويقيناً، لأنّ ذلك يورث الاغترار في قلب التائب،

فاستخدم لفظة «عسى» لكي يكون التائب على حذر طول حياته.

٣. جزاؤهم بأفضل ما يمكن، أعني: كما يقول:(وَ يُدْخِلَكُمْ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ).

٤. لمّا تقدّم في قوله سبحانه:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا اليَوم) فقال سبحانه مشيراً إلى ذلك اليوم: إنّ للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في ذلك اليوم شأناً وللمؤمنين شأناً آخر، أمّا الأوّل، فهو أنّ الله سبحانه لا يخزي النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ولا يصيبه أي استخفاف، وذلك لأنّهما من خصائص الكافرين، كما يقول:(إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ) النحل:٢٧. ، فهو على عزة ومنعة يوم الحشر.

٥. أنّ الإيمان نور في قلب المؤمن في الدنيا ويظهر في الآخرة بوجوده النوري يمشي أمام المؤمنين وعن جوانبهم كما يقول:(وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ)فقوله:(وَالَّذِينَ آمَنُوا) مبتدأ خبره (يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) والعاطف في قوله:(وَالَّذِينَ) مستأنفاً.

فإن قلت: إنّ جعل العاطف مستأنفاً يستلزم انقطاع الجملة عمّا تقدّمها ـ أعني: «النبي» ـ ومعنى ذلك اختصاص سعي النور بالمؤمنين دون النبي(صلى الله عليه وآله وسلم).

قلت: إنّ النبي أعلى و أفضل من أن يوصف بأنّ نوره يسعى بين يديه وأيمانه، فإنّ ذلك يختصّ بمن قصر نوره، فاحتاج إلى التتميم، والنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)يوم القيامة وجود نوري ينوّر المحشر.

٦. بما أنّ الإيمان له درجات مختلفة فمنه إيمان تام ومنه إيمان ناقص، فإنّ نور المؤمنين يختلف أيضاً بالتمام والنقص، فالطائفة الثانية تدعو الله سبحانه لإتمام نورهم: (يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَ اغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ) و الظاهر أنّ إتمام النور يتمّ بالمغفرة.

وبما ذكرنا ظهر وجه عدم عطف(وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ) على «النبي» لأنّ لازم ذلك اشتراك النبي مع المؤمنين في دعائهم وهو قولهم:(رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا).

ومن عجيب الكلام ما ذكره ابن عاشور حيث جعل الآية دليلاً على المغفرة لجميع أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم). التحرير والتنوير:٢٨/٣٣٢.

يلاحظ عليه: أنّ الآية ليست من قبيل القضايا الخارجية بل من قبيل القضايا الحقيقية تشمل عامّة المؤمنين إلى يوم القيامة، فلو صحّ ما ذكر يلزم المغفرة لجميع المؤمنين من كافّة الفرق، وهو كما ترى، فالآية بصدد بيان المقتضي وأنّ أسباب المغفرة معدّة ليوم القيامة لمن آمن بالنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)إلاّ أنّها مشروطة بشرائط خاصّة، كما هو الحال في التوبة وغيرها، فعقوق المؤمن لا يغفر أبداً، وهكذا تارك الصلاة.

ثمّ إنّ للإمام علي(عليه السلام) كلاماً في الاستغفار ربّما يفسّر لنا معنى: التوبة النصوح، حيث قال ـ بحضوره ـ قائل: أستغفر الله، فقال الإمام(عليه السلام) له: «ثكلتك أُمّك، أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفارُ دَرجةُ العِلّيّين، وهو اسمٌ واقعٌ على سِتَّةِ معان: أوّلها النَّدَم على ما مَضى، والثّاني العزمُ على تركِ العَود إليه أبداً، والثّالثُ أن تُؤدّي إلى المَخلوقينَ حقوقهم، حَتّى تَلقَى اللهَ أملَس ليس عليك تَبِعةٌ، والرابعُ أن تعمِد إلى كلِّ فريضة عليك ضَيَّعتَها فتُؤدّي حَقَّها، وَالخامِسُ أن تَعمِدَ إلى اللَّحمِ الّذي نَبتَ على السُّحتِ فَتُذيبَهُ بِالأحزان، حتّى تُلصِقَ الجِلدَ بِالعَظمِ، وَيَنشأَ بينهما لَحمٌ جَديد، والسَّادسُ أن تُذيقَ الجِسمَ أَلَمَ الطّاعةِ كما أذقتَهُ حَلاوةَ المَعصيةِ، فعند ذلك تقولُ: أستغفرُ اللّهَ». نهج البلاغة: باب قصار الحكم، برقم ٤١٧.

الآية ٩ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنَافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ):

المفردات

الجهد: والمجاهدة: استفراغ الجهد في مدافعة العدو.

اغلُظ: غَلَظَ، والغِلظة ضد الرّقّة، والمراد بها: الخشونة.

التفسير

لقد مرّ في تفسير أوّل السورة أنّ الله سبحانه خاطب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)بخطابين:

أحدهما: قوله:(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ).

والآخر: ما في هذه الآية حيث يأمره بجهاد الكفّار والمنافقين والغلظة عليهم كما يقول سبحانه:(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ): أي ابذل ما فيك من الطاقة في دفع الكفّار، واشدُد عليهم.

والمجاهدة لها مراتب: تارة باللسان، وأُخرى بالقتال، وقد قام بها النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في مورد الكفّار.

وأمّا المنافقون فلم يظهر من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قتالهم، فيكون المراد جهادهم بالكلمة القوية، والموقف الحازم، الذي يُفشل مخطّطاتهم في تمزيق الصف الإسلامي، وزعزعة أمن المجتمع واستقراره.

ويحتمل أن يكون المراد إقامة الحدود عليهم لأنّها تقام على مَن دخل في حظيرة الإسلام في الظاهر وإن لم يكن في الواقع كذلك.

ثمّ إنّه سبحانه يصف حالهم في الآخرة بعد وصف حالهم في الدنيا ويقول:(وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ).

إنّ جهاد المنافق أصعب من جهاد المشرك، فإنّ المشرك عدو سافر يعرفه كلّ الناس، وأمّا المنافق فقد احتجب بالإسلام وهو مبطن للكفر يعيش مع المسلمين عيشة إسلامية، ولكنّه بصدد قطع جذور الإسلام وهدم كيانه، يقول سبحانه:(اِتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) المنافقون:٢.

إنّ الأقلية التي تختلف عن الأكثرية في العقيدة ـ خصوصاً إذا كانوا يتآمرون على الأكثرية ـ يخافون من أن تنكشف نواياهم وأعمالهم الإجرامية، فلذلك يلجأون إلى الأيمان المغلّظة على أنّهم منهم، وأنّهم لا يحيكون أي مؤامرة ضد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن هنا كان المنافقون يأتون النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)ويُقسمون له على عدم ارتكاب أي جريمة أو عمل على خلاف مصالح المسلمين، ولذلك كانوا يذبّون عن أنفسهم آثار التهم، فعبّر سبحانه عن ذلك بقوله:(اِتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً).

وأمّا الخوارج فلم يكونوا منافقين بل كانوا بغاةً، ولأجل ذلك وصفهم الإمام(عليه السلام) بقوله: «لاَ تقتلوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي؛ فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ، (فأعطى) كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ».(نهج البلاغة: الخطبة ٦١، قال الشريف: يعني: معاوية وأصحابه.)

الآيات ١٠ ـ ١٢ (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَ امْرَأَةَ لُوطٍ ... وَ كَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ).

المفردات

مَثَلاً: المثَل: دلّت غير واحدة من الآيات القرآنية على أنّ كتاب الله مشتمل على الأمثال، وأنّه سبحانه ضربها للناس للتفكير والعبرة، قال سبحانه:(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ). الحشر:٢١.

هذا من جانب ومن جانب آخر، أنّ المثل عبارة عن كلام أُلقي في واقعة لمناسبة اقتضت إلقاء ذلك الكلام، ثم جرى تداولها عبر الزمان في الوقائع التي هي على غرارها، كما هو الحال في عامّة الأمثال في كافّة لغات العالم.

لكن المثل بهذا المعنى غير موجود في القرآن الكريم لأنّه سبحانه أسماه «مثلاً» عند النزول قبل أن يعيها النبي(صلى الله عليه

وآله وسلم) ويقرأها على الناس وتدور على الألسن، فلا مناص من تفسير المثل في القرآن الكريم بمعنى آخر وهو:
التمثيل القياسي الذي تعرّض له علماء البلاغة في علم البيان وهو قائم بالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، وسمّاه القزويني في «تلخيص المفتاح» بالمجاز المركّب، وقال: إنّه اللفظ المركّب المستعمل فيما شُبّه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه، ثمّ مثل بما كتب يزيد بن وليد إلى مروان بن محمد حين تلكّأ عن بيعته: أمّا بعد، فإنّي أراك تقدّم رجلاً وتؤخّر أُخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيّهما شئت، والسلام. الإيضاح:٣٠٤، التلخيص:٣٢٢.
فلهذا التمثيل من المكانة ما ليس له لو قصد المعنى بلفظه الخاص، حتى أنّه لو قال مثلاً: بلغني تلكّؤك عن بيعتي، فإذا أتاك كتابي هذا فبايع أو لا، لم يكن لهذا اللفظ من المعنى بالتمثيل، ما لذاك. فعامّة ما ورد في القرآن الكريم من الأمثال فهو من قبيل التمثيل لا المثل المصطلح.
إلى هنا تبيّن معنى المثل، بقي الكلام في معنى «ضرب المثل»؟
الظاهر أنّ المراد من الضرب هو الوصف والبيان، وبه فُسِّر قوله سبحانه:(ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ)(النحل:٧٥.)، واستشهد بقول الكميت:

وذلك ضرْب أخماس أُريدت *** لأسداس عسى ألا تكونا

١ . تفسير الطبري:١/١٧٥.

ويؤيّد ذلك قوله سبحانه:(أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً) الفرقان:٩.: أي انظر كيف وصفوك.
وعلى هذا فضرب المثل في القرآن بمعنى تبيين حال شيء بشيء.
فخانتاهما: قال الراغب: الخيانة والنفاق واحد إلاّ أنّ الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتباراً بالدين، ثم يتداخلان، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السرّ. ونقيض الخيانة: الأمانة. المفردات للراغب: ١٦٣، مادة «خون».
أحصنت:الإحصان: قال الراغب: يقال: حَصان للعفيفة ولذات الحرمة، والحَصان في الجملة المحصَنة إمّا بعفّتها أو تزوُّجها أو بمانع من شرفها وحريتها. المفردات للراغب :١٢١، مادة«حصن».
والأولى أن يقال: الحِصن هو القلعة، وكأن عفّة المرأة أو تزوّجها أو شرفها وحريتها تمنعها من ارتكاب المحرّمات.

التفسير

خاطب سبحانه فيما تقدّم من الآيات الكافرين بقوله:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا) ثم خاطب المؤمنين بقوله:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللّهِ)، فإذن ناسب أن يبيّن حال كلّ من الطائفتين بأن يجعل لكلّ منهما مثلاً ويبيّن حالهما ببيان حال جماعة يعتبر بها الكافر، ويقتدي المؤمن ببيان حال الجماعة الثانية.
أمّا بالنسبة للكافر فقد ذكر القرآن الكريم حال امرأة نوح وامرأة لوط، أي زوجي نبيّين، حيث خانتا زوجيهما.
وأمّا بالنسبة للمؤمن فقد ذكر زوجة فرعون ومريم بنت عمران، وبذلك بعد بيّن أنّ مصير الكافرين هو مصير امرأتي النبيّين، ومصير المؤمنين هو مصير زوجة فرعون ومريم بنت عمران.
وفي الوقت نفسه تضمّن ضرب المثل هذا، تعريضاً بزوجتي النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) وأنّ حالهما أشبه بحال امرأة نوح وامرأة لوط في الخيانة لزوجيهما، لأجل إفشاء سرّه والتظاهر عليه، وكأنّه سبحانه قال لعائشة وحفصة: لا تكونا بمنزلة امرأة نوح وامرأة لوط في العصيان، بل كونا بمنزلة امرأة فرعون ومريم، قال الزمخشري:إنّ من حقهما أن تكونا في الأخلاق والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين، وان لا تتّكلا على أنّهما زوجا رسول الله، فإنّ ذلك الفضل لا ينفعهما إلاّ مع كونهما مخلصتين، والتعريض

بحفصة أرجح ؛ لأنّ امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله. تفسير الكشاف:٣/٢٤٩.   توضيح ذلك: أنّ كثيراً من النساء يتصوّرن أنّ صلة الإنسان برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وكونه من ذريته أو ممّن ينتسب له قرابة أو رضاعاً أو كونه جاراً لبيت الله أو عامراً لمسجده، أو ساقياً لحجيجه، أنّ ذلك ينجيه من العذاب الأليم، والله سبحانه بالتمثيل الأوّل يبين أنّ تلك العناوين وإن كانت تعدّ فضيلة وكرامة وفخراً ولكنّها لا تنجيه من شيء إلاّ إذا كان مطيعاً لله ومجتنباً لمعاصيه.   بل ربما تصير تلك العناوين سبباً لتشديد التكليف عليه، كما يقول سبحانه:(يَا نِسَاءَ النَّبِي مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَة مُبَيِّنَة يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا) الأحزاب:٣٠. ، وبذلك تتعاظم مسؤولية المنتمين لبيوت النبوة والإمامة بل بيوت العلماء.
١٠. (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوح وَ امْرَأَةَ لُوط كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَ قِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ):
أمّا امرأة لوط فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم قال سبحانه:(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْع مِنَ اللَّيْلِ وَ لاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ).(هود:٨١.)   وأمّا امرأة نوح فلم تُذكر صريحاً وإنّما أُشير إليها، قال سبحانه:(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) هود:٤٠..   فإنّ ظاهر الاستثناء أنّه استثناء من الأهل، فيحمل على زوجته.   وربما يقال: إنّه سبحانه لم يضرب المثل بأبي إبراهيم(آزر) وابن نوح مع تقدّم ذكرهما في القرآن الكريم، وذلك لتكون في ذكر المرأتين فائدة مستجدة. التحرير والتنوير:٢٨/٣٣٥.   يلاحظ عليه: أنّ التمثيل بزوجتي نوح ولوط أنسب في المقام ؛ لأنّ الهدف التعريض بزوجتي النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) اللتين تظاهرتا عليه وأفشيتا سرّه، وأين هذا من التمثيل بآزر وابن نوح؟   قوله:(كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ) ولم يقل «نبيّين» ليعمّ كلّ زوجة كانت تحت زوجها الصالح وإن لم يكن نبياً، ولذلك قال: (مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِين).   قال السيد الشريف الرضي (رحمه الله): إنّ قوله (تَحْتَ عَبْدَيْنِ) لا يراد به حقيقة الفوق أو التحت وإنّما المراد أنّ منزلة المرأة منخفضة عن منزلة الرجل لقيامه عليها وغلبته على أمرها، كما يقول القائل: فلان الجندي تحت يدي.(تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٢٩٥ .)   وأمّا قوله: (فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا) فأمّا خيانة امرأة نوح فإنّها كانت تقول للناس: إنّه مجنون، وأمّا خيانة امرأة لوط فكانت تدلّ قومها على أضيافه.   أخرج ابن عساكر عن أشرس الخراساني يرفعه إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال:«ما بغت امرأة نبي قط». تاريخ مدينة دمشق: ٥٠ / ٣١٨ .   وأخرج ابن عدي عن الضحّاك في قوله: (فَخَانَتَاهُمَا): كانتا كافرتين مخالفتين ولا ينبغي لامرأة تحت نبي أن تفجر. الدر المنثور: ٦ / ٢٤٥.   وبسبب خيانة المرأتين وكفرهما وتمامية الحجّة عليهما خوطبتا بقوله:(وَ قِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)، ولم يذكر اسم القائل

استخفافاً بهما، و المراد من الداخلين أي الداخلين فيها من قومهما وعدّهما من عداد الداخلين إهانة لهما وعدم كرامة لهما أصلاً، فلا يهمّ كيف هلكتا ومع مَن هلكتا.

وعلى كلّ تقدير فقوله: (فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا) صريح في أنّ عناوين الفضل لا تنجي الكافر شيئاً من العذاب وإنّها إنّما تؤثر إذا اقترنت بالإيمان والعمل الصالح.

وهكذا يرسّخ القرآن الكريم من خلال ضرب المثل لأهل الكفر بهاتين المرأتين، يرسّخ قاعدة ربّانية ذات أثر كبير في حياة المجتمع وفي تقييم المواقف، وهي أنّ تزكية الإنسان ترتبط ارتباطاً وثيقاً بإيمانه وإخلاصه وحسن سيرته وصدق سريرته، وأنّ الرابطة الأُسرية وآصرة القربى بأزكى الناس وأطهرهم لا تجدي شيئاً إن لم تعززها العقيدة السليمة، والأعمال الصالحة، والمسلك القويم.

ثمّ إنّ الموعظة الكاملة تقوم على ركنين:

الترغيب والترهيب، وإن شئت قلت: التخريب والبناء، فالنهي عن الاقتداء بامرأتين فاسدتين لا يكفي بمفرده في بناء شخصية مؤمنة، بل يفتقر إلى أمر آخر وهو عرض أُسوة صالحة لأن يقتدي بها المتّعظ، وقد ورد سبحانه من هذا الطريق فبعد أن حذّر المؤمنات من الاقتداء بامرأتي لوط ونوح قام بضرب المثل بامرأتين مؤمنتين صالحتين لكي تكونا أُسوة للمرأة المؤمنة، وهما:امرأة فرعون، ومريم بنت عمران.

أمّا الأُولى فقال في حقّها سبحانه:

١١. (وَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ):

وقد ورد في الروايات أنّ اسمها آسية بنت مزاحم فقد آمنت بالله وكتبه ورسله، وكفرت بأُلوهية فرعون فهدّدها بالقتل، فآثرت مرضاة الله ونعيمه على ملك فرعون وسلطانه، فطلبت من الله سبحانه أُموراً:

١. جوار الله وقربها منه سبحانه الذي كان فيه ما تشتهيه الأنفس وتتمنّاه القلوب.

٢. أن يكون لها بيتٌ في الجنة، التي هي مسكن الأنبياء ومأوى الأولياء، وأشارت إلى هذين الأمرين بما حكاه الله عنها بقوله: (رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ).

٣. أن ينجّيها من فرعون الذي كان يدّعي الإلوهية، ولم يكن لزوجته إلاّ متابعته.

٤. أن ينجّيها من عمل فرعون، أي من عمله حيث تدعو ضرورة المصاحبة إلى الاشتراك فيه.

٥. (وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، أي المجتمع الفاسد، الذي فقد إرادته، وشعوره بالكرامة، فساند الطاغية، وزيّن له ظلمه واستبداده.

وفي هذه الدعوات دليل واضح على أنّها قد كَمُل إيمانها فوافق لسانها قلبها، فتمنّت من الله سبحانه ما في ضميرها، وهذا دليل على كمال الإيمان.

وفي نهاية الأمر تدلّ الآية على أنّ قرابة الخبيث من الطيّب كقرابة زوجتي نوح ولوط لا تنفعه، كما أنّ صلة الطيب بالخبيث لا تضره شيئاً إذا كان مؤمناً صادقاً في إيمانه.

وممّا يثير العجب هو ثبات امرأة فرعون أمام التعذيب الذي قلّما يتّفق لإنسان أن يتحمّله، فقد روي أنّ فرعون وتّد امرأته بأربعة أوتاد و استقبل بها الشمس وأضجعها على ظهرها ووضع رحى على صدرها. تفسير الكشاف:٣/٢٥٠.

وهكذا تستجيب النفوس الطاهرة لنداء الإيمان، فتستعلي على ما في هذه الدنيا وهي متاحة بين يديها، وتؤثر رضا الله سبحانه، وتتحمّل ألوان العذاب، ولا ترهب القتل في سبيل الله.

١٢. (وَ مَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ التِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَ صَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَ كُتُبِهِ وَ كَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ):

إذا كانت آسية بنت مزاحم أُسوة كاملة لمن يريد النجاة والنجاح من النساء، فهناك أُسوة أُخرى وهي مريم بنت عمران ولم يذكر اسم امرأة في القرآن الكريم إلاّ هي، فوصفها سبحانه بالنعوت التالية:

أ. (أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) كناية عن طهارتها ممّا رماها به اليهود من البغاء والفجور.

ب. (فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا): أي منح الله سبحانه الحياة لوليدها السيد المسيح، تماماً كما منح الحياة لآدم دون أن يمسّها رجل، ولذلك قال سبحانه: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) آل عمران:٥٩..

ج. (وَ صَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَ كُتُبِهِ): أي آمنت بما تكلم الله به سبحانه من الوحي إلى أنبيائه، والكتب المشتملة على شرائع الله تعالى كالتوراة والإنجيل وبذلك صارت صدّيقة، قال سبحانه:(مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ) المائدة:٧٥..

د. (وَ كَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ): أي من المطيعين لله دائماً امتثالاً لأمر ربّها، وقد خاطبها سبحانه بقوله:(يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ) آل عمران:٤٣..

وبذلك ظهر أنّه سبحانه إذا أراد أن يضرب أُسوة لموضوع معيّن، فإنّما يأتي بالمصداق الأعلى والفرد الأتمّ من غير فرق بين الفساد والصلاح، فامرأتا لوط ونوح كانتا في قمّة الفساد، كما أنّ آسية ومريم كانتا في ذروة الكمال والصلاح والإيمان، وهذا من خصائص القرآن الكريم.

فاطمة الزهراء(عليها السلام) سيّدة نساء العالمين

وصف سبحانه وتعالى مريم بقوله:(وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) آل عمران:٤٢..

فقوله؛(وَطَهَّرَكِ) دليل على كونها محدّثة تحدّثها الملائكة وأنّه سبحانه طهّرها من صفات الرذائل وزيّنها بالفضائل، فالتطهير بين الاصطفاءين آية العصمة، فكانت معصومة لا تعصي الله فيما يأمر وينهى، فقد اصطفاها الله سبحانه على نساء العالمين، وهل المراد اصطفاؤها على نساء العالمين من السابقات والمؤخّرات أو المراد نساء عالمها وزمانها؟

قال الطبرسيّ في تفسير قوله:(وَ اصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ): أي على نساء عالمي زمانك ؛ لأنّ فاطمة بنت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) سيد نساء العالمين، وهو قول أبي جعفر(عليه السلام). مجمع البيان:٣/٣٥٦.

وقد تضافر عن طرق أهل السنّة أنّ فاطمة من سيدات نساء العالمين.

روى السيوطي في «الدر المنثور» أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وآسية امرأة فرعون». الدر المنثور: ٢ / ٢٣.

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «أربع نسوة سادات عالمهن: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأفضلهن عالماً فاطمة». تاريخ مدينة دمشق: ٧٠ / ١٠٨ .

تمّ الكلام في تفسير السورة ولكنّي أحب أن أتكلّم في مواضيع ثلاثة لها صلة بمضمون آيات هذه السورة.

١. عدالة الصحابة في الميزان

إنّ عدالة الصحابي والصحابية أصبحت عقيدة راسخة في تفكير إخواننا أهل السنّة، مع أنّهم اختلفوا في تعريف الصحابي اختلافاً واسعاً.

لا شكّ أنّ للصحبة تأثيراً في النفوس من غير فرق بين كون المصاحب مصاحب سوء أو غيره، إلاّ أنّ الكلام في أنه هل مصاحبة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) يوماً أو أُسبوعاً أو شهراً أو سنة توجب انقلاب الإنسان من الفسق إلى العدالة؛ في جميع الأفراد من المدني وغيره، أو أنّ تأثير الصحبة يختلف، فمنها ما يجعل الإنسان إنساناً تقيّاً تُستمطَر به السماء، ومنهم من يصل إلى درجة قريبة من ذلك، وهكذا إلى أن تصل إلى درجات نازلة لا يتجاوز المصاحب كونه إنساناً عاديّاً كسائر الناس يطيع ويعصي؟

لكن الظاهر من أهل السنّة أنّ الصحبة تعمل في تكوين الشخصية وإعطاء العدالة كمادة كيمياوية تستعمل في تحويل عنصر كالنحاس إلى عنصر آخر كالذهب حتى تصنع صحبة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) الجيل الكبير الذي يناهز مائة ألف أُمّة عادلة رسالية تكون قدوة وأُسوة للأجيال المستقبلة.

هذا ما يستفاد من كلام القائلين بعدالة الصحابة كلّهم أجمعين بلا استثناء منهم.

وأنت ترى أنّ ذلك الاعتقاد لا يدعمه الكتاب ولا السنّة ولا سيرة الصحابة ولا الأُصول التربوية.

إنّ صحبة الصحابي لم تكن بأكثر من صحبة الامرأتين اللّتين كذبتا على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وافتريتا عليه حتى وصف سبحانه حالتيهما بقوله:(فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) وهاتان المرأتان كانتا تصاحبان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلهما ونهارهما، بجسميهما وروحيهما، ومع ذلك لم تؤثّر صحبتهما له إلاّ كما ترى.

وقد استوفينا الكلام في الموضوع في كتابنا «بحوث في الملل والنحل». بحوث في الملل والنحل:١/٢٦٣ـ٣٦٨.

والحق أنّ الصحابي كالتابعي فهو بين عادل وغيره، فكما أنّه يجب الفحص عن عدالة التابعي ووثاقته، كذلك الصحابي يسري عليه نفس الأمر.

٢. مؤلّف الآيات الشيطانية

إنّ المرتد سلمان رشدي ألّف كتاباً باسم «الآيات الشيطانية»، وهو هندي الأصل بريطاني الجنسية والدراسة، وقد ترجم الكتاب بإيعاز من الدول الاستعمارية إلى أكثر اللغات العالمية مع أنّه ليس بكتاب أدبي ولا علمي ولا تاريخي، بل أشبه بأضغاث أحلام نسجها الخيال وروّج لها الاستعمار.

وقد أخذ مادّة الكتاب من تفسير الطبري، وكتاب تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان، وكتاب «الإسلام» لفرويد هيوم، ثم أدخل فيه كثيراً من خيالاته وتوهّماته.

وقد قام الإمام الخميني(رحمه الله) بوجه هذا الكتاب فحكم على مؤلّفه بالارتداد، ولو نهضت الأُمّة الإسلامية وعلى رأسها الحكومات التي تحكم باسم الإسلام في ذلك الوقت، وساندت الخطّ الذي رسمه الإمام لما اجترأ أحدٌ اليوم على إنتاج فلم موهن لكرامة النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)، فبسبب التسامح والتساهل في هذا الأمر، قام الأعداء بصنع الأكاذيب والأوهام حول حياة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)مجدّداً.

٣. الفلم الموهن لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)

يجري القلم على هذه الصفحات في الوقت الذي تنشر فيه وسائل الأعلام أنّ شركات الأفلام في الدول الغربية (أمريكا) قاموا بانتاج فلم مسيء لساحة نبي الإسلام(صلى الله عليه وآله وسلم) على وجه يترفّع القلم عن بيانه، وهو(صلى الله عليه وآله وسلم) في قمّة

الطهارة والنزاهة والأخلاق، وشهد القرآن الكريم على كمال خلقه ورفقه بالنساء والمؤمنين حتى أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يستحي أن يشير إليهم بترك المجلس بعد الإطعام، قال تعالى:(فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيث إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ) الأحزاب:٥٣، فقد بلغ نبيّ العصمة من الحياء درجة لا يستطيع أن يواجه أصحابه بالطلب منهم أن يتركوا مجلسهم عنده.

فإذا كان هذا خلقه وحياؤه، فكيف ينسب إليه ما يضادّ ذلك تماماً، وأنا شخصياً وإن لم أُشاهد الفلم غير أنّي أقول: إنّ هؤلاء الكافرين أخذوا ما في كتب السيّرة والحديث من الأحاديث الموضوعة ذريعة لأكاذيبهم، وهاك أُنموذجاً من ذلك.

روى أحمد في مسنده، عن أزهر بن سعيد الحرازي قال: سمعت أبا كبشة الأنماري قال: كان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) جالساً في أصحابه فدخل ثم خرج وقد اغتسل، فقلنا: يا رسول الله قد كان شيء ؛ قال: أجل مرّت بي فلانة فوقع في قلبي شهوة النساء فأتيت بعض أزواجي فأصبتها، فكذلك فافعلوا فإنّه من أماثل أعمالكم إتيان الحلال. مسند أحمد:٤/٢٣١. ولاحظ مجمع الزوائد للهيثمي:٤/٢٩٢؛ المعجم الأوسط للطبراني:٣/٣١١؛ كنز العمال:٥/٣٢٨.

فعلى الغيارى من علماء الإسلام تأسيس هيئة علمية لتنقية كتب التاريخ والسير والحديث من مثل هذه الروايات المخزية التي يشهد القرآن الكريم والسيرة الصحيحة على كذبها ووضعها.

***

تمّ تفسير سورة التحريم

الفهرس